العقيد أورست بنتو

تعريب :
حميد الرشيد

مكافحة الجاسوسية



الدار العربية للموسوعات

مكافحة الجاسوسية



الدار العربية للموسوعات

ص. ب ٥٣٤٨٠/ ١٣ تلكس : ARATRD LE٢٣١٠٧

بيروت ـ لبنان .

العقيد أورست بنتو



تعريب :
حمير الرشيد

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الاولى
١٩٨٦

الإهداء

إلى الجندي العربي

كلمة الدار

ما من احد يجهل اهمية الجاسوسية وأثرها في مصير الدول والأنظمة، وقلب الموازين سواء في الحرب أم في أيام السلم.

وتخوض الأمة العربية حرباً صعبة مع العدو الصهيوني والامبريالية الذي برع في فنون الجاسوسية وحقق فيها نجاحات باهرة. فمن سرقة أسرار القنبلة الذرية في كندا، الى كوهين، إلى سرقة أسرار طائرة الميراج من سويسرا، الى سرقة الزوارق الحربية من شربورغ، إلى سرقة شحنات اليورانيوم في البحر... والتعداد يطول.

من هنا حاجتنا إلى الاطلاع على فن ـ وعلم ـ الجاسوسية وأسراره، وطرق كشف ومكافحة الجواسيس، بأحدث الوسائل العلمية والتقانية.

وكتاب «مكافحة الجاسوسية» الذي بين يديك يحوي خلاصة الخبرات والتجارب التي اكتسبها ضابط كبير في رئاسة جهاز مكافحة الجاسوسية، تحت ظروف عصيبة أثناء الحرب العالمية الثانية.

فيه الكثير الكثير من المعرفات والخبرات، ومن حق ـ بل واجب كل عربي ـ أن يطلع عليه، فلا ينخدع أو ينقاد كمطية لغايات أعدائه. أولم يقل «ديغول»: «العرب أذكياء جدا في تنفيذ مخططات أعدائهم»؟

مقدمة المترجم

الجاسوسية موضوع قديم وله خطورته أثناء الحرب والسلم ، وقد تغلب دولة ما في الحرب نتيجة قوة جهاز إستخباراتها وفضحه الخطط الاقتصادية والعسكرية العدوة قبل أو أثناء تطبيقها . فسرقة مخطط هجوم العدو أو مخطط دفاع العدو يبين لنا القوى التي يجب أن نحصل عليها لدرء خطر العدو وكيفية إستخدام قوانا بالشكل المؤثر .

وتكون عادة أقوى أجهزة الاستخبارات المنظومات (الحزبية) داخل البلاد المجاورة والبلاد الأخرى إذا كانت (القيادة) في بلادنا ، وبهذا نجد أن جميع التيارات الوافدة من خارج الحدود ومن أي إتجاه تتقصد إصطياد (الأغبياء) وتطلق عليهم صفة الوطنية ، ويسقط الكثير في دوامة الجاسوسية الطوعية ويجندوا أنفسهم لدولة أجنبية دافعهم إلى ذلك الاخلاص القومي أو الاشتراكي أو الشيوعي أو الاخلاص إلى الخلافات الدولية القادمة مثل الولاء إلى الجنس الأبيض أو الأصفر أو الأسود أو الأجناس الحائرة .

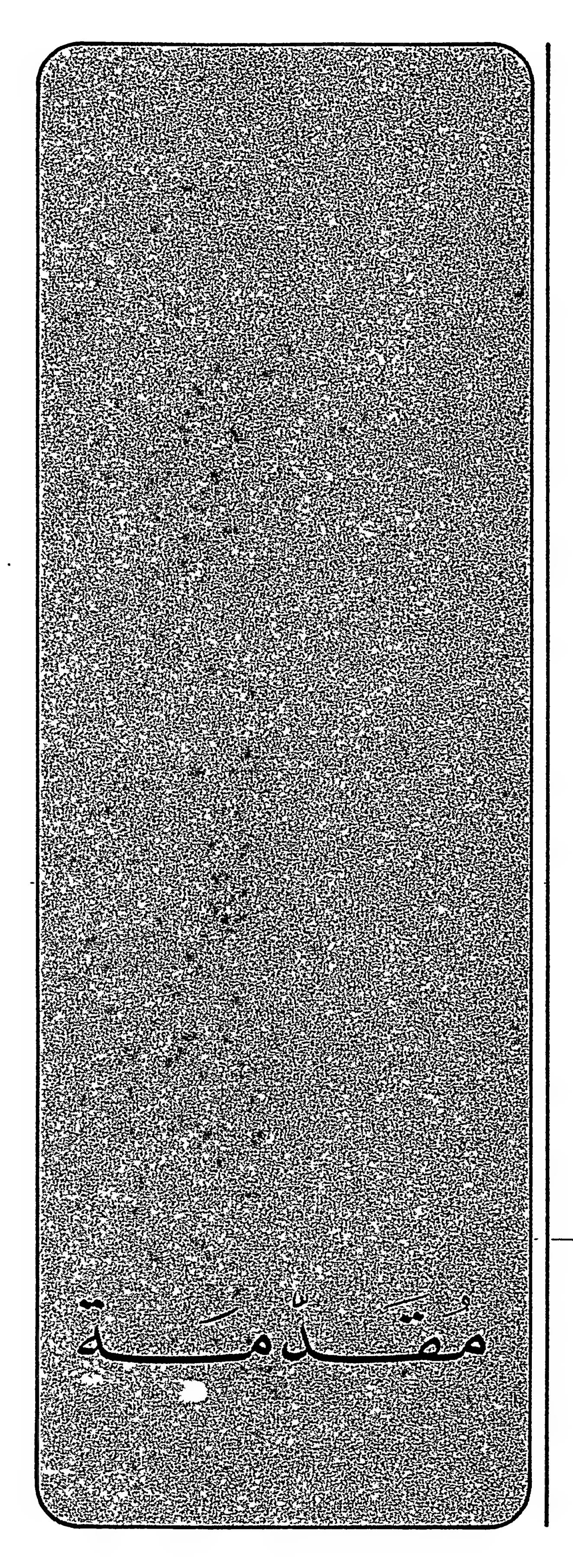
وقد وجدت في هذا الكتاب خبرة ضابط عمل تحت ظروف عاصفة أثناء الحرب العالمية الثانية ، وهو هولندي الأصل ، وكانت بلاده ساحة عبور لقوات المحور وقوات الحلفاء الغربيين . وقد استخدمته القيادة البريطانية رئيساً لجهاز مكافحة الجاسوسية لديها . وقد قام بكتابة هذا الكتاب بعد

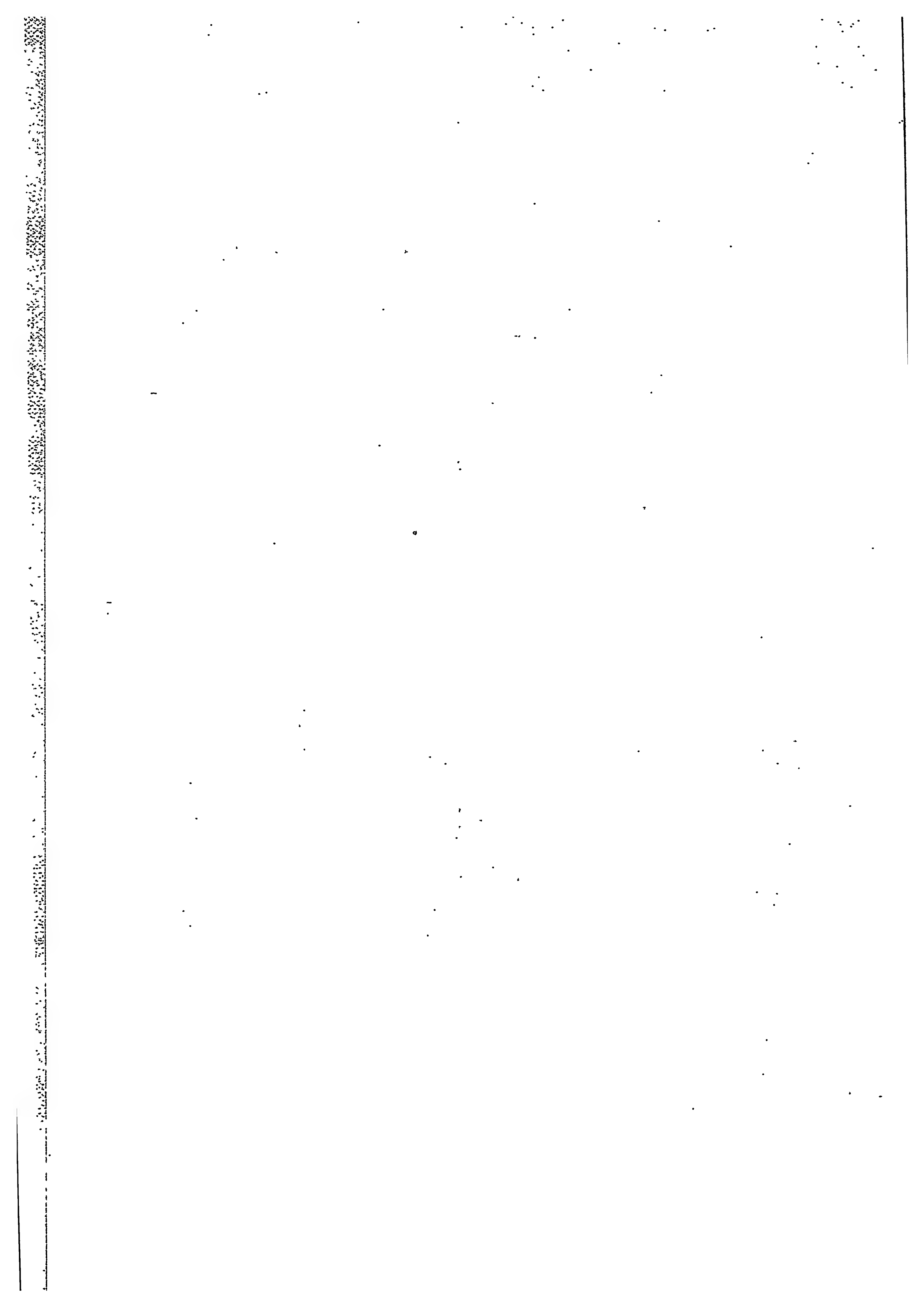
تقاعده وإنتهاء الحرب واستمده من خبرته الشخصية في تعقيب قوى التخريب النازية في اوروبا الغربية .

أرجو أن يطور هذا الكتاب حدس القارىء ويجعله بعيداً عن الايمان بالتوجيه (الغريب) وأن يجعل منه مجنداً ضد قوى الشر التي تريد لهذا الوطن الفوضى والهوان .

جمْيَر محمد الرشيد

الفَصْل الأول





كان عملي الاعتيادي في الحياة هو إكتشاف الجواسيس ، وكنت مسؤولاً خلال الحرب العالمية الأخيرة عن إعدام أو سجن كثير من الجواسيس . وإني لا أذكر هذا بسبب الفخر أو مدح الذات ولكن لأبين مؤهلاتي لكتابة مثل هذا الكتاب عن الجواسيس . ومهما كانت صفات الصفحات التالية الأدبية فإن المعلومات فيها ـ على الأقل ـ حقيقية .

خلال سلسلة من المحاضرات أعطيتها بعد تقاعدي واعتزالي مكافحة الجاسوسية طلب مني الكثير من الشباب والشابات ومن الكبار من النساء والرجال بيان كيفية تمكنهم من أن يصبحوا موظفين في الاستخبارات . وكان أكثرهم متأثراً بالأفلام والكتب العديدة عن القصص البوليسية ومدفوعاً للمغامرة التي يسقط فيها الجواسيس في بارات الفنادق الكبيرة أو التي تكثر فيها الرموز وإشارات المرور والتعقيبات المثيرة بالسيارات والطائرات و(الحصول على الرجل) بعد تعقيب متعب والذي قد ينتهي بحضر الجاسوس بمجاري فيينا أو عاصمة جميلة أخرى . وهناك بدون أي شك بعض المغامرة في الحياة الاعتيادية لمكافح الجاسوسية وأحياناً بعض المسؤولية ، ونادراً فقد الحياة . ولكن كما تكون الخدمة في ساحة المعركة حيث الانتظار الطويل المتخلل أحياناً بنوبات من الخطر كذلك هي حياة مكافح الجاسوسية .

والأفلام والقصص عن الجاسوسية التي توضع للترفيه عن الناس تركز على الأشياء المهمة وتهمل الساعات الطويلة من التدقيق والاستجواب المملين والترتيب البطيء للحقائق بين الكثير من الاستنتاجات .

ومكافح الجاسوسية المنتظر يحتاج إلى عشرة خواص على الأقل سبعة منها يجب أن تلد معاً والثلاثة الأخرى يمكنه الحصول عليها بمجهوده الشخصي . فمن البداية إذن أكثر مكافحي الجاسوسية المنتظرين مغلولة أيديهم ولا يتمكنون من تحقيق رغبتهم ، وفي الصفات التالية سأبين هذه الخصائص الضرورية حسب أهميتها تقريباً وحسب ما أعتقد .

الخاصية الأولى : هي (الذاكرة) وهي ذات ضرورة مزدوجة ، فمكافح الجاسوسية لا يتحتم عليه فقط أن يتذكر الوجوه والحوادث والمكانات التي مر بها قبل بضعة سنين فحسب ولكن عليه أن يخوض إستجوابات قد تستغرق عدة أيام وربما دون اللجوء إلى أخذ رأس قلم واحد . وفي الفصل الثاني سأذكر الاستجواب مفصلاً ، ولكن يمكن القول مختصراً هنا أن من العناصر الحيوية هو الحصول على ثقة المتهم وإن أمكن جعله يعتقد أنك تثق به . وأخذ رؤوس الأقلام في مثل هذه الحالة يفقد المستجوب الفرصة في جعل الاستجواب أشبه بالمحادثة ويعطي المتهم الفرصة في أن يكون يقضا ، والأسوأ من ذلك فإن هذا الأسلوب يعطي المتهم الفرصة لتنظيم أفكاره أثناء إنهماك المستجوب بالكتابة وبذلك إعطاء الأجوبة الصحيحة . وإن المستجوب إذا جلس على كرسيه فمن المحتمل أن يعطي المتهم الفكرة بأن الموضوع روتين إعتيادي وبهذا يقع المتهم بالثقة العمياء بالنفس والتي تنتج عادة بالخطأ والارتباك .

إني شخصياً منعم عليّ بذاكرة فريدة أو قد أقول مسخوط عليّ بها . فإني مثلاً أتذكر تماماً الهدايا التي أعطيت لي في عيد ميلادي الثالث وكذلك الأشخاص الذين أعطوها لي وفي أي وقت من النهار . وأول ما أذكره هو عندما كان عمري ستة أشهر حيث لا زلت أذكر (القماط) بوضوح ، وكان في بيتنا في هولندا من أوائل التلفونات وكانت هناك ورقة كتب عليها والدي

التلفونات المهمة ، وهذا قبل خمسين عاماً . ولا زلت أذكر بدقة جميع تلك الأرقام ، وإني لا أذكر هذا بسبب الفخر ولكن كانت ذاكرتي حقاً غريبة وبدونها كنت قد فشلت في مهمة مكافحة الجاسوسية .

والخاصية الثانية : هي خاصية مزدوجة وهي (الصبر) و (الشغف بالتفصيلات) وسيرد في الفصل السادس في هذا الكتاب في قضية (درونكرس) مثال جيد على هذا . ولهذا ليس هناك داع في بحث هذه الخاصية مسهباً هنا ، ويكفي القول هنا أن الجاسوس عندما يدافع عن نفسه في إستجواب ما فإنه يطبق بكل وضوح كل ما يمكنه من الصبر لغرض أن ينجح . ويمكن القول أيضاً أن الجاسوس الماهر ، وإن الجواسيس غير المهرة لا يمكن أن يصمدوا طويلاً ، يكون لديه هيكل قصته مطبوعاً في ذاكرته ، ومن الصعب على المستجوب أن يلتقط خطأه في الأوجه العريضة في قصته والتي تكون عادة مشفعة بالحقيقة ، أما التفصيلات فتكون عادة قريبة جداً من الحقيقة . ولهذا يمكن أن يخطأ الجاسوس في التفصيلات الصغيرة للقصة ويخفق في الاتيان بحجج معقولة ، وهذا الشغف بالتفصيلات المقرون بالصبر الذي لا ينضب هو أهم الأسلحة في يد المستجوب .

والخاصية الثالثة : في هذه القائمة هي (هبة اللغات) فمهما كان الشخص قديراً في لغته يكون مقيداً جداً إذا إستجوب متهماً عن طريق مترجم ، ولا يمكنه مثلاً أن يعرف هوية المتهم إذا إدعى الأخير أنه تاجر سويدي وهو بالحقيقة ليس كذلك . وعند فحص لوازم المتهم يعجز أفضل ضباط الأمن في العالم إن لم يعرف اللغة التي كتبت فيها الرسائل والمذكرات والكتب والمستندات الرسمية الخاصة بالمتهم . وهنا يمكنني أن أذكر حقيقة وهي إنني محظوظ في قابلية تعلم اللغات وإني أجيد تماماً : الهولندية والبلجيكية والانكليزية والفرنسية والالمانية والايطالية ، ولي إلمام متوسط بالاسبانية والبرتغالية واللهجات الاسكندنافية وكذلك الرومانية والسواحلية .

والخاصية الرابعة : المفيدة لضابط مكافحة الجاسوسية هي الإلمام بعلم النفس العملي . فعلى مكافح الجاسوسية أن يخمن بذكاء شخصية المتهم

لغرض معرفة الخطوط العريضة التي يجب إتباعها في الاستجواب . فمن المتهمين من تقوى عزائمهم الخلقية بالتهديد والغضب ولكن تنهار مقاومتهم بالشفقة والعبارات الرقيقة والمدح . ويكون رد الفعل عند آخرين معاكس تماماً . والثناء المعقول قد ينتزع من بعض الجواسيس المعلومات الكثيرة . والمستجوب الذي لا يمكنه معرفة طبيعة المتهم الشخصية كالملاكم الذي يدخل إلى حلقة الملاكمة مغمض العينين .

والخاصية الخامسة : هي (الشجاعة) ، وهذا قد يكون غريباً بالنسبة للقارىء حيث لا يحتاج المستجوب إلا إلى القليل من الشجاعة . وقد يقول أن المتهم الذي يدافع عن حياته هو الشخص الذي يحتاج إلى الشجاعة . وهذا شيء صحيح حيث أن الجاسوس مهما كانت تصرفاته جنونية لا يمكن أن يكون خالياً من الشجاعة حيث أنه مستعد أن يخاطر بحياته في بلاد غريبة بمهمة فردية بدون زملاء في السلاح . ويجب أن توضح شجاعة مكافح الجاسوسية في الصفحات القليلة التالية . فعليه بالاضافة إلى جميع خواص الجواسيس أن يتمتع بذكاء يمكنه أن يهزم به أي جاسوس . والشخص الذي يحضر المناقشات البرلمانية أو يحضر محاكمات مهمة فيها كثير من الشهود يلمس خاصية التفوق الخلقي . وهذه الخاصية ليست خاصة بالمدعي العام وقد تكون بجهة الدفاع ، فهي شكل معين من الجرأة وعلى الضابط مكافح الجاسوسية أن يتمتع بها وأن لا يسيء معاملة المتهم ولكن عليه أن يعتقد بمهمته أكثر مما يعتقد المتهم . وإذا ربح المستجوب هذه الحرب الصامتة للارادات فهو في الطريق الصحيح لاثبات شكه ، ولذلك فالمستجوب بحاجة إلى جرأة من مستوى عالي .

والخاصية السادسة : المطلوبة من مكافح الجاسوسية هي معرفة مفصلة لمناطق جغرافية واسعة وللعواصم والمدن المهمة العدوة والمحايدة . وهذا يعني أيضاً معرفة الشوارع الرئيسية والفرعية والأبنية والفنادق والمطاعم والخصائص المحلية والمسافات المختلفة بين نقطة وأخرى . وعليه خزن كل هذه المعلومات في ذهنه والإفادة منها متى شاء . وهنا تبرز الخاصية بطبيعة الحال وهي

الذاكرة . ويمكن شرح هذه النقطة بوضوح بإعطاء مثلاً وقع في أحد الاستجوابات :

في آذار عام ١٩٤٢ جيء بهانس إلى دائرتي للاستجواب ، وبما أنه لم يحاكم كجاسوس إمتنع من إعطاء إسمه الحقيقي هنا . جلست إلى الخلف وأخذت أتفحصه عن كثب ، كان طويلاً ونحيفاً ولكنه كان قوياً ومسيطراً تماما على نفسه، وكانت عيناه الحادتان الزرقاوان وشعره الأشقر وعضما وجنتيه العاليان وخداه المنخفضان كلها تقول إنه (ألماني)، وحتى القطع الذي كان على خده الأيمن كان يتكلم عن هويته، ومع هذا كان هناك ألمان طيبين وآخرون خبثاء، وكانت مشكلتي هي معرفة طبيعة نيات هانس.

كانت قصته بسيطة وغير معقدة . وقبل أن يتكلم كثيراً عرفت أنه رجل ليس مثقفاً فحسب ولكنه كان ذكياً وعنيداً . وقد إعترف بصراحة أنه ألماني ولكنه إدعى بأنه هرب إلى الدنمارك في عام ١٩٣٦ حيث أن معارضته للنازية جعلت حياته وأملاكه في خطر ، وفي كوبنهاكن إشتغل بالمحاماة وحصل على حياة مريحة ، وعند مجيء النازيين واحتلالهم الدنمارك في ١٩٤٠ وجد نفسه في خطر أكثر من ذي قبل وبهذا أخذ يعمل بالسر ودخل ألمانيا وخرج منها إلى سويسرا ومنها إلى جنوب فرنسا ثم عبر الحدود الاسبانية ووصل إلى برشلونه . وكانت هذه المدينة منفذاً حقيقياً للهرب كما عرفت .

وقد أخذت أوجه له الأسئلة الدقيقة عن بداية قصته ، وتبين بعد فترة قصيرة أنه عاش مدة من الزمن في كوبنهاكن ، فقد عرفت المدينة جيداً . وكان واضح أيضاً أنه عمل في المحاماة لاستعماله الكثير للمصطلحات القانونية بدون أن يشعر . وتبين أيضاً أنه عقب طريق الهرب الذي ذكره لأنه أخبزني عن تفاصيل لا يمكن لغير المسافر على ذلك الطريق أن يذكرها . وإلى هنا كان كل شيء على ما يرام .

وهنا أسندت ظهري على الكرسي وأشعلت سيكارة وسألته بالالمانية :

« أخبرني متى وصلت إلى برشلونة ؟ قال : كان الوقت متأخراً وربما كان يقارب العاشرة مساء . واستطردت قائلاً : وأين أمضيت الليلة ؟ قال : في فندق الكونتننتال . قلت : آه نعم هل تذكر في أي دور كان المطعم ؟ وهنا توقف هانس وابتسم وقال : إني متأسف لأني لا أعرف وذلك لأني وصلت متأخراً كما ذكرت وقد أخبرت أن المطعم كان مغلقاً في ذلك الوقت وبهذا أخذت عشاء خفيفاً في غرفتي .

قلت في نفسي : كان الجواب جيداً ، وقد تهرب بمهارة من سؤالي . فقلت : وبعدها ماذا فعلت في الصباح التالي ؟ قال : تناولت فطوري في غرفتي وبعد ذلك ذهبت إلى دائرة الجوازات البريطانية . فسألته : كيف وصلت إلى هناك ماشياً أم بواسطة سيارة ؟ فقال : مشيت . قلت : هذا شيء غريب ، كنت غريباً عن المدينة ومع ذلك ذهبت إلى مكان لم تعرفه قبلاً ؟ قال : كنت متوجساً من الذهاب بالسيارة حيث أن أسبانيا صديقة للمحور وللغستابو وكلاء في كل مكان ، وقد يكون سائقوا السيارات مأجورين للمحور ، وأني كما لا يخفى عليك ألماني المظهر أليس كذلك ؟ وأشار هنا إلى وجهه . وقد كان هذا عذراً معقولاً ، فأومأت له برأسي موافقاً وقلت : كيف إذن وجدت طريقك ؟ قال : عاونني أحد الشرطة في الواجب . وسألته : كم من الوقت استغرقه الطريق من الفندق إلى مكتب الجوازات البريطاني ؟ فأجاب : كان ذلك ما يقارب العشرين دقيقة . وهنا أخذت سيكارة من علبة السكاير وضربتها على العلبة وأخذت نفساً عميقاً وقلت : صديقي أنت كذاب ماهر ولكن بدون شك كذاب وربما جاسوس . فاحمرّ وجهه وصاح : كيف تجرأ على إتهامي مثل هذا الاتهام ؟ قلت : على مهل ، إجلس ، إن التمثيلية قد إنتهت وليس هناك مبرر إلى إعادتها .

إنحنيت هنا إلى الأمام وقلت : هناك نقطتين تدينك ، الأولى أن الفندق الذي ذكرته المطعم فيه ليس كما هو معروف في أوربا حيث أن المطعم يوجد عادة في الطابق الأرضي بل أنه موجود في الطابق الأول ، وقد شككت بحيلة وتملصت منها ببراعة بقولك أنه كان مغلقاً عندما وصلت في الساعة

العاشرة مساء ، وهذا قد يكون صحيحاً في لندن أو برلين أو كوبنهاكن ولكن الشيء الذي لم تنتبه له يا صديقي هو أن المطاعم في إسبانيا كما هو معروف في أكثر الدول على الأبيض المتوسط أيضاً تبدأ في وقت متأخر من الليل بفتح أبوابها للزوار . فهل سمعت عن القيلولة بعد الظهر ؟ إن أكثر الناس ينامون بعد الظهر وأهم قسم من اليوم بالنسبة لهم هو آخر الليل حيث الجو يكون لطيفاً . والسينمات والمسارح في إسبانيا لا تفتح أبوابها إلا بعد الحادية عشرة مساء . وفي الحقيقة إنك لم تذهب إلى ذلك الفندق وهذا شيء بسيط يمكن إستنتاجه .

وكان على وشك أن يقول شيئاً ، ولكني مضيت قائلاً : ليس هناك فائدة في مقاطعتي حتى وإن كان ذلك الخطأ لا يدينك فإن هذا سيدينك . أخذت بعدها قطعة من الورق وطلبت منه أن يتتبع ما أرسمه . وقلت : بما أن معرفتك ببرشلونه بدائية كما تقول سأرسم لك خريطة صغيرة . . هنا فندق الكونتننتال في شارع كاتلونا ، وهنا ساحة كاتلونا ، ومن الناحية الثانية للساحة هناك ممر الرحمة حيث يوجد مكتب الجوازات البريطاني . . وهذا لا يزيد على خمسة دقائق على الأرجل . . وكما يقول البريطاني لا يمكنك أن تضيعه . . ومع هذا قلت أنك مشيت عشرين دقيقة ، والشخص الذي لديه طولك لا يمكن أن يكون بطيئاً هكذا .

ثم ضغطت على الجرس بطلب الحرس ليأخذوه وأردفت قائلاً : بالحقيقة لو إنك فعلاً نزلت في الكونتننتال ـ وهذا طبعاً لم يحدث ـ لربما شاهدت مكتب الجوازات البريطاني من نافذة غرفتك . لقد وصلت المكتب حيث أيد ذلك الموظفون ولكن كيف وصلت ؟ قد يكون وصولك كان في سيارة مغلقة تابعة للاستخبارات الألمانية أليس كذلك ؟

من السهل إتهام اللاجيء ، ولكن من الصعب وجود برهان قاطع يثبت جريمته الحقيقية ، وبهذا لم يحاكم هانس مع إني متأكد بأنه جاسوس وجاسوس خطر في نفس الوقت . وقد حجز طيلة مدة الحرب وبذلك لم يكن فعالاً لممارسة مهنته .

والغرض من هذه القصة هو بيان أهمية المعرفة الدقيقة للعواصم الأجنبية والتي بدونها لا يمكن المستجوب أن يجد الأخطاء الصغيرة في قصة هانس كما وجدتها بمعرفتي الدقيقة لبرشلونه .

والخاصية السابعة : هي أن يكون للضابط مكافح الجاسوسية إلمام واسع بالقانون الدولي ، حيث أن لكل متهم مهما كانت قوميته حقوق معينة وصلاحيات تحت القانون الدولي . فلا يمكن توقيفه أطول من المدة المقررة ، ويجب مراعاة ظروف معينة أثناء التوقيف . ويمنع القانون البريطاني كما يمنع القانون الدولي سوء معاملة السجناء والموقوفين من المتهمين . والجاسوس الماهر قد يتمكن من إخافة مستجوبه بذكر أنه يستحق الحماية تحت القانون الدولي . والمستجوب يجب أن يتمكن من غلبة المتهم في هذا الحقل بالاضافة إلى الحقول الأخرى في معركة الاستجواب .

والخاصية الثامنة : هي أن يكون مكافح الجاسوسية (ممثل بارع) فيجب عليه أن يتظاهر بالغضب أو عِدم الصبر أو الرحمة دون فقدان السيطرة على عواطفه . وقد تكلمت قبل برهة عن علم النفس العملي الذي يستخدم أثناء الاستجواب وهذه الخاصية مكملة لقابلية وزن شخصية المتهم وتقرير أحسن الطرق لمعاملته . بعدها على المستجوب أن يمثل مهمته ، فعندما يكون الصوت إعتيادياً والعينان طبيعية ليس من الصواب إتخاذ لهجة شديدة . وبالعكس من الخطأ إتخاذ العطف والمستجوب لا يزال شديد اللهجة وحاد النظرات . ويكون الجاسوس ماهراً في وزن مستجوبه ، فهو ينتبه بسرعة إلى النبرة الكاذبة في الصوت والابتسامة الباردة التي لا تحجب الغرض الحقيقي . بالاضافة إلى ذلك على مكافح الجاسوسية أن يخفي شعوره الحقيقي ، وفي نفس الوقت التظاهر بمظهر كاذب . وقد يخطأ المتهم ويهفو هفوة صغيرة دون أن يعرف ذلك . وعلى المستجوب أن يتابع ذلك ولكن بشكل عرضي وبدون رغبة ظاهرة . فإذا كان هناك ثقل في طبع المستجوب وغضب في عينيه يفشي سر إثارته يتخذ المتهم الحذر في إجاباته ويصبح الاستجواب موضوع ممل إذا إستمر المتهم بإعادة قوله يوماً بعد يوم . وعلى المستجوب أن لا يمل أمام متهم

عنيد وعليه أن يخفي هذه المشاعر بحزم ولا يسمح بإشارة أو نظرة تفشي أفكاره الحقيقية .

والخاصية التاسعة : هي موهبة الاستنتاج . وفي أكثر الأحيان تعتبر تطوراً للمنطق . وهي قابلية التمييز بين السبب والنتيجة والفحص الفكري لجميع حلقات الإثبات التي يعرضها المتهم . وكل جاسوس ماهر لديه قصة معقولة في الظاهر ولا يمكن سبر غور المظهر واكتشاف الحقيقة إلا إذا كان المستجوب حاذقاً فإنه يتمكن من النجاح ضد جاسوس ماهر . ولعنصر الوقت أهمية كبيرة هنا ولطرد الملل أهمية كبيرة في النجاح . وعلى المتهم أن يلم نظرياً بكل لحظة من الوقت المستجوب عنه ، ومن جهة ثانية يمكن لرجل شريف وتحت ضغط العواطف خاصة أن يسرد قصة غير معقولة . . فهو قد يحذف في الاستجواب الأول تفاصيل كثيرة وحوادث مهمة نتيجة للحيرة والنسيان الحقيقي . إن أشخاصاً قليلون فقط ، كما يعرف ضباط الشرطة ، يتمكنوا أن يعطوا قصة مسبوكة لحادثة ما آخذين بدءً من الأول وذاكرين كل نقطة حتى النهاية إلا إذا كانوا مدربين على إعطاء الشهادات والأدلة وأنهم يحذفون حقائق مهمة ويذكرون ما يتذكرونه بتتابع خاطيء ، وفي أكثر الأحيان يكررون أقوالهم وشاهدا عيان لحادثة واحدة قد يعطيان تقريرين مختلفين عن حادثة واحدة . والقارىء الذكي يمكنه أن يتصور كم هي محيرة قصة اللاجىء الفرح بالنجاة وبسبب التعب والحرمان الذي عاناهما في طريقه . والذي قد سافر في أراضي لا يعرفها سابقاً . وقد نجد فراغات مسموح بها في قصته فقد ينسى حقاً إذا كانت قد إستغرقت سفرته الأسابيع أو الأشهر تواريخ وصوله إلى تلك المدينة أو تلك القرية . وعلى مكافح الجاسوسية أن يسامح في موضوع النسيان الحق وأن يسامح المبالغة بسبب التعب الكثير .

ولحد الآن ركزت ملاحظاتي في هذا الفصل على الاستجواب للمتهمين . وفي الفصل التالي سأتكلم عن طرق الاستجواب مفصلاً ، مدخلاً موضوع تفقد لوزام المتهم . ويمكنني إضافة القول هنا بأن جميع لوازم اللاجىء مهمة في إثبات أو دحض شخصيته ، وتشمل هذه البسته ولوازمه

وحقائبه . ويستطيع المستجوب المدرب فقط أن يجد الأدلة التي يرغب بها ويمكنه معرفة الاثبات الحقيقي من تفتيش الرسائل والكتب والملابس وحتى أعضاء الجسم . ولا يمكن الجاسوس العادي ـ إلا الفريد من نوعه ـ أن يتذكر الكلمات الرمزية والعناوين الأجنبية التي يجب أن يوصل لها المعلومات . ويحتفظ بعض الجواسيس بمذكرات سرية . . وليس على المستجوب أن يعرف الأمكنة المختلفة التي تخبأ فيها مثل هذه المذكرات فقط ، ولكن عليه أن يعرف طبيعة هذه الاثباتات التي يبحث عنها . وقد ذكرت سابقاً موضوع درونكرس عندما تكلمت عن أهمية الصبر في الاستجواب ، وهنا أضيف إلى ذلك أهمية معرفة ما يجب البحث عنه .

وأخيراً يجب على مكافح الجاسوسية أن يلم بالخدع السابقة وأن تكون له خبرة عملية وتجارب في هذا الموضوع ، فهناك طرق خاصة معروفة للكتابة السرية أو لحفظ المعلومات الحيوية . وقد كانت أهم أخطاء الاستخبارات الالمانية في الحربين العالميتين إستخداماتها المتكررة للأساليب بدون أي إبداع على ما يظهر . . فعند إكتشاف طريقة سرية أو رمز كان يجب أن يترك ويوجد بديلاً له ، ولكن الألمان إستمروا على إتباع الطرق السرية بعد مرور مدة طويلة على إكتشافها ، وبهذا عرضوا أرواح وكلائهم للموت دون ضرورة إلى ذلك .

وأرغب هنا إعطاء مثالين : الأول من الحرب الأولى ، والثاني من الحرب الثانية . .

في الحرب الأولى عندما بدأت في الأراضي الأوربية كانت الصعوبات التي تواجه الجواسيس هي صعوبات إيصال المعلومات وليس صعوبات الحصول عليها .

أما في الحرب الثانية فعلى ما يظهر إنقلبت الآية بسبب إختراعين وجدا أو طورا في الفترة ما بين الحربين ، وهما اللاسلكي والتصوير المايكرومي .

فقد أصبح من السهولة بمكان نصب جهاز إرسال خلال دقائق وإرسال المعلومات على الموجة القصيرة من مكان منعزل ثم طوى الجهاز ونقله بعيداً بحيث يتعذر تعيين موقعه بدقة . أما آله التصوير المايكرومي فقد رأيت نموذج ألماني لا يتعدى كونه قلم حبر وثلاثة أمثال سمكه ، ويمكن تعليقه في الجيب أو الصدرية . ويمكن إستعمال هذه الآلة في تصوير المستندات ويمكن رزم المسودة بما يقارب حجم رأس الأبرة حرفياً . ويمكن الجاسوس وضع المسودة تحت طابع على غلاف رسالة وإرسالها إلى العنوان الأجنبي . . وتكون الرسالة الحقيقية دون أي أذى لمرسلها بطبيعة الحال . ولا يمكن لمؤسسة الرقابة المنهمكة أثناء الحرب أن تجد وقتاً كافياً لرفع كافة الطوابع التي توضع على الرسائل التجارية والخاصة المرسلة إلى لشبونة مثلاً . ولسوء حظ الألمان أنهم إستمروا في إرسال الرسائل إلى عناوين أجنبية تحت الرقابة . ومثل هذه الرسائل تكون مدققة وتكتشف بعد حين مثل هذه الطريقة الشيطانية .

والمثال الثاني من الحرب الأولى . وقد حدثت هذه الحادثة عام ١٩١٦ في الجبهة الفرنسية قرب السوم . . فمن قبيل الصدفة كانت هناك قرية في أراضي محايدة وقسم من أرض القرية داخل الخطوط الفرنسية . . وخلال توقف العمليات يحاول القرويون بعنادهم الاستمرار في التزاور فيما بينهم ، وقد إعتادت فلاحة من الذين يسكنون الأرض المحايدة زيارة أخيها الذي يسكن داخل الخطوط الفرنسية عابرة الأرض الممزقة بالقنابل ، وكانت تستجوب عند وصولها الخطوط الفرنسية من قبل ضابط الأمن كأجراء إعتيادي وكان يبدو عليها كبقية القرويين أنها غير ضارة ، وفي أحد الأيام عند رجوعها من كوخ أخيها وصلت نقطة التفتيش حاملة سلتها، وكان في السلة بيض مسلوق وخبز وزبد . ولمرورها يومياً أصبحت كلمات الضابط معها لطيفة وقد سألها الأسئلة الاعتيادية في الترتيب أثناء تفتيش سلتها وأخذ أحد البيضات المسلوقة من سلتها وصار يقذف بها في الهواء مداعباً القروية . . فوجدها على غير عادتها قلقة . فاستمر في قذف البيضة ووجد أن القروية تزداد إرتباكاً كلما إرتفعت البيضة في الهواء . فأخذ البيضة وفحصها عن كثب فلم يجد أي

إشارة على غلاف البيضة الأملس ، وهنا أدرك أن هناك شيء مثير حول هذه البيضة وهو السبب في قلق الفلاحة . فضرب البيضة على حافة سلتها وأخذ يقشرها ووجد على بيض البيضة كلمات ورموز صغيرة بنية اللون ، وعند تكبيرها وجد إنها تشير إلى خطة دفاع القطاع الفرنسي وتفصيلات عن الفرق والألوية الفرنسية التي شغلته . وبهذا حوكمت الفلاحة كجاسوسة وأعدمت .

لقد توصل الألمان إلى حقيقة شيطانية وهي أنه لو كتبت بحامض الاستك على غلاف البيضة وبعد أن ينشف الحامض تقوم بسلق البيضة فتنفذ الكتابة إلى البياض دون أن تترك أي أثر على القشرة بالنسبة للعين المجردة أو حتى بالنسبة للمجهر . وقد خدمت الصدفة ضابط الأمن وعثر عليها . وقد أضيف أن معرفة ضابط الأمن للمبادىء الأولية في علم النفس بالاضافة إلى الصدفة ، فقد أثارت القروية شكوكه بما بدا عليها من قلق . وعند إكتشاف هذه الطريقة كان الأجدر بالألمان تركها ولكنهم إستمروا في إستخدامها بسبب الروتين وقلة الإبداع حتى بعد أن عرفوا أن هـذه ـ الطريقـة اكتشفت من قبل مكافحة الجاسوسية الحليفة . وقد مرت بي شخصياً ثلاثة حوادث إستخدمت فيها هذه الطريقة أثناء الحرب الثانية . وقد تكون هناك عدة حوادث عرض فيها الألمان وكلاءهم للموت بسبب الروتين .

هذه إذن الخواص العشر التي يجب أن تتوفر في مكافح الجاسوسية وهواية الموضوع غير كافية . القارىء الراغب في هذه المهنة يمكنه أن يضع لنفسه علامات بموجب هذه الخواص . وأي شخص يحصل على أكثر من ٧٥ علامة يجب أن يتصل بالشعبة الخامسة العسكرية بدون أي تأخير . وشخص من هذا القبيل قد يكون ذا نفع كبير لبلده ، ولكني أشك في أن أجد فرداً واحداً صالحاً بين ١٠٠ ألف شخص ، وأهيب بذلك الشخص أن يتدرب لمدة خمس سنوات قبل أن يصبح ضابط أمن ناجح .

وفي نهاية هذا الكتاب أقترح تخصيص بعض الصفحات لشرح موضوع مكافحة الجاسوسية على ضوء تجارب ما بعد الحرب الثانية . ويمكنني القول

هنا باختصار بأن الوقت يصبح متأخراً جداً إذا أردنا بناء أو توسيع منظمة مكافحة الجاسوسية بعد أن تبدأ الحرب . . فاختيار الأشخاص اللائقين وتدريبهم موضوع يحتاج إلى عدد من السنين .

وهنا نصل إلى الأوجه الجدلية في موضوع مكافحة الجاسوسية ، وهي مكان النساء في مكافحة الجاسوسية .

وقد يجد بعض القراء إنني أتحدث بصيغة المذكر دائماً ، ومن رأيي القائم على خبرة (٣٠) عام بأن النساء لا يصلحن أن يكونن جاسوسات أو مكافحات للجاسوسية . وغالباً ما يكونن دون أي نفع . وإني لا أحقد على النساء في مبادئهن ، وإني أحب النساء ولكن في مكانهن الصحيح . وباستثناء مدموزيل لا دكتور في الحرب الأولى لم نجد جاسوسة أو مكافحة للجاسوسية تنافس الرجل في نفس الحقل . وماتا هاري كسبت شهرة بأنها الجاسوسة الحسناء ولكنها كانت مغفلة وعنيدة ، ولو أنها لم تعدم وتشتهر بذلك لنسيت تماماً . وسأحاول إثبات هذا القول :

في مرحلة من مراحل الحرب الأخيرة كنت أساعد على تدريب الجواسيس الذين كان عليهم أن ينزلوا بالمظلات في أوربا المحتلة . وقد جاءت عدة نساء هولنديات وعرضن رغبتهن في التطوع في مثل هذه المهنة الخطرة ، وكن مخلصات في رغبتهن هذه ، وقد سألت كل واحدة إلى أي مدى تتمكن من التضحية في سبيل هولندا ؟ وكانت إجابة الجميع بدون تردد وبكل بساطة : انا نضحي بالأرواح من أجل هولندا . وكانت إجابتي هي أن هذا هو الشيء الأخير الذي نرغب فيه ، لأنك إذا مت ستكونين عديمة الفائدة لنا . . ولكن هل أنت مستعدة في الاستمرار في الحياة وتوهبين أنوثتك للعدو ؟

وقد سألت هذا السؤال بحكم المهنة ، ولكنني كنت دائماً أقوله مع شيء من الخجل لأن هذا أهم موضوع بالنسبة للجاسوسة . وأكثر النساء لديهن ثلاث نواقص في موضوع الجاسوسية : الأول ، وهو الشيء

الاعتيادي ، إنهن يحتجن إلى الخبرة والتدريب . . فمثلاً إذا كان من الضروري معرفة تفاصيل ماكنة سرية جديدة طورها العدو فالميكانيك أفضل من أذكى النساء ، ولألمامه بالمهنة يكون أفضل حيث على المرأة أن تبدأ من لا شيء وعليها أن تتعلم مبادىء محرك السيارة وشيء من هندسة السيارات . أما المعلومات العسكرية فإن قليلاً من النساء من يعرفن شيء عن الرتب العسكرية والوحدات المختلفة مثل السرايا والأفواج والألوية والفرق التي تشكل الجيش الحديث . ومثل هذه المعلومات يمكن تعلمها طبعاً ولكن الوقت المستغرق يمكن الاستفادة منه في تعلم أشياء أهم .

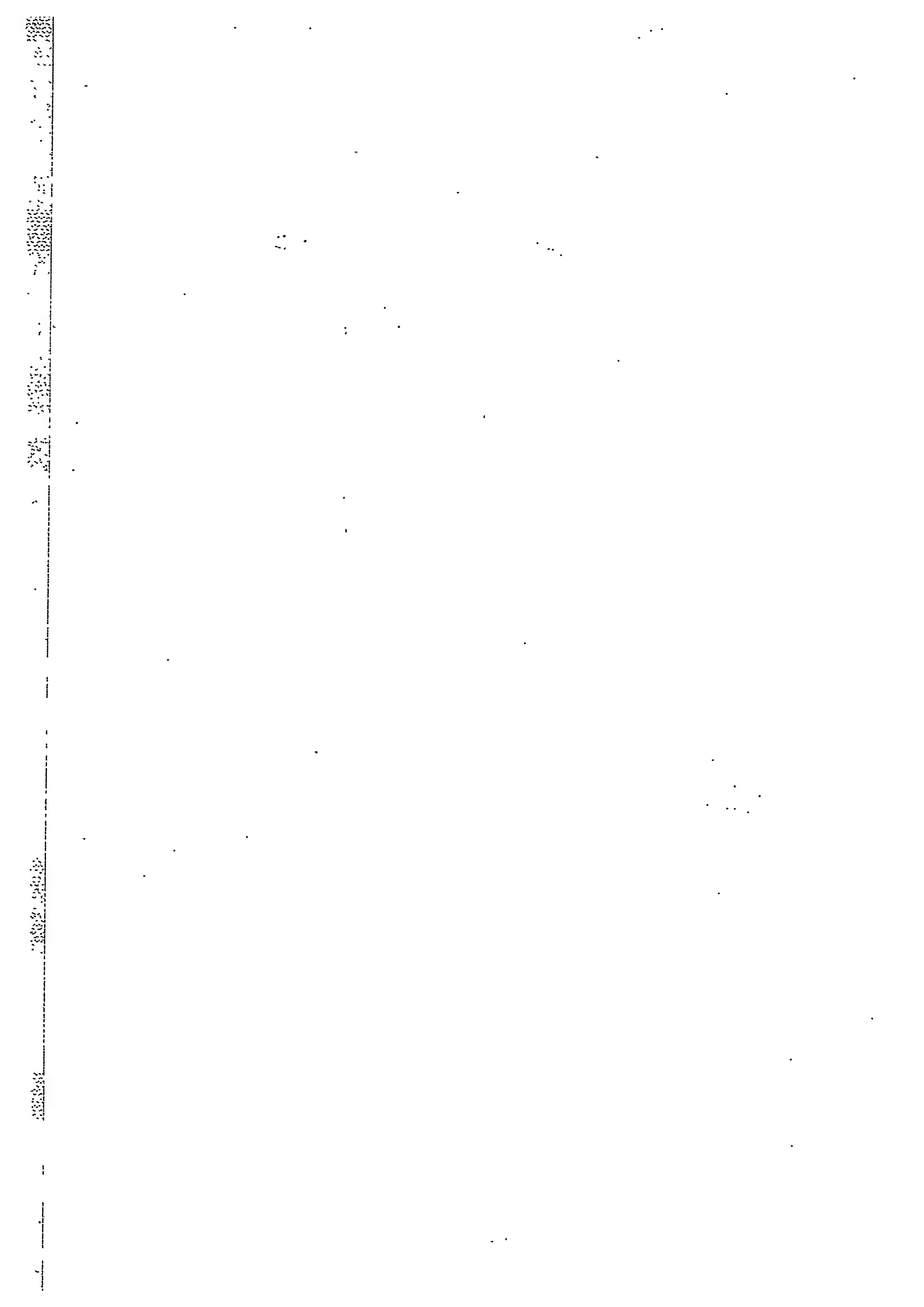
والشيء الثاني هو أن النساء يجلبن النظر أكثر من الرجال في المكانات المنعزلة أو المشبوهة . . والرجل المرتدي لباس العامل قد يمضي الساعات قرب مربض مدفع دون أن يشك في أمر وجوده ، ولكن المرأة خاصة إذا كانت صغيرة وجميلة تجلب كثيراً من صفير الذئاب كما يقول الأمريكان . وقد يدخل الرجل إلى أي مشرب في الميناء إذا كان مرتدياً لباساً مناسباً ولا يشك في أمر وجوده هناك ، وتكون المرأة خارج مكانها وبهذا فإن مظهرها يحدد حركتها وبالتالي يجعلها قليلة الفائدة للجاسوسية .

وثالثاً ، وهذا أهم العناصر ، هو أن النساء لا يتمكنّ من السيطرة على عواطفهن كما يتمكن الرجال . . وهذا قد يجلب عاصفة من النقد من القارئات ، ولكن التجربة علمتني أن هذا القول صحيح . . فقد عرفت حادثتين أو أكثر أعطيت فيها النساء مهمة الحصول على الحظوة عند الضباط الأعداء الكبار ، وقد تمكّن من القيام بهذه المهمة بكل جدارة ولكنهنّ وقعن بحب حقيقي وفشين كل شيء ، والخطوات الطبيعية تلت ذلك فيفضحن أغراض أوطانهن . وقد عرفت رجالاً كانوا جواسيس لأكثر من دولة وليس هناك مكان رقيق في هذا الموضوع لقلب رقيق .

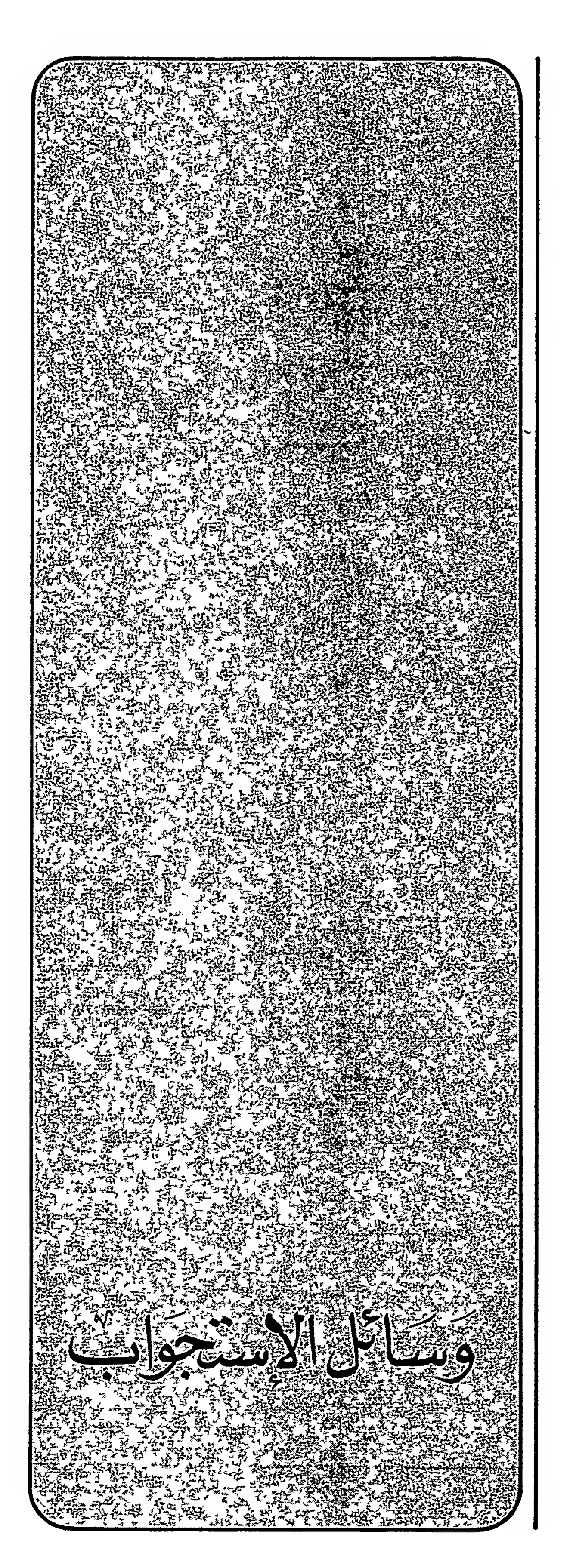
وفي رأيي أن أفضل إستخدام للنساء في الجاسوسية هو إعطائهن مهمة أخذ المعلومات من الضباط الأعداء الكبار أو الموظفين الأعداء الكبار وتهديدهم بفضحهم إلى ضباط أمن أوطانهم أو إلى زوجاتهم إن لم يأتوا

بمعلومات أكثر . ولهذا السبب كنت أسأل المتطوعات الهولنديات إذا كن مستعدات إلى نذر أجسادهن إلى هولندا .

والمرأة المستعدة لأن تضاجع رجلاً لا تعرفه وغالباً ما يكـون كريه المنظر لغرض الحصول على المعلومات منه امرأة ميتة الضمير ، والتي من هذا النوع لا يعتمد عليها . ولهذا لا أضع النساء في مرتبة عالية في نظري كجاسوسات ولا يمكنهن أن يكونن مكافحات ناجحات للجاسوسية . وقد يعارض هذا القول الكثير من الأزواج الذين قاسوا التحقيق آخر الليل . ولم أجد خلال ٣٠ سنة من العمل والتتبع لأعمال رواد الجاسوسية ومكافحة الجاسوسية في أوروبا وأمريكا امرأة واحدة باستثناء مدموزيل لا دكتور من لمعت في حقل الجاسوسية .



الفَصْل الثّاني



هناك عدة طرق للحصول على المعلومات من أي متهم . وقبل بحث الطرق التي وجدتها عن طريق الخطأ والصواب أرغب أن أبين الطرق التي إستخدمت في إنكلترا ومكانات أخرى .

ففي ألمانيا النازية إستخدم التعذيب على نطاق واسع . وقد تغيرت الوسائل حسب طبيعة المستجوب من الضرب بالسوط إلى تدوير الأبهام أو قلع الأظافر من اليدين أو الرجلين دون تخدير أو كسر الأطراف أو الضغط على الجمجمة بحزام معدني يوضع حول الرأس ويضغط تدريجياً عليه أو إستخدام حفارة طبيب الأسنان في قلع الأسنان . . مثل هذه الأساليب أثبتت جدواها عند الألمان . أما طرق السوفييت فلا يمكن تثمينها بسهولة وبدقة لأن السجناء السياسيين لم يعمروا ليخبروا أحد عن تعذيبهم ، ولم يتمكن إلا القليل من الهروب خارج روسيا . ويمكن الاختصار بالقول بأن منظمة م.ف.د الروسية تعتمد لدرجة كبيرة على التجويع والعقاقير لغرض إضعاف مقاومة السجين بالاضافة إلى الاستجواب المستمر لمدة ٣٦ ساعة ، وعندها يبعث السجين إلى زنزانته وعندما ينام ساعة يجلب ثانية للاستجواب . والسهر المتواصل يمزق مقاومة أعند الأشخاص .

أما الطرق الأمريكية فتباينت من (الحمس) من الدرجة الثالثة والذي

يعني إستجواب المتهم ساعات طويلة تحت ضوء ساطع ومن قبل سلسلة من المستجوبين إلى إستخدام الوسائط التي يقال عنها أنها علمية كدواء الحقيقة أو مبين الكذب . . وإني شخصياً لا أقتنع بجدوى أي منهما ، فالتطعيم بدواء الحقيقة أو كما يسمى (بنتثول) يضع عقل المتهم في نوم عميق ويبقى عقله الباطن يتكلم الحقيقة ، أو هذا ما يدعى مستخدموه على الأقل . ولقد وجدت بالتجربة أن الشخص الذي يمرن عقله الباطن يتمكن من أن يدرب عقله على الامتناع عن التكلم حتى تحت التخدير . أما مبين الكذب فإنه جهاز شيطاني يعتمد على النظرية التي تضع علاقة علمية بين سرعة النبض والانفعالات العاطفية . والذين يعتمدون على هذا الجهاز يقولون أنه يبين الحقيقة من الكذب . وإني أعترف أن النظرية هذه لديها بعض الاحصاءات تدعمها ولكنها غير دقيقة ١٠٠٪ ، وفي تجربتي وجدت كثيراً من الأشخاص في منتهى العناد والبرود والذين بإمكانهم أن يغلبوا مبين الكذب هذا ، وهنا أقول قليلاً ولكن هذا ما فيه الكفاية إذ لا يجوز قبول هذه النظرية من قبل المحاكم ما دام هناك إستثناء لها .

وتعتمد ألمانيا النازية وروسيا السوفييتية والولايات المتحدة إلى درجة كبيرة على التعب الجسمي لغرض الحصول على المعلومات المطلوبة من المتهم . ولا يوجد هناك أي شك أن التعذيب الجسمي يمزق مقاومة أي شخص مهما كان قوي الجسم وعنيد العقل . وقد عرفت رجلاً عنيداً بشكل غريب سقط بأيدي الغستابو ورفعت أظافره وكسرت ساقه دون أن يعطي كلمة واحدة من المعلومات ، ولكنه إعترف لي شخصياً أنه كان على وشك فقدان مقاومته . والذي حدث هو أن معذبيه إقتنعوا بهذا الحد وأخلوا سبيله . ولو أنهم إستمروا حتى بمزعجات صغيرة بالنسبة لما لاقاه لحد الآن لأفشى كل سر .

ولا يمكن لأي شخص أن يتحمل تعذيب قطرات الماء التي تتساقط على الرأس بالتتالي قطرة بعد أخرى . وإني مقتنع أن هذه الطريقة كفيلة أن تحطم

مقاومة أي رجل أثناء دقائق وتجعل من أي إنسان إذا إستمرت معه لساعة مجنون وحش .

وبصرف النظر عن سهولة هذه الطريقة فإن الحق يقال أن المحاكم البريطانية لا تأخذ بنظر الاعتبار الاعترافات التي تؤخذ بالتعذيب ، ويمكن أن نقول أن التعذيب يتضمن نقص فاحش واحد وهو أن البرىء قد يعترف باعترافات كاذبة بجرائم لم يقترفها مطلقاً لغرض التخلص من التعذيب ، وقد يفضل الاعتراف بجريمة تستحق العقاب بالموت ولا يستمر تعذيبه . ويمكن للتعذيب أن يحصل على نتائج بالنهاية من أي شخص ولا يمكن أن نثق بأن الاعتراف حقيقة .

ومن الحقائق الشائعة أثناء الحرب هي إعطاء الوكلاء في مثل هذه الظروف ثلاثة أنواع من الحبوب ليحملوها دائماً معهم . أحد هذه شبيه بـ (الحامض حلو) الذي يتناوله يفقد وعيه لمدة أربعة وعشرين ساعة . والنوع الآخر هي حبوب (البنزدرين) التي تساعد الشخص التعب على المقاومة وتكسبه فعالية عقلية أطول . والنوع الثالث هي حبة الانتحار وهي من الـ (سايناید) أو أي سم سريع الفعالية آخر . وكل من هذه الحبوب لديها إستعمالاتها ويستعمل النوع الأخير من قبل الوكلاء عندما يجدون أنفسهم على وشك الوقوع والذين يعرفون أنهم لا يتمكنون من مقاومة التعذيب وأنه لشجاع حقاً ذلك الرجل الذي يحمل سمه معه ليستعمله متى ما شاء دون أن يعطي المعلومات التي لديه .

هذا ما أرغب قوله عن وسائط التعذيب الجسمي لغرض الحصول على لمعلومات ، ومثل هذه الطرق عملية ولكنها قاسية وغير مرغوب فيها من قبل الناس المتمدنين ، وهذه الطرق إعتراف بالضعف . والمستجوب هنا يعترف من البداية أن المتهم أذكى منه وأقدر وبذلك يبعد إحتمالات غلبة المتهم عن طريق الاستجواب .

والشعبة الثانية الفرنسية المرادفة للشعبة الخامسة في الاستخبارات

الانكليزية التي تتلمذت بها ، لديها طريقة ذكية حصلت بها على نتائج ، وهنا يستجوب المتهم من قبل شخصين أحدهما من النوع الذي يهدد دائماً والذي يصرخ دائماً والذي يضرب المنضدة دائماً بيده ، والآخر من النوع الهادىء الذي يتظاهر بالرحمة والشفقة ويبذل ما يستطيعه لتهدئة زميله الشرس . ويستمر الاستجواب للحد الذي يأخذ فيه المستجوب العنيف بسب المتهم وتهديده تهديدات مخيفة ، وهنا يدخل أحد الحرس ويبلغ هذا بأنه مطلوب على التلفون أو أي عذر آخر . ويبقى المستجوب اللطيف يستمر بالاستجواب بطريقة معتدلة ومفعمة بالصراحة ويطرد مخاوف المتهم ويقدم له سيكارة . وينتج التغيير المفاجىء بظروف الاستجواب حيث تأتي النتائج كلها جيدة دائماً فيجد المتهم نفسه قاذفاً بالاعترافات بعد شعوره بالارتياح والاسترخاء .

وتتبع سكوتلاند يارد طريقة الرحمة وحدها عادة ، والمستجوبون متعلمون على خلق جو (صداقة) ، وهذا يعني عرضهم القول بأن الانسان معرض للأخطاء وقد يجوز أن المتهم أخطأ . والمستجوبون مؤدبون ويتحلون بروح الصداقة والفهم وحاذقون في الحصول على الاعترافات بحرية . ويمكنني القول بعد أن قضيت سنين في بريطانيا أن الشخص البريطاني العادي يتصف بالاعتدال . وإن طريقة الرحمة هذه ناتجة من صفة التحمل والرغبة في إعطاء المتهم الفرصة في الدفاع عن نفسه . . وليس كما هي العادة في البلدان الأخرى فإن المتهم بريء حتى تثبت إدانته وذلك بموجب القانون البريطاني . وتستخدم نفس الطريقة هذه مع كل متهم من يوم القبض عليه إلى أن يحاكم أمام المحكمة . وقد يذكر القراء الحادثة التي حوكم بموجبها اللواء الانكليزي الذي ضرب الطيار الألماني بسكينته أثناء إستجوابه للطيار وذلك بعد أن جيء بالطيار بعد سقوط طائرته وإتخاذ الطيار صفة الاعتدائية والشراسة بعد أن كان يطلق نيران رشاشاته على النساء والأطفال العزل في شوارع أحد المدن الساحلية الجنوبية الانكليزية . . وكيف فصل اللواء من الخدمة . وعلى ما يبدو أن العقوبة هذه قاسية بالنسبة لشخص تصرف تحت تأثير ظروف مثيرة . ولكن القارىء ينتبه إلى المبدأ الذي يقف خلف هذه العقوبة .

وقد حدثت لي حادثة مضحكة عام ١٩٤١ حيث إستجوبت متهماً ثبت أنه مجرم بعدها وشتمته بقولي (كذاب) ، وكان بدون أي شك كذلك . وقد سمع شتيمتي هذه بعض موظفي وزارة الداخلية وقد وبخت وأعطيت محاضرة عن إعتدائي الكبير هذا . وقد كان ذلك الاستجواب في أحد بنايات وزارة الداخلية وقد عرفت أن المتهم لا يجوز أن يوصف بمثل هذه الصفة وقد يقول المستجوب نفس المعنى بقوله مثلاً : أظن أن قولك هذا إحتوى بعض الأخطاء ؟، أو ما يشابه هذا القول . ولا يجوز شتم المتهم أو إيذاء شعوره بوصفه بكلمة (كذاب) غير المهذبة . وقد كنت في تلك اللحظة مستاءً ومتعجباً لأن المتهم الذي كنت أستجوبه كان مخلوقاً غريباً وكذاباً من الدرجة الأولى . وبعدها عرفت أن هذه العادة وإن كانت مبالغ في تطبيقها في وزارة الداخلية إلا أنها في الإتجاه الصحيح .

وبعد تحرير هولندا أصبح جزء من مسؤوليتي تدريب الشباب الهولنديين على مكافحة الجاسوسية . وقد ذكرت وسائلي في نهاية هذا الفصل وهي تشير إلى تجاربي الخاصة في مكافحة الجاسوسية ولا أجد ضرورة هنا من ذكرها مفصلاً ، وأرى من الواجب هنا أن أشرح نقطة واخدة وهي إني كنت إستهدف في كل تحقيق أن أجد فاجعة نفسية في نفس المتهم في أول مراحل التحقيق . والسبب في هذا غير صعب التفسير ، فيما أن التخقيق معركة للحجة فعليه يجب لأحد الطرفين أن يأخذ المبادءة في المراحل الأولى من التحقيق ويحتفظ بها ، والمستجوب يبدأ من موقف حسن وليس عليه أن يخاف من الفشل لأنه لا يعني بالنسبة له الموت كما هي الحال بالنسبة للجاسوس . ويمكنه الأخذ بالاستجواب في الوقت والمكان الملائمين له ، ويمكنه أن يقرر متى يقطع الاستجواب ومتى يكمله ، ولكنه يفقد الامتيازات التي لديه إن لم يستغلها جيداً من البداية ويحصل على قلق وإضطراب خصمه . فإذا تمكن من الحصول على غضب أو خوف المتهم بأسئلته فإنه إتجه نحو الإتجاه الصحيح . والعمل على إثارة المتهم لا يأتي إلا إذا كان المستجوب ملماً بشيء من علم النفس كما ذكرت سابقاً. وكان بمقدوره أيضاً التثمين السريع لشخصية المتهم.

وإن كان بعض ضباط الأمن يتجنبون إستخدام التعذيب الجسمي ، إلا أن البعض يستخدمون التعذيب الجسمي كمساعد في الاستجواب ، فمنهم من يعطي المتهم كرسي صلب للجلوس عليه أو أن يتركه واقفاً لمدة طويلة بالاستعداد أثناء الاستجواب . وهناك حيلة إعتيادية مستخدمة على ما أظن في الجيش عندما يستجوب ضابط كبير عدو والذي يكون عادة سريع الخجل وهي إعطاء الضابط العدو كميات كبيرة من الشاي أو القهوة والحليب قبل إستجوابه ثم إطالة الاستجواب حتى يشعر الضابط العدو بالحاجة إلى التبول أو غيره بصورة ملحة لدرجة أنه يعطي معلومات حيوية لغرض أن يكون حراً في الاستجابة للطبيعة . أما أنا فلا أحبذ مثل هذا الأسلوب ، وإن كانت هذه الأساليب لا تتضمن التعذيب الجسمي ولكنها تقترب من التعذيب الجسمي وأحياناً تكون تعذيب فعلاً .

وقد يكون قولي غريباً إن قلت إنني أبدأ مع المتهم بصورة إعتيادية وقد يمكنه الجلوس على كرسي مريح إذا أراد ويمكنه أن يسترخي أو يستند إلى الخلف إذا شاء ، ولا تستمر ساعات الاستجواب طويلاً بحيث تفوق تحمله ، وقد تكون ساعات الاستجواب من التاسعة صباحاً حتى السادسة مساء بما في ذلك فترة ساعة للغذاء . ولا أعتمد على بديل في الاستجواب ولا آخذ أي رؤوس أقلام كما ذكرت سابقاً أثناء التحقيق . (وهنا يضيف المترجم أن التسجيل يلعب دوراً كبيراً في التحقيق اليوم) . ويكون غرضي عادة تحطيم الجو الرسمي والتفهم للمتهم إلا إذا وجدت أنه أكثر تأثراً بالجدية الرسمية . واحتفظ دائماً في ذهني في موضوع الحصول على المبادءة وكذلك دفع المتهم إلى إرتباك نفسي ، وعند فشل جميع الوسائل وعندما أكون مقتنعاً من أن المتهم جاسوس حقاً أطلب منه إعادة قصته مرة بعد أخرى من البداية إلى النهاية دون حذف أي شيء من التفصيلات . . وقد تستمر هذه الاعادة لمدة اسبوع ، وتخدم هذه الاعادة في فحص صبري وصبره وذاكرتي وذاكرته . وإذا كان يتكلم غير الحقيقة ينسى بعض التفاصيل الصغيرة ويصبح الباب مفتوحاً أمام فضحه النهائي . وعندما أضع قدمي في هذا الباب أجد الطريق مفتوحاً أمامي نحو النجاح .

وهنا أرغب بيان الظروف التي أخذت أثنائها الاستجوابات خلال الحرب الثانية والتي كانت أكثر تعقيداً مما كانت عليه في الحرب العالمية الأولى . وقد تم القبض على جميع الجواسيس الألمان الذين كانوا يعملون في بريطانيا بمدة قصيرة عن طريق الصدفة في آب / ١٩١٤ . وقد كان وصول الجاسوس الألماني منتظراً مسبقاً . فقد وصل كارلودي بعد إبتداء القتال وألقي القبض عليه بسهولة ، وقد ذكرت هذه القصة كثيراً ، وهنا سأقول القليل عنها :

ففي ١٩١١ أخذ أحد كبار الملحقين الألمان في لندن التردد على صالون حلاقة في شارع كالدونيا ولم يكن هذا المكان ملائماً لضابط بروسي كبير ، وبهذا أثيرت شكوك مكافحة الجاسوسية البريطانية . وقد وضع المكان هذا تحت المراقبة وفتش البريد منه وإليه ، ووجد أن هذا الصالون هو مكتب البريد للجاسوسية الألمانية في بريطانيا . ولم يفشي السر في هذه المرحلة وكان ذلك عملاً حكيماً وقد إستمرت مراقبة الصالون والفعاليات المتشعبة منه . وعند إبتداء الحرب هوجمت الجاسوسية الألمانية بضربة واحدة وتحطم الجهاز الذي نظم باعتناء خلال ثلاثة سنوات ، وكانت هذه الضربة مميتة للجاسوسية الألمانية التي لم تتمكن من إصلاح الخراب الذي لحق بها حتى إن إنتهت الحرب ، كل ذلك بسبب الاختيار الخاطىء لصالون الحلاقة في وسط غير مناسب للضابط الكبير .

وقد بدأت الحرب الثانية بشكل جديد وتحت ظروف حرجة بالنسبة لمكافحة الجاسوسية البريطانية ، فقد كانت هناك أقلية أجنبية كبيرة في لندن والمدن البريطانية الأخرى وهذه الأقلية لم تكن ضد أعداء بريطانيا ، وقد إزدادت الأقلية الألمانية والايطالية بعد الثلاثينات بسبب لجوء الكثير منهم هرباً من هتلر وموسليني ، وكان بإمكان النازيين والفاشست إرسال الكثير من الجواسيس بين هؤلاء اللاجئين واستغلال الظرف جيداً . كما كان هناك بعض الذين يعطفون على البربرية النازية بين الانكليز والذين اعتقدوا فعلاً بوجوب تجنب إنكلترا الحرب مع هتلر أو الاتفاق مع هتلر .

وبموجب قوانين الدفاع أوقف المشتبه بهم عند بداية الحرب ولكن الشبكة مهما كانت كبيرة إلا أن خيوطها لم تكن متقاربة لتمسك كافة السمك . ومن أول القتلى هي حرية الفرد في الحرب ، وبهذا يذبح أهم عناصر إرادة الوطن . وقد كان ضد هذه القوانين الكثير من الموظفين النجباء إذ ليس هناك من شك أن الكثير من الأبرياء أوقفوا بموجبها . فمثلاً أوقف الفون رنتلن أثناء الحرب الثانية ولأكثر مدة الحرب عامي ١٩٤١ و١٩٤٢ في سجن جلسي والذي كان ضد هتلر وأساليبه . وقد عرفته جيداً ولم يكن يفهم أن البلد الذي يمكن أن يعاونه بمعلوماته الواسعة عن الجاسوسية الألمانية يعامله بتلك الصورة . وهذه القصة شبيهة بقصة الأومليت والبيض ، ولا يمكن لدولة أن تحارب دون أن تحطم بعض مبادىء العرف ، وهذه الأشياء من طبيعة الحرب .

وحال إبتداء الحرب الثانية كان من الواجب حجز الالآف من اللاجئين الألمان الذين وصلوا إنكلترا خلال عدة سنوات ، وقد تضمن هذا الاجراء عملاً كثيراً جداً . وقد دخل إنكلترا بعد إنسحاب دنكرك ١٥٠ ألف لاجىء من الدنمارك وهولندا والنروج وفرنسا وحتى من جيكوسلوفاكيا وبولندا ، وقد وصلوا أثناء عملية إنسحاب القوات البريطانية الأوروبية وأثناء وجود إحتمال إنزال نازي في الجزر البريطانية وضرورة التهيؤ لصده . وأثناء وفود مد اللاجئين بدأت الوفت فات بشن غارات القصف المخيفة فتعقدت الأمور وكان على بريطانيا أن تعتني بالاضافة إلى مواطنيها بمواطني الشعوب الأوروبية اللاجئين إليها .

وكان الجهاز المنظم لخدمة اللاجئين الأوروبيين يشمل خمسة مراكز إستقبال في لندن في فولهام وبالهام وبوشي بارك وكرستل بالس ونور ود . وقد وضع في كل مركز مديراً للعمل ، وهذا الاجراء كان عملاً ممتازاً . وقد كنت أنا في مركز نور ود ضابطاً للأمن وقد الحق بهذا المركز حرس وسيج بالأسلاك الشائكة على عجل ، وكانت البناية التي خصصت لهذا المركز مستشفى في السابق ، وقد كانت من طابقين . وكانت ترد دفعات اللاجئين المتزايدة في

آخر الليل غالباً ، وقد كان وصولهم مرافقاً لغارة جوية عادة ، وذلك من حزيران ١٩٤٠ ، وقد يصل ٧٠٠ لاجىء في وقت واحد بقافلة من باصات لندن . .ويكون النساء والرجال على حافة الهستريا عادة وذلك بسبب الحرمان الذي لاقوه أثناء الهرب ونتيجة للقلق والحيرة وضياع الأهل والجوع والبرد بالاضافة إلى أخطار الغارات الجوية .

وإعادة النظام في الظلام إلى مجموعة من الغرباء ليس بالشيء اليسير ، ومع ذلك كان يجب القيام بمثل هذا العمل وتسجيل كافة اللاجئين وقومياتهم وإعطائهم المشروبات الساخنة وبعض الطعام ثم تهيأ المكان اللازم لنومهم وإيجاد الأغطية الكافية ليناموا ما تبقى من الليل . وقد شتت هذا النظام غارة جوية ألمانية غير متوقعة في هذه الأثناء . وقد كانت الغارات الألمانية تتبع ما يشابه مجرى يمتد فوق مراكز نور ود وكرستل بالس ، وقد يصاب أحدهما أو كلاهما في كل غارة .

ولا يمكننا عادة الاستراحة والنوم إلا في الفجر ، ثم نبدأ العمل مبكراً . ولا نبدأ بالاستجواب إلا بعد أن يستحم اللاجئون وتنظف ملابسهم من الأوساخ والحشرات ويفحصون فحصاً طبياً جيداً وينقل المرضى منهم إلى المستشفيات خاصة أولئك الذين يحملون الأمراض السارية . . وكثيراً منهم من يحتاج إلى رعاية طبية بسبب التعب . وبعد هذا يأتي دورنا نحن ضباط الأمن ، وعلينا الآن فحص لوازم ٧٠٠ وافد وبكل عناية فعلينا أن ندقق كل صفحة في كل كتاب أو جريدة أو مجلة ، وكان علينا أن نفحص خياطة كل بدلة وبطانة كل بدلة ، وكان علينا أيضاً أن نفتش الحقائب الكبيرة والصغيرة وليس كما يفتش موظفوا الكمارك ، بل كان يجب علينا القيام بهذا التفتيش بمنتهى الدقة والانتباه .

ويأتي الكثير من اللاجئين بخرائط وصور ومخططات عن القوات الألمانية التي يعرفون عنها شيئاً ، وكان علينا فحص هذه المستندات وإن كان الدافع للمجيء بها شريفاً وهو معاونة بريطانيا التي آوتهم .

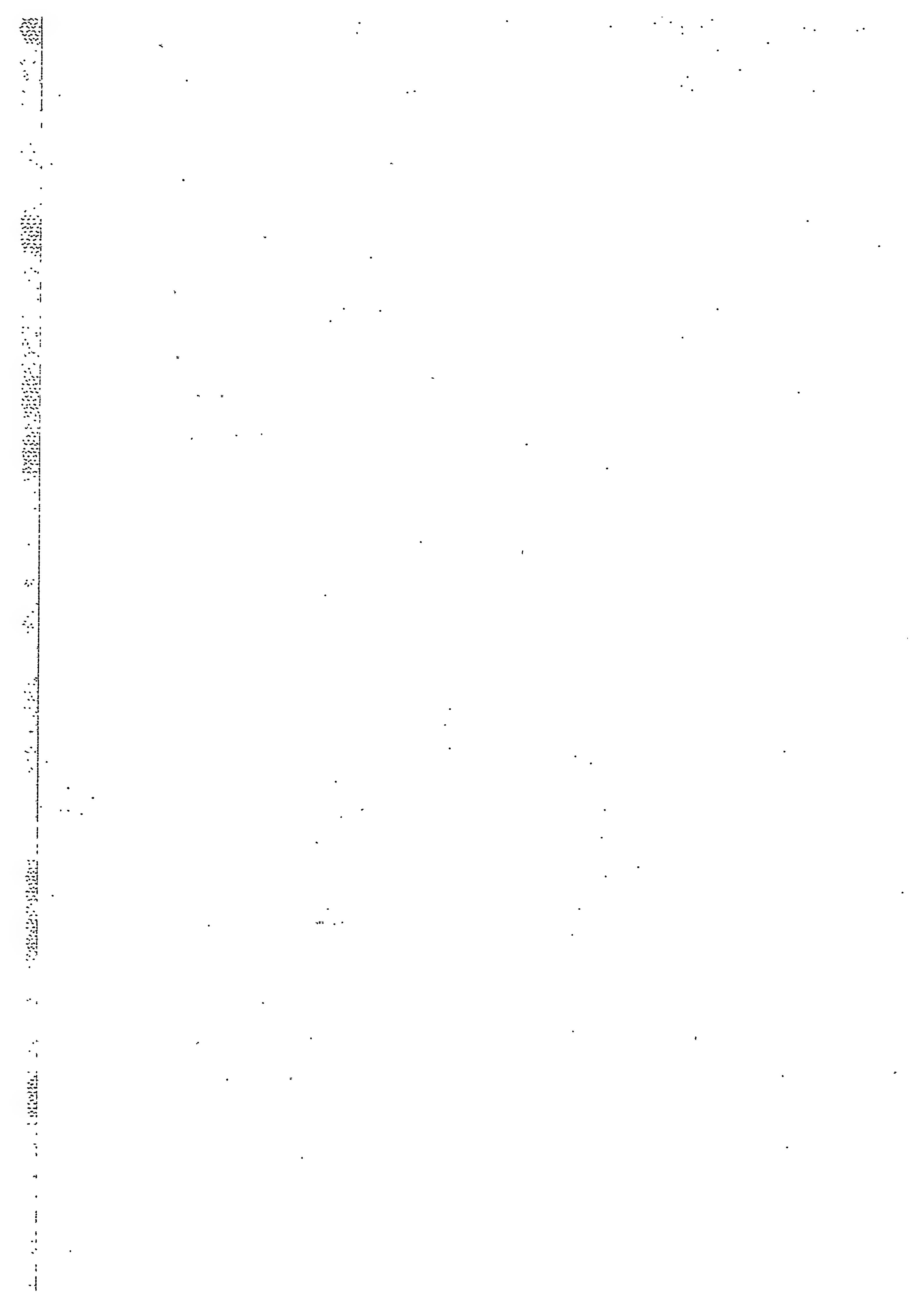
وبعد الانتهاء من التفتيش تأتي مهمة الاستجواب . وهنا يعزل المشبوهون عن الجديين في لجوئهم ويؤخذون لغرض الفحص التفصيلي .

وقد تستغرق هذه العمليات أسبوعاً ، ولا يمكن للاجئين الاجتماع ببعضهم أو إستلام الرسائل أو الاتصال بالعالم الخارجي إلا بعد إتمام ضباط الأمن ومكافحة الجاسوسية إستجوابهم . وبعد هذا يرسلون إلى ضابط الهجرة وهذا بدوره يزودهم بالجوازات والهويات المختلفة وبعدها يعتبرون قد نزلوا إلى إنكلترا رسمياً . . ويبعث الذين يشك في أمرهم ومن بينهم الأبرياء الذين لا يملكون الأدلة التي تثبت براءتهم إلى السجن . وكان مكتب التسجيل يحتفظ بكل التفاصيل المتعلقة باللاجئين ، وكان بالامكان الاستفادة من تلك المعلومات عن أي لاجىء وقد يستفاد أحياناً من اللاجئين القدامى في إثبات صحة إدعاء المشبوهين والتأكد من هوياتهم .

وقد إستمرت هذه الطريقة في عزل اللاجئين حتى نيسان / ١٩٤١ حيث أعطينا أنا وزميل لي مهمة تنظيم مركز خاص سمي بالمدرسة الوطنية . . وكان هذا في كلافهام . ونتيجة للتجربة التي حصلت عليها خلال الكثير من الليالي في المراكز الموقتة تمكنت بمعاونة زميلي من تنظيم نظام كفوء يمر به كل لاجىء وبدون أي إزعاج له أو لضابط الأمن . وبالاضافة إلى ذلك فقد خف سيل وفود اللاجئين إلى سلسلة معتدلة. وبما إن عدد المستجوبين كان أكثر أصبح بالإمكان تخصيص وقت أطول بالنسبة لكل لاجىء . وقد كنت رئيساً للمستجوبين في هذا المركز من نيسان ١٩٤١ إلى تشرين الأول ١٩٤٢ حيث نقلت إلى منظومة مكافحة الجاسوسية الهولندية ، وقد رأيت عدد المستجوبين يزداد في هذا المركز من خمسة إلى إثنين وثلاثين مستجوباً . ولم يكن هناك أي شك عندي أن بعض الجواسيس قد تمكن من الافلات خلال الأشهر الستة المرّة الأولى بعد الانسحاب من دنكرك . . وربما دخلوا من خلال حجزنا لهم في تلك المراكز . وكانت هناك صعوبة في عزل المشبوهين لا سيما إن أعداد المستجوبين كانت قليلة وأعداد اللاجئين كبيرة ، وكان الوقت المخصص للاستجواب قصيراً للحصول على نتائج كاملة .

ولم يكن عزل المشبوهين في لندن نهاية مشاكلي بعد الانسحاب من دنكرك . . فبعد سقوط فرنسا أغلق الألمان الساحل الأوروبي إلا ساحل البرتغال الضيق ، وكان الميناء الأوروبي الوحيد الذي يتصل بانكلترا هو ميناء لشبونة . وقد كانت البواخر تصل بانتظام منها إلى ليفربول وكلاسكو ، وقد كانت الطائرات الألمانية تصل بول القريبة من بورتسموث مرتين في الأسبوع ، وكانت الطائرات البرية تهبط في برستل وكان عليّ إستقبال الوافدين في كل من هذه المكانات الأربعة من بريطانيين وغرباء . وكان هذا يعني الساعات الطويلة من التنقل شمال وجنوب البلد . واعتقد أني كنت الضابط الوحيد الذي استخدم كلياً في مهمة الاستجواب هذه دون إنقطاع ، وقد وجهت بحل نشاطي إلى استجواب الوافدين إلى المدرسة الوطنية في كلافهام والذين دخلوا بريطانيا جواً وبحراً .

ومن هذه الظروف جئت بهذه القصص الحقيقية ، وبالنسبة إلى الظروف التي سادت أثناء الحرب الأولى حيث لم يصل أحد أثناءها لأن الجواسيس الألمان إكتشفوا قبيل الحرب دفعة واحدة كانت ظروف مكافحة الجاسوسية ظروف صعبة جداً ، ولم يكن جهاز مكافحة الجاسوسية البريطاني مهيأ لفيضان اللاجئين كما كان الأمر بالنسبة للقوات البريطانية الأوروبية أمام قوات البانزر الألمانية في مايس ١٩٤٠ ، وكما تعلم الجيش البريطاني ليغلب الألمان في رياضتهم القومية بعد أن أعاد تنظيمه كذلك كان على جهاز مكافحة الجاسوسية أن ينظم نفسه ويتعلم من تجربته التي إكتسبها بمشقة ، ولكن قد تكون لأي خطأ نتائج كبيرة في مثل هذا الموضوع . وبعد كل هذا قد أجد اليوم بعد مرور سنوات على إنتهاء الحرب كتاباً يطبع في ألمانيا عن (السنوات التي قضيتها أتجسس في بريطانيا) لمؤلف ألماني قضى خمس سنوات لذيذة في إنكلترا أثناء الحرب . ولحد الآن لم يظهر مثل هذا الكتاب . ولا أدهش أبداً إذا طبع مثل هذا الكتاب إلا إذا كان الكاتب مستمراً في عمله ولم يكشف نفسه لحد الآن .



ملحق الفصل الثاني

ملاحظات في التحقيق

١ ـ فحص اللوازم :

لا يمكننا أن نضع أهمية كافية للتدقيق التام للوازم الوافدين ، فقبل أن نرى اللاجىء شخصياً يجب أن ندقق لوازمه باعتناء تام وإعطاء إنتباه خاص لمحتوى دفاتر الجيب والمذكرات ودفاتر الملاحظات وأي قطعة مكتوبة جاء بها الوافد . وعلينا أن نفحص أي قطعة من الورق وحتى ورق السكاير الممزق يجب أن نفحصه بدقة وإعتناء . ويجب أن توضع إلى جانب أي كتابة غير معروفة ويطلب من اللاجىء أن يوضحها بنهاية الاستجواب الأول .

ويجب تسجيل جميع العناوين ، ويطلب من اللاجىء أن يوضحها أثناء الاستجواب . وإذا كانت هناك بعض الكتب بين لوازم اللاجىء يجب الانتباه الخاص إلى مؤشرات القراءة ، وإذا كانت الكتب مجلدة بغطاء من الورق فيجب رفع ذلك الغطاء . وإذا كانت إحدى زوايا الأوراق مكفولة يجب فحص تلك الصفحة بدقة خاصة إذا كانت هناك إشارات أو ملاحظات .

وإذا كان هناك منجد فتش كافة الصفحات التي تبدأ بها الحروف وافحص فيما إذا كانت هناك إشارات تحت أو فوق حروف الفهرست .

ويجب تفريغ صناديق الشخاط وتدرس من الداخل .

ويجب معرفة طبيعة أي مسحوق أو حبوب أو أي مادة كيمياوية ، وكذلك معرفة الأدوية وغيرها .

إنتبه بصورة خاصة إلى قطع القطن والعيدان وعصيان الليمون في كتب الجيب . كن حذراً جداً لقطع الكاربون المستعملة وورق النشاف فإنها قد تعطيك الكثير من المعلومات الحيوية .

٢ ـ الاستجواب الأول :

آ ـ نظرة عامة :

يجب أن لا يكون الاستجواب الأول لأي وافد إستجواباً مفصلاً . ويجب أن نأخذه بكل إحترام للاجىء وأن لا يبوح المنتجوب بكلمة أو فكرة عن أي إبهام أو تعجب أو أي شعور آخر إلا الإعجاب ربما .

ويجب أن نشجع الكذب الواضح عند المتهم ونشجع التخبط وأن لا نذكر للمتهم تناقض أقواله . وإذا كان المستجوب أحد مجموعة من المستجوبين وكانت هناك تناقضات أمام المستجوبين يجب عدم الإشارة إلى تلك المتناقضات في الاستجواب الأول .

وكلما كانت القصة غير معقولة أو مشكوك فيها يجب أن يقبلها المستجوب دون تردد . ولا يمكن توجيه الأسئلة التي تجعل المتهم يحترس في الاجابة عليها . وكل إشارة إلى أن قصة المتهم لا تصدق يجب الابتعاد عنها نهائياً .

وإذا كنت في نهاية أقوال المتهم متأكداً من صحتها وإن الموضوع يصبح مجرد روتين فيما تبقى من الاستجواب ، فعندما يمكنك أن تبدأ بالتحقيق وتطلب من اللاجىء أي أسئلة تجدها مناسبة لتوضيح أو إكمال القصة . وإذا تأكدت أن المتهم بريء وليس هناك لزوم لاستجوابه مجدداً يمكن إطلاق سراحه . أما إذا كان لديك أدنى شك حول أية نقطة من نقاط القصة فعليك أن تنهي الاستجواب الأول عند هذا الحد .

ب ـ التقرير :

ادخل في تقريرك إلى جانب المواضيع المذكورة لحد الآن ما يلي دائماً :ـ

١ ـ دين اللاجىء .
٢ ـ إذا كان قد إنتمى إلى أي حزب سياسي أو نقابة فيجب تدوينها .
٣ ـ اللغات التي يجيدها اللاجىء ودرجة إتقانها .

وعند نهاية القصة لا تقل أن هذا الرجل يبدو عليه الصدق أو هذا يبدو عليه أنه كاذب ، لأن مثل هذه الانطباعات غير مجدية .

ويمكنك أن تطمئن أن الجاسوس الماهر يعطي إنطباعاً حسناً . وقد قال أحد مشاهير مكتشفي الجرائم بأنه أخذ أفضل الانطباعات عن امرأة سممت طفلها لغرض الحصول على تعويض من شركة التأمين . والذي أخذ عنه أسوأ الانطباعات كان أديباً مشهوراً .

وإن كنت غير مقتنع بالقصة لا تجزم بنهاية قاطعة .

حدد شكوكك وأهدافك واشرح رأيك ، وإذا كان لديك تفسير منطقي يتلائم مع كافة الحقائق بينه بالتفصيل أو إقترح إقامة إستجواب آخر ، وإن لم يكن لديك إبحث عن رأي آخر .

ويجب أن تبحث عن المستمسكات بعد الاستجواب الأول مباشرة . ومن المهم عدم إضاعة الوقت في الاستجواب الأول لأن المستمسكات لها أهمية كبيرة عند إقامة الاستجواب الثاني .

جـ ـ الاستجواب الثاني :

قبل الابتداء بالاستجواب الثاني اقرأ تقرير الاستجواب الأول إذا كان قد قام بالاستجواب الأول غيرك . ويجب الإنتباه إلى عدم التأثر بالانطباعات المقصودة أو غير المقصودة ، لأن وضع الحقائق من قبل المستجوب لا يتعدى كونه نوعاً من التخمين . وتكون عادة الحقائق التي يعتبرها المستجوب الأول مهمة مقرونة بالتفصيلات والاهتمام ويهمل عادة الحقائق التي يعتبرها ثانوية

أو غير مهمة ، وعلى المستجوب الثاني عدم أخذ هذا التقرير ـ الأول ـ بنظر الاعتبار . ويجب دراسة الموضوع كلياً وتثمين كل حقيقة على حده ، وقد نجد أن العنصر الأهم في الموضوع يكون مهملاً تقريباً من قبل المستجوب الأول لاعتقاده بأنه تافه ولا يستحق البحث .

وقد يفيد أحياناً التظاهر بفقدان الصبر ، إلا إنك يجب ألا تفقده جدياً . وعليك التعرض إلى النقاط الحرجة رأساً . وأسئلة التعجب بالنسبة للمتهم بمثابة الكمائن بالنسبة إلى جندي المشاة في الميدان . . ولتكن المفاجئة هذه بصيغة القول . ولغرض التوضيح أقول هنا : لو إنك تعتقد أن المتهم كان على إتصال بقتصلية ألمانية في مدينة معينة لا تسأله : هل زرت القنصلية الألمانية هناك ؟ ، بل قل : ما هو تاريخ زيارتك الأخيرة للقنصلية الألمانية هناك ؟ . ومثل هذا يجب قوله دون مقدمات . . . وحاول ملاحظة الارتباك على أهداب المتهم وقسمات وجهه .

وإذا كانت هناك عدة نقاط مهمة ومشكوك بها في قصته ، فمن الأرجح عدم معالجتها واحدة بعد الأخرى ، ولكن يجب الانتقال من واحدة إلى أخرى دون إنذار .

وحاول أن تقوم بتحليل المتهم نفسياً قبل البدء بالاستجواب وعامله على ضوء ذلك التحليل ، فقد تتمزق مقاومة البعض وتنهار بالتهديد والبعض الآخر يكون صلباً بالتهديد ، فعليك أن تقرر مسبقاً كيفية معاملة المتهم الذي بين يديك . . فهل هو من ذلك النوع من الرجال الذي ينهار بالتهديد أو الاستهزاء أو بالبرود والسلبية أو بالشفقة أو العبث بعواطفه ؟

(القصة داخل القصة):

في أكثر الاقتراحات في التقارير الأولى يمكنك أن تجد طلباً للمستجوب الأول بتوقيف المتهم حتى تتضح له نقطة خاصة أو نقاط في قصته والتي إما أن تكون غير محتملة أو ربما غير محتملة . وعليه يجب الاحتراس ضد ما أسميه (القصة داخل القصة) لعدم وجود مصطلح أفضل . والذي يؤلف القصة

للجاسوس يجد مكاناً لقصة داخلية للطوارىء في قصته .

وهنا سأحاول إعطاء مثل عما أقصده :

المتهم هنا بحار يسرد قصة هروب من أراضي محتلة ، ولم يعمل طيلة ثمانية أشهر بسبب عدم رغبته في خدمة الألمان . وأدعى أنه كان يعاون منظمة سرية تقوم بالتخريب وغيره ، وبعدها إضطر إلى الهرب والالتجاء إلى إنكلترا وذلك عن طريق إسبانيا والبرتغال .

والقصة على ما يظهر معقولة ، وقد قصها المتهم بنوع من الثقة وأعطى تأثيراً ممتازاً . ومع ذلك كان الغريب في القصة ـ وهو السبب في الاستجواب الثاني ـ هو حوزة البحار العاطل هذا على ٥٠ جنيه عملة بريطانية و ٢٠٠ دولار أمريكي . فكيف يمكن لبحار عاطل أن يكون لديه هذا المبلغ من المال ؟

وكان تفسيره الأول هو قيامه في توفير تلك العملة ، ولم يصدق المستجوب هذا القول واقترح إطالة الاستجواب وأمر بتوقيفه حتى تتضح هذه النقطة . وقد كان المستجوب على صواب .

وهنا تدخل القصة الضغيرة . . فبعد كثير من التردد من قبل المتهم يأتي بقصته الصغيرة قائلاً : سيدي ، لا يمكنني الاستمرار في غشكم أكثر من هذا . . سأخبركم الحقيقة بأني لص .

ويستمر في القول مبيناً الطريقة التي حصل بواسطتها على الدراهم وبصورة مفصلة وكيف أنه سرق عجوزاً آوته جميع حليها ، وكيف باع تلك الحلى في السوق السوداء .

ومن طبيعة النفس البشرية أن تصدق القول الذي يقوله المتهم ضد نفسه ، وإذا قبل المستجوب هذا القول فإن النقطة المشكوك بها في الاستجواب الأول قد إتضحت ، وبما أن الموضوع لا يتعلق بالأمن فيخلى سبيل المتهم . ومهما كان مؤلف القصة حاذقاً في بنائها للجواسيس الذين

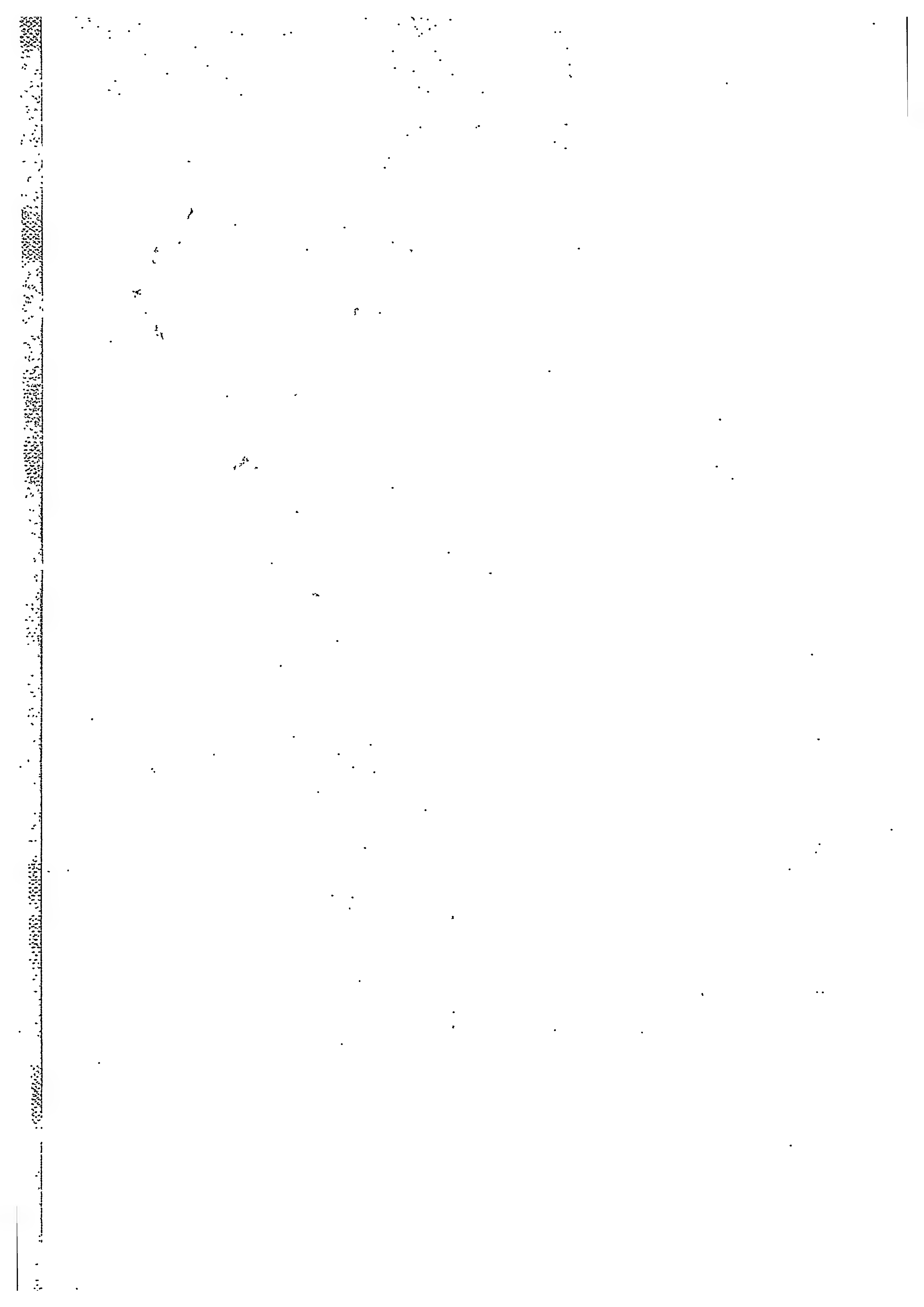
يرسلون عبر الحدود لا يمكنه أن يجعلهم كاملي التدريب . وبهذا نجد دائماً القصة داخل القصة مصطنعة في سلوك المتهم لغرض أن تقبل عندما يضطر إلى قولها وهو يتظاهر في قصته الصغيرة هذه بأنه لص أو كذاب أو قاتل أو محتال لغرض أن يقنع المستجوب في قصته .

وعلينا أن نحترس ونحذر من مثل هذه القصة الصغيرة داخل الأحداث والتي يأتي بها المتهم ليتخلص من شك المستجوب في أمره .

وإذا تمكنت من إكتشاف الجاسوس بعد عناء كبير ويأخذ في الدفاع عن نفسه بعرض مثل هذه القصص لا تقبلها كحل أخير يدل على العكس تأكد من أنه جاسوس .

الفَصْل الثّالث

الجاسُوس الدّقيق



للألمان نزوع نحو الدقة ، أو بعبارة أعم نحو (فن مجابهة الصعوبات) . . وهذا قد نصفه بالعبقرية . ولكن بتجربتي الخاصة كلف هذا الكثير من الرجال أرواحهم ، وكان ذلك بتقيدهم الأعمى بالدقة . وفي إحدى الحوادث التي سوف لا أذكرها في هذا الكتاب مسك أحد الجواسيس على السواحل الخالية ووجد معه نقود بريطانية وملابس بريطانية حملت علامة الخياط ، وكانت هذه الدقة مثار إعجاب . ولكن الدقة المفرطة قد تفضح الكثير كما حدث في موضوع (تمرمانس).

كان تمرمانس من أصل بلجيكي وكان عمره ما يقارب ٣٧ سنة ، ولم يكن متزوجاً وكانت مهنته البحرية ، وكان مظهره يدل على مهنته فكان يبدو عليه أنه بحار عادي ويمكنك أن تجد مائة مثله في أي ميناء في العالم ، وكان لباسه نظيفاً ويبدو أنه يحسن العمل اليدوي ، ولم يكن كثير الذكاء ولكنه كان كثير المنطق ، وقد كانت عيناه زرقاوين وكان شعره أشقر غير منتظم ، ويبدو عليه أنه عاطفي وغير مراوغ .

وقد كانت قصته أكثر إعتيادية من مظهره ، فقد قرر أن يترك بلجيكا بعد إحتلالها من قبل الألمان ويلتحق بالبحرية التجارية البلجيكية في إنكلترا والتي كانت تحتل ميناء بركسهام الانكليزي . وقد إخترق فرنسا المحتلة وحده

إلى منطقة فجيء به بعد أن إتجه نحو الجنوب ووصل إلى جبال البرنيس . . ولكونه بحاراً جيداً تمكن من إجتياز الجبال إلى إسبانيا وقد وضع هناك في السجن لسوء طالعه . . وقد أنهى سبعة أشهر في زنزانة مظلمة قذرة في برشلونة حتى تمكنت القنصلية البلجيكية من إطلاق سراحه بعد جهد كبير وأرسل بعدها إلى لشبونة في البرتغال حيث قدمت أسمه القنصلية البلجيكية هناك بين قائمة المنتظرين للذهاب إلى إنكلترا . وبسبب كون تمرمانس شاباً ويمكنه العمل من أجل الوطن أعطي الأفضلية في اللجوء إلى إنكلترا ، وقد وصل إنكلترا في نيسان / ١٩٤٢ وقد جيء به إلى المدرسة الوطنية في كلافهام لغرض الاستجواب الاعتيادي . . ولأنه مواطن بلجيكي أرسل إلى أحد المستجوبين البلجيك . وقد كان هذا أحد تلامذتي ولم تكن لي علاقة في موضوعه لحد الآن . . وقد كنت مشغولاً في إستجواب إسباني وكان في ذلك الكفاية . وقد كان موضوع إستجواب تمرمانس موضوعاً روتينياً ويستطيع ضابط الأمن البلجيكي أن يعالجه لفطنته وذكائه .

وقد كنا ـ كما ذكرت سابقاً ـ نهتم في المدرسة الوطنية بتفتيش لوازم المتهم بصورة دقيقة سواء كانت حقائب أو لوازم شخصية . وقد يحمل الأبرياء الصور والجرائد المحلية وأوراق قد تنفع الكثير في إعطائها معلومات ممتازة للمستجوب المدرب . والذي يصل لغرض التجسس يجلب معه عادة الوسائط التي بواسطتها يرسل المعلومات التي يحصل عليها . ولا يمكن للجاسوس مثلاً أن يحمل معه جهاز راديو كجزء من لوازمه ، ولكنه قد يخفي شيئاً صغيراً مثل آلة التصوير المايكرومي ، بالاضافة إلى ذلك هناك قليل من الجواسيس لهم قوة ذاكرة لحفظ الأسماء والعناوين وفي لغة أجنبية غالباً لغرض إيصال المعلومات التي حصلوا عليها ، ولهذا علينا أن نفتش جميع حقائب ولوازم المتهمين الشخصية باعتناء كبير ، ويؤخذ بهذا عادة بعد الحصول على الاستجواب الأولي منهم وقبل الاستجواب المفصل الذي يستند عادة على تفتيش لوازم المتهمين والأدلة المستقاة منها .

وفي المدرسة الوطنية كانت هناك غرفة خالية من الأثاث إلا من منضدة

طويلة جرداء وكراسي موضوعة على جانبيها ، وقد أطلقنا عليها إسم غرفة الخشب . وفي كل صباح يجلس المستجوبون وينشرون أمامهم لوازم (زبائنهم) ، وقد يفحصون أحياناً تحت زجاجة التكبير كافة حقائب الألبسة وحقائب الكتب والمحافظ وكتب الجيب والمراسلات وأقلام الحبر وأغلفة النظارات ومشارب الدخان وعلب السكاير والمفاتيح وكل شيء غريب يحمله اللاجئون .

ويدقق كل شيء بمنتهى الاعتناء ، وعند الفراغ منه يوضع إلى جانب . وكانت الغرفة على العموم شبيهة بالكمرك أو المزاد ، وقد كنت جالساً جانب ضابط الأمن البلجيكي وكان الصباح جميلاً في أحد أيام شهر نيسان حيث الشمس المشرقة والأزهار المتفتحة وكان هو منهمكاً في موضوع تمرمابنس . وبينما كنت غارقاً في التفكير أدرس لوازم صاحبي الاسباني العنيد التفت نحوي تلميذي وقال : ماذا تظن أن يكون هذا يا سيدي ؟

وقد بدد تركيزي هذا السؤال وأزعجني ، فنظرت إليه وهو يفرغ محتويات محفظة قديمة سوداء وأخرج منها غلافاً ، وفتح الغلاف وأخرج منه مسحوق أبيض . فأجبته متضايقاً : كيف أعرف هذا بحق السماء ؟ إني لست بمختبر فقال ، ارسله إلى المختبر وأطلب تحليلاً عاجلاً .

ثم رجعت إلى عملي وأخذت أفحص لوازم الأسباني ، إلا أني إنتبهت بعد لحظات إلى صوت كسول يسألني : هل يمكنني مقاطعتك ثانية يا سيدي ؟ ، فالتفت إلى تلميذي الشاب وكنت على وشك إعطائه محاضرة عن الشباب غير الكفوء الذي لا يتمكن من القيام بواجباته ، ولكني رأيت ما كان في يده ، وكان ذلك رزمة من عيدان الليمون شبيهة بما تستعمله الحسان لغرض تدوير مجالس أظافرهن . . صرخت عندها : يا الله . .

ماذا دهاك يا سيدي ؟ قال .

لا شيء ، إستمر واخرج القطن . أجبته .

القطن ؟ فصاح باستغراب والنظرة التي طفرت على وجهه كشفت عن

شكه بأن أحدنا يجب أن يكون مجنوناً وأنه ليس بذاك الشخص ، ومع هذا نفذ الأمر ونظر في الجيب الآخر من المحفظة وأخرج بأصابعه قطعة من القطن .

وفي هذه اللحظات أنهى قصة جاسوس ألماني آخر .

وبعد أن شرحت له أهمية إكتشافه طلبت منه أن يترك موضوع تمرمانس لي ويبدأ في موضوع آخر . وأخذت أحدق بهذا الجاسوس الألماني والدقة الألمانية التي كشفته . ومن يرسل إلى إنكلترا لا بد أن يجهز بكل شيء حتى الأشياء الصغيرة والتافهة . ولكن سيد الجواسيس (الذي عرفنا بعدها أنه سكن في دار ضيوف في لشبونة) أعطاه الرسالة التي أوصلته إلى جهاز مكافحة الجاسوسية دون عناء ، فلقد زوده بثلاث ضروريات للكتابة السرية : مسحوق البارميدون ليذاب في مخلوط من الماء والكحول ، وأعطاه عيدان الليمون كواسطة للكتابة ، وكذلك القطن لغرض لفه على رؤوس العيدان ليتجنب خدش الورق . والشيء الذي يستحق الرأفة من ناحية تمرمانس هو إن بالإمكان لأي شخص شراء تلك الضروريات الثلاثة من أي صيدلية في إنكلترا ودون أن يسأل أحد عن السبب في شرائه هذه الأشياء . وهنا أصبح عليه أن يوضح الأمور بسبب دقة سيده .

وقد عرفت إن إكتشاف حقيقة الجاسوس شيء والاعتراف بالجريمة شيء آخر . وكان من الواجب الإتيان ببرهان أمام محكمة لإدانته بموجب القانون . وقد تمكنت من وضع رأسه في المشنقة إلا إني لم أسحب الحبل بعد .

ذهبت بعدها إلى غرفتي واستدعيت سكرتيرتي في الهاتف وطلبت منها أن تسجل لي كافة لوازم تمرمانس بقائمة بحيث لا تترك أي شيء مهما بدى تافهاً . وبعد دقائق كانتِ هناك أمامي قائمة مطبوعة على مكتبي ، وأدخل فيها بين المواد العديدة المواد الثلاثة التالية :

غلاف فيه مسحوق ..
رزمة واحدة من عصيان الليمون ..
قطعة من القطن.

وكان عليّ أن أحصل على إعتراف تمرمانس بأن هذه الأشياء الثلاثة تعود له . وفي تجربتي أن كثيراً من المجرمين يدعي بأن الأدلة التي وجدت بين لوازمه زرعت معه من قبل المستجوبين . ودون وجود أي برهان ضد هذا الادعاء يأخذ الحاكم بما يقول ويخلي سبيله . لقد غلبت مرة ولا يمكن أن أغلب ثانية . وبعدها أرسلت بطلب تمرمانس .

دخل تمرمانس غرفتي بمشية مضطربة وجلس عندما طلبت منه الجلوس .. وأخذ ينظر في عيني وابتسم إبتسامة خجلة دون وعي ، فابتسمت له وقدمت له علبة سكايري فأخذ واحدة منها وأشعلتها له ، ثم تنفس نفساً عميقاً وطرح ظهره إلى الخلف .

قلت : حسناً يا تمرمانس ـ في البلجيكية ـ إن قضيتك غير معقدة لحسن حظك ، وقد تحققنا من قصتك ووجدناها كاملة تماماً ..

إبتسم لي ثانية ..

وقد قيل لي أنك ترغب في الانضمام إلى البحرية التجارية البلجيكية الحرة وتقوم بسهمك من الحرب ..

نعم تواق جداً يا سيدي . قالها مبتسماً وقد تشجع .

قلت : إني مسرور أن أسمع هذا ، لأن البحرية التجارية البلجيكية تحتاج إلى رجال طيبين مثلك . (وأخذت أقلب بعض الأوراق) ، وأردفت قائلاً : حسناً ليس هناك حاجة في تعطيلك أكثر من هذا ، لقد تم إستجوابك وأنت كما أعلم ترغب بالالتحاق بمواطنيك بأقرب فرصة ممكنة ، وسأطلب من ضابط الهجرة أن يعطيك سمة الدخول حالاً ، وإن رافقك الحظ يمكنك أن تركب القطار هذه الليلة إلى بركسهام ، ما رأيك ؟

هذا رائع يا سيدي ، أشكرك جداً . (وقد انتشرت إبتسامته من الأذن للأذن) .

ثم قلت : هناك شيء واحد ، فهذه لوازمك على المنضدة ، تأكد منها ووقع هذا الوصل الرسمي بها ، ويمكنك أخذ لوازمك والذهاب في طريقك . .

تناول القائمة من أمامي ووقعها بعد أن قرأها وقال : كل شيء على ما يرام سيدي .

وساد الصمت أثناء توقيعه حكم نفسه بالموت .

بعد هذا دفع تمرمانس كرسيه إلى الخلف وتساءل : هل هذا كل ما تطلبه يا سيدي ؟ قلت : ليس تماماً . وأخذت في فتح محفظته بهدوء وأخرجت المسحوق ورزمة العيدان ثم قطعة القطن ووضعتها بالترتيب على النشاف وأخذت أنظر إليه فاصفر وجهه وزالت إبتسامته واضطربت عيناه . .

قبل أن تذهب أرجو أن تفسر الأسباب التي جعلتك تحمل مثل هذه الأشياء بصورة خاصة في محفظتك وهي أشياء إعترفت أنها لك بتوقيعك لهذه القائمة ؟

إضطرب ونظر إلى القائمة التي في يدي وكان كما لو يتحين الفرص لاختطاف هذه الورقة المقيتة من يدي ، ثم إسترخى وطفرت على شفته إبتسامة نصر .

قال : طبعاً يمكنني تفسير ذلك يا سيدي . . لقد حيرتني برهة ولكني أتذكر الآن جيداً ، عندما كنت في السجن في برشلونة - وقد أخبروك عن ذلك طبعاً - نزلت زنزانة في السجن مع شيوعي إسباني ، وفي صباح أحد الأيام الباكر جاء إليه الحرس وأخذوه خارجاً ، وعند سمعه وقع أقدامهم في الممر رمي لي هذه الأشياء الثلاثة وقال أنهم سيقتلونه لو وجدوا هذه الأشياء معه ، وطلب مني أن أحتفظ بها له حتى يرجع .

وهنا تنفس عميقاً وأردف قائلاً : ولكنه لم يرجع ثانية . وقد وضعت هذه الأشياء في محفظتي ونسيت كل شيء عنها حتى هذه اللحظة . . أقسم بشرفي يا سيدي .

لقد خفيت إعجابي بهذا الرد السريع وأخذت أنظر إليه . وقد قفزت لي فكرة لاكتشافه وجربتها فوراً . .

إبتسمت كما لو أنني بدأت أفهم نكتة لطيفة ، ثم إتسعت إبتسامتي وأخذت أضحك من أعماقي بدون توقف ، وألقيت رأسي إلى الخلف ، وأحمر وجهي ، وسالت الدموع من عيني كما لو لم يكن في الدنيا نكتة ألطف . .

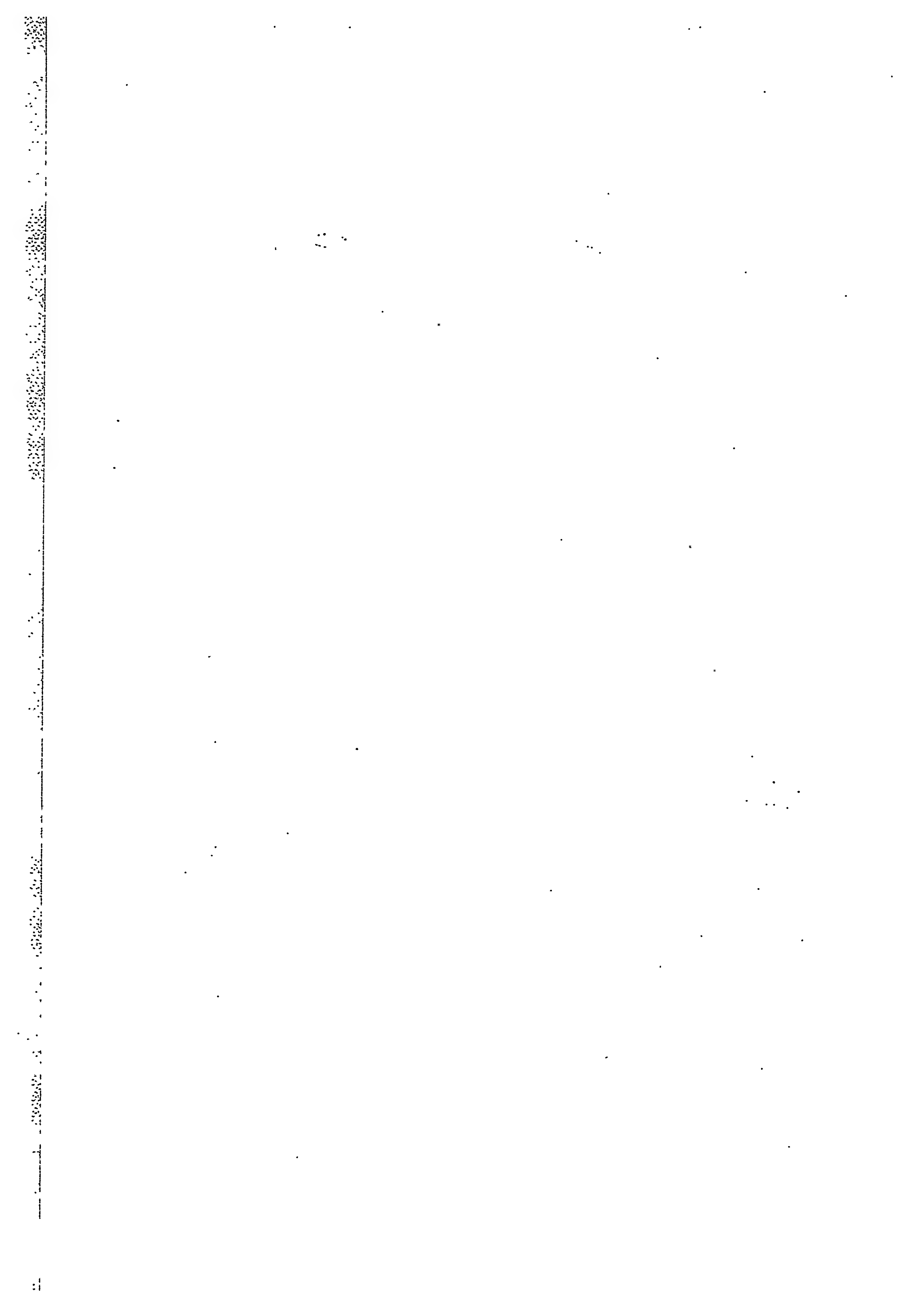
جلس تمرمانس كالشبح طابقاً فكيه واحمرت جبهته وأخذ يرتجف كلما تعالى ضحكي . وأنهار في النهاية وأخذ يضغط راحتيه على أذنيه ووقف على قدميه وأخذ يصيح ويسب ويطلب مني أن أوقف ضحكي الجنوني هذا قائلاً : سأخبرك كل شيء . . كف عن الضحك من أجل السماء ؟

وبعد أن حذرته من أن أي شيء يقوله قد يؤخذ كدليل ضده كتب ووقع إعترافاً كاملاً ثم طبع بصورة لطيفة ووضع على مكتبي .

وقد أعدم تمرمانس في واند سورث في السابع من شهر تموز / ١٩٤٢ ضحية للدقة .

الفصل الرابع

لاجئون الفانتم



بدأ الموضوع في سوهو ، تلك المنطقة العجيبة شمال شرقي بيكادلي ، حيث يجد المرء أحسن الأطعمة وأسوأ المجرمين في لندن . عثر هناك شرطيان ، أثناء الواجب الليلي ، على أشخاص غرباء المظهر يستجدون . وبموجب إجراءات الحرب طلبوا منهم إبراز هوياتهم . ولكنهم لم يحملوا هويات ولم يتكلم هؤلاء الثلاثة الشحاذون سوى الفرنسية . . ولكن الشرطيين لا يتكلمان سوى الانكليزية . وباللطف المعتاد الذي يتصف به البوليس الانكليزي طلب الشرطيان من هؤلاء مرافقتهم إلى مركز شرطة كانن رود ، وقد نفذوا الطلب دون مقاومة .

وكان المحقق هناك يعرف الكفاية من الفرنسية لاستجواب الشحاذيين بصورة ما . وقد حصل منهم على قصة مقلقة . . ففي أثناء ربيع ١٩٤١ وإن لم تنفذ خطة هتلر في إحتلال بريطانيا المسماة (خطة أسد البحر) وبقيت موجودة على الورق فقط وبين الغارات الجوية كان الانكليز يبنون دفاعات الساحل وينظمونها بسرعة ، وقد وضعوا الرزم المؤكسدة من الأسلاك الشائكة على الشواطىء الرملية وفي مداخل الخلجان الصخرية حول شواطىء إنكلترا ، وقد وضعوا الألغام في كل المكانات التي يحتمل فيها الإنزال ، ووضعوا دعائم سد الطرق ومصائد الدبابات طوال الطرق التي يحتمل أن

تسير فيها الدبابات . وفي هذه الأثناء كان الجنرال مونتي ، الذي كانت إنتصاراته لا تزال أمامه ، يقود الجحفل الثاني عشر في جنوب شرقي إنكلترا حيث كان متوقعاً أن تنزل أول القطعات النازية . وقد كان الحرس والدوريات تتجول على كافة السواحل البريطانية ليل نهار لمراقبة العدو .

فلا عجب إذن أن يقلق المحقق من قصة هؤلاء الشحاذيين الثلاثة ، فإنهم إدعوا الهروب من فرنسا قبل ثلاثة أيام بقارب ونزلوا الساحل الشمالي الشرقي دون أن يعثر عليهم أحد ، وتمكنوا من الانتقال إلى لندن عبر مناطق ممنوعة عديدة ولم يوقفهم أحد في أي نقطة من نقاط مراقبة الطرق أو يكلموا أحد أو يطلب منهم إبراز هوياتهم ، حتى وجدهم الشرطيان قبل بضعة دقائق وأوقفوهم .

وقد خطرت ببال المحقق فكرتين : فإذا كانت قصة هؤلاء حقيقية فإن دفاعات بريطانيا لا يمكن أن تكون في وضع حسن لصد الغزو الألماني المنتظر . وإذا كانت قصتهم كاذبة فمن يكونون ؟ أهم رتل خامس واجبه بث الاشاعات والذعر قبل أن تبدأ المدافع بالرمي ؟ أم أنهم جواسيس وصلوا قبل الأنزال لنقل المعلومات ؟

وفي كلتي الحالتين كانت المسألة معقدة بالنسبة له لمعالجتها فاستنجد بالهاتف .

وقد وصلت الأنباء بسرعة إلى المراجع العليا ، وبعد دقائق إنتشر الخبر إلى وزير الداخلية والوزراء ورئيس الوزراء شرشل نفسه ، فصدرت الأوامر بتحضير تقرير سريع عن دفاعات البلاد وخاصة كيفية السماح لهؤلاء الذين لم يتكلموا كلمة واحدة من الانكليزية بالدخول على هواهم والوصول إلى لندن دون أن يشتبه بأحد منهم . وقد أصدرت للشعبة الخامسة في الاستخبارات البريطانية الأوامر باتخاذ الاجراءآت اللازمة لاستجواب هؤلاء الأشخاص الثلاثة .

وفي هذه النقطة دخلت أنا في هذه القصة . .

وبعدها نقل الثلاثة إلى المدرسة الوطنية في كلافهام في شارع ترنتي من مركز شرطة كانن رود . ولا شك أن الشرطي المحقق تنفس الصعداء عندما شاهدهم يخرجون من المركز ليستمر في أعماله الاعتيادية وهي مراقبة المجرمين المعروفين في لندن .

وقبل إبداء إستجوابهم أخذت أدرسهم باعتناء عن كثب ، وكانوا مجموعة متباينة من الأشخاص . وكان الأول ، وهو أضعف الجميع شخصية ، لا يعدو كونه طفلاً مراهقاً ، وكانت خدوده لينة ومنخفضة ، وكانت نظراته موجهة إلى الأرض أكثر الوقت واستمر في عض شفته كما لو كان يكبت الدموع التي كانت في عينيه .

وكان الثاني من نوع آخر ، فكان ضخم الجثة أشبه بالمصارعين وكان قوي البنية ولكنه لم يكن متقد الفكر ، وكان يدور في نظره باستمرار على كل شيء في الغرفة وبدون إستقرار ، واعتقدت ساعتها أنه رجل عميق الحيلة ولكنه دون إبداع .

وكان الآخر بكل وضوح (الرئيس) . وبما أني صياد وأحد أصحاب حدائق الحيوانات في السابق ـ أيام السلم ـ وجدته أشبه بحيوان الغابة أول الأمر ، وكانت حركاته مرنة وسهلة عندما وقف أمامي ، وكان مخيفاً بسيطرته العضلية وضخامته ، وكان وجهه ممزقاً بضربات السكاكين والضربات الأخرى التي تحدث عادة نتيجة الضرب بالقناني المكسورة والتي أعتقد أنها أديرت في وجهه بوحشية ، وقد رفعت هذه الضربات شفته العليا وبدأ وكأنه مستمر الابتسامة ، وكانت هناك بعض الضربات الأخرى على جبهته . . وطيلة وقوفه أمامي كانت شخصيته طاغية على الآخرين . وكان الآخران خائفين منه بكل وضوح وكانا أكثر تأثراً منه ، ولم يشعرا بتأثيري الرسمي الذي واجهتهم به . وكان هذا السيد ماكي وهو الشخص الأخطر بين الثلاثة

ويجب مراقبته . وقد أخبرني باختصار عن قصة هروبهم من فرنسا ونزولهم إلى الشاطىء الشمالي الشرقي البريطاني والتي استمع لها الآخران معي وبكل شغف . ولم تكن هناك فرصة في عزل الرئيس عنهما لغرض أن يعبرا عن موضوعهما ، فقررت أن أنهي الاستجواب المشترك وأقوم باستجوابهم كل واحد على حده .

وقبل كل شيء أرسلت بطلب (الطفل) بين الثلاثة والذي لم يفتح فمه لحد هذه اللحظة . وقد بدا عليه القلق بكل وضوح عندما دخل الغرفة ، ولهذا تكلمت بين حين وآخر إلى الخلف فوق كتفه كما لو كان ماكي الجبار واقفاً خلفه ، ولكن قلقه أخذ يزول بالتدريج .

قلت بعد أن تكلمنا الفرنسية ، اللغة الوحيدة التي كان يتكلمها على ما يظهر : إن موضوع إستجوابك موضوع عابر ولكنني يجب أن أسألك بعض الأسئلة وأقول : إننا معجبون بجرأتك ومحاولتك الناجحة للهرب ، ونرغب معرفة تفاصيل أكثر عن هروبك فمثلاً ، في أي وقت من النهار نزلتم إلى الشاطىء : صباحاً ، ظهراً ، مساء ؟

ـ أظن أننا نزلنا الشاطىء فيما يقارب الثانية بعد الظهر يا سيدي .

ـ حسناً ، ما نوع القارب الذي إستخدمتموه ؟ هل كان شراعياً أم قارب جذف أم أنكم محظوظون ووجدتم قارباً بخارياً للهرب ؟

ـ كان قارباً شراعياً يا سيدي ، ولكنه كان ذا مجاذيف تستخدم عندما تنعدم الريح . صمت . . .

ـ والآن ، ما طبيعة النقطة التي نزلتم فيها : هل كانت منطقة صخرية أم أن الشاطىء هناك كان رملياً ؟

ـ كان الشاطىء رملياً قليل الانحدار . . سيدي .

ـ حسناً ، هذا جعل الأشياء أوضح . . لم يكن هناك صعوبة في نزولكم ولم يكن هناك خوف من الصخور على القارب ، أليس كذلك . . ولكن ما لون القارب ؟

قال متردداً : كان رمادياً . . سيدي .

ـ هذا كل ما أردت أن أعرفه . هل كانت أسئلتي مخيفة ؟

ـ كلا يا سيدي . وترك الغرفة بعد أن ابتسم إبتسامة خجلة .

بعد هذا جلست فترة من الوقت بطلب الرجل الضخم القوي صاحب العينين المتنقلتين .

اتبعت في الاستجواب الثاني نفس الخطوط . فبعد أن طلبت من زائري الجلوس والاعتذار منه بسبب توجيه بعض الأسئلة ، قلت ببساطة : حسناً ، هل تذكر الوقت الذي نزلتم فيه إلى الشاطىء ؟

تظاهر بمحاولة التذكر ، فالصق فكيه ووضع يده على حنكه وركز نظراته وتاهت تقاطيعه البعيدة عن اللطف ، ثم أشرق وجهه وكأن ذاكرته قد رجعت إليه وقال :

ـ كان الوقت على ما أظن ما يقارب التاسعة صباحاً . . سيدي ، وقد إعتمدنا على الشمس لأن الساعة الوحيدة التي كانت لدينا كسرت .

ـ شكراً ، والآن كيف حصلتم على وقود للقارب ؟ إن حصولكم على الوقود قد يدفع آخرين لخدعه الغستابو والهرب . . هل تعرف قصدي ؟ الرجاء إعطائي التفاصيل .

ـ نعم ، طبعاً ، سيدي ، إني مسرور لإمكاني معاونتك . لقد كان الموضوع بسيطاً ، فقد كان صديقي من برتني صياد سمك وأخفي عدة صفائح من الوقود في حديقته ، وقد أخرجناها ليلاً من تحت التراب .

ـ آه ، كانت مهارة كبيرة . والان كيف كانت طبيعة الساحل الذي نزلتموه؟

هل هناك شيء خاص به ؟ هل كانت هناك مرتفعات وصخور أم شواطىء إعتيادية ؟

ـ لم يكن الشاطىء سهلاً تماماً بل كان منحدراً قليلاً وكان علينا أن نتسلق على الأشجار والحشائش ، وكانت هناك مرتفعات من الرمل منتشرة على الضفة .

ماذا حدث للقارب ؟

ـ لقد تركناه إذ لم يكن هناك أمل في ربطه إلى الجرف . . سيدي .
ـ حسناً ، هذه جميع الأسئلة ، آه . . قبل أن تذهب : ماذا كان لون القارب ؟

ـ بني . . سيدي .

وشكرته وابتسمت له وأومأت له برأسي وخرج من الغرفة مهرولاً .
وقد أمرت بعزلهم لئلا يكون هناك مجال لديهم لمقارنة أجوبتهم .

جاء الثالث وقلت : إدخل سيد ماكي . . أجلس واشعر أنك في بيتك . وقد فعل ذلك ووضع رجلاً على الأخرى وجلس إلى الخلف وبدا وكأنه صاحب الدار .

قلت : عليّ أن أطلب منك الإجابة على بعض الأسئلة ، وهذا شيء إعتيادي كما تعلم بالنسبة للموظفين الذين يرسلون التقارير يميناً ويساراً. أومأ ماكي برأسه وكأنه عرف شيئاً عن الموظفين. . .

ـ حسناً ، ماذا كان وقت نزولكم الشاطىء الانكليزي ؟ عليّ ذكر هذا في تقريري كما تعلم .

ـ طبيعي . . (قالها ماكي ووضع أصبعه على إحدى ندبات خده) كانت الساعة تقرب السادسة بعد الظهر على ما أظن (صمت بعدها ثم قال) نعم حوالي ذلك الوقت ، وقد يكون ذلك قبل أو بعد السادسة بنصف ساعة .

ـ شكراً أعتقد أنكم نزلتم منطقة مزعجة من الساحل تكثر فيها الصخور وما إلى ذلك أليس كذلك ؟ هل كانت هناك صعوبات للوصول إلى الشاطىء ؟

ـ لم تكن ظروف نزولنا طيبة وقد بدت أحياناً غير مشجعة أبداً ، وكان القارب على وشك أن يتحطم على الصخور ولكن . . (وقفزت هنا علامات التعجب على وجه ماكي).

قاطعته وقلت : لكنكم وجدتم مخرجاً ؟

ـ نعم وجدنا مخرجاً لحسن الحظ حيث كان الماء هناك هادئاً وتمكنا بطريقة ما الوصول بالقارب إلى داخل ذلك المخرج وقفزنا إلى الساحل بسرعة ، ولكن القارب . . . (صمت ورفع كتفيه وخفضهما) . .

قلت : لا تقلق على القارب فهناك الكثير منه . إسمح لي برؤية يديك رجاء ؟

فعجب ماكي وقال : ماذا تعني ؟ ولكنه رفع راحتيه إليّ إلى الأعلى لأتفحصها .

هززت رأسي وقلت : إني لا أفهم هذا مطلقاً فقد أكد لي الاخران أن القارب لم يكن فيه شراع ولا محرك بل فيه مجذفتين فقط وأنكم جذفتم أربعة أيام بلياليها ، ومع هذا لا توجد أي كدمة على يديك . . إني لا أفهم هذا .

أخذ يفكر ماكي بسرعة وقال : قد يكون الموضوع غريباً عليك ، ولكن يمكنني أن أوضح الموضوع . امسك راحتي ، إنهما قويتان ولا تكدمان بسهولة ، مع هذا أنني لم أجدف وحدي . لقد جذفنا بالتناوب ولم يتعب أحدنا كلياً ، بالاضافة إلى ذلك كنا أكثر الأحيان نستفيد من التيار ولمدة ساعات دون وقوف . . هل تفهم قولي يا سيدي ؟

قلت : قد يكون هذا الشرح هو الصحيح ، ولكن ذلك غير مهم بل الذي لا أفهمه هو عدم تغييركم للون القارب . ألم تخافوا أن يراكم الألمان من

أميال ؟ فإن القارب الأحمر يكون واضحاً كالابهام بين أصابع السيد .

ـ نعم ، (اعترف ماكي) ، كانت بكل تأكيد مجازفة . وكان علينا أن نجتازها إذ لم يكن هناك وقت نضيعه في صبغ القارب ، بالاضافة إلى صعوبة الحصول على الصبغ بكمية كافية وبصورة سريعة .

قلت : لا تسألني ، لم أكن في يوم من الأيام صباغاً . .
قال : هل لديك سؤالاً آخراً يا سيدي ؟ إني دائماً في خدمتك . .

قلت : شكراً يا ماكي ، أنا أقدر ذلك . وهذا يكفيني الآن لنستدعي صديقيك إذ أرغب في التحدث لكم مجتمعاً .

وقد جاء الحرس ـ بعد بضعة دقائق ـ بالرجلين الآخرين ، وأمرتهم أن يجلسوا وأخذت أنظر إليهم الواحد بعد الآخر .

لم يجرأ الطفل من النظر إليّ : وقد نظر الرجل القوي إلى كل زاوية إلا عليّ . إلا أن الرئيس ماكي أرجع نظرته إليّ بكل برود ووقاحة .

قلت : حسناً ، إن أمامي ثلاثة كذابين ومجانين في نفس الوقت . لماذا حتى الأطفال الصغار يتأكدون من تطابق التفاصيل عند عدم ذهابهم إلى المدرسة وأنها تؤيد بعضها البعض ، ومع هذا تقومون أنتم الرجال الأقوياء المخادعون بأخطاء صبيانية واضحة . وأنت (مؤشراً إلى الطفل) تقول إنك نزلت إلى الساحل الانكليزي في الساعة الثانية بعد الظهر ، ولكني عندما أسألك (وهنا نظرت إلى الرجل ذي العينين المغربلة) يختلف لديك الوقت إختلاف غريب ويصبح التاسعة صباحاً . وأنت يا ماكي وصلت الساعة السادسة مساء . نفس القارب إلا أنه وصل الساحل بأوقات مختلفة . وهذا القارب العجيب لديه خاصية سحرية أخرى فيمكنه أن يغير لونه كالحرباء ، ففي وقت ما كان لونه رمادياً ثم أصبح بنياً ولما اقترحت أنه أحمر فاتح لم تصححني أنت يا ماكي . والشيء الأكثر غرابة هو أن القارب هذا يغير طريقة حركته ، فقد بدأ كقارب شراعي ولكنه في مكان ما في البحر حصل

على محرك لتستعملوا الوقود الذي حفرتم من أجله في حديقة دار صديقكم البريطاني . ومع هذا أنهيتم السفرة تجذفون حتى وإن لم يكن في يديك أي كدمة يا ماكي . ولو أن هناك رجلاً غبياً يمكنه أن يبتلع هذا الكذب السخيف إلا أنه لا يمكنه أن يصدق حكاية الساحل الذي تغير كلما إقترب أحدكم منه ، فإنه كما تقولون رملي منحدر وبعدها تكثر فيه تلال الرمل والأشجار تنبت عَليه من لا شيء ، وعندما يأتي دورك يا ماكي تظهر الصخور فجأة . أي نوع من المغفلين تعتقدون أمامكم أيها السادة ؟

لم يجب أحد ، وجلس الجميع هناك دون حركة .

هناك جواب واضح واحد (أردفت قائلاً) وهو لم يكن هناك أي قارب أو ساحل ، ومع ذلك وصلتم إلى إنكلترا وهذا أنا متأكد منه . ولم تصلوا هنا بالطريقة التي وصفتموها بغباء . والآن أريد الحقيقة : كيف وصلتم هنا ؟

ساد الصمت . . وأخذت أنظر من واحد إلى آخر ، ولكنهم جميعاً تجنبوا النظر إليّ . ثم تكلم ماكي وقال : إن قصته حقيقية في كل تفصيلاتها . ورفض أن يعترف بأنه كذب ، وقد قال أنه تكلم الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة . ويمكنني أن أصدق أو لا أصدق ، وقال : أنه لا يهتم بالأمر .

قلت : هنا يقع الخطأ يا صديقي . إن الموضوع يهمك كثيراً ، ورغم تأكيداتك فإنك تكذب وتعرف أنني أعرف أنك تكذب . وإذا كنتم رجالاً شرفاء ولاجئين حقيقيين لما قصصتم هذه القصة الوهمية الكاذبة التي أثبتت خداعكم . وإذا كنتم كذلك لماذا أتيتم هنا ؟

الجواب سهل وهو أنكم ثلاثة جواسيس . وهل تعلموا ماذا نعمل للجواسيس ؟ في الصباح الباكر وبعد الفطور ، إن تمكنوا الصمود ، نأخذهم إلى ميدان الرمي مشياً على الأقدام ونضع في أعناقهم الحبال ونشنقهم .

ثم نظرت إلى وجوههم ثانية ونظرت إلى رقابهم ، ولم يتكلم أحد منهم بكلمة . وهنا نظر الآخران إلى ماكي بحقد وبلل الطفل شفتيه ولكن لم يتكلم

أحد منهما وكانا على ما يظهر أكثر خوفاً من ماكي بالنسبة إلى فكرة الشنق كجواسيس . ولكن الوقت والفرصة في إعادة التفكير قد تغير رأيهم ، فأشرت إلى الحرس ليأخذهم بعيداً .

يقال عن الملاكمين أن أكبرهم أشدهم سقوطاً . وتجربتي في التحقيق أن الشخص الضخم أسرع الناس إلى الانهيار تحت التهديد . والقشرة الخارجية للشخص القوي غالباً ما تكون هشة أكثر مما هي عليه عند الناعم ، وبهذا قررت أن أركز على ماكي .

قررت نقله إلى مكان أكثر صرامة وأقرب إلى الحياة العسكرية وكان ذلك في جلنسي . وقد إستمر إستجوابه مرة بعد أخرى وأسمع الأدلة في الافادات الثلاث المختلفة . وكان يحذر من مصير الجواسيس الذين يمسكون أثناء الحرب . ولكنه لم يكترث مطلقاً وكان يردد الحقيقة المزعومة وهي إن ما قاله كان الشيء الصحيح ، ويقول : كيف يمكنني أن أغير رأي من لا يصدقني ؟ وإن الذنب ذنبنا وليس ذنبه .

والحقيقة أن زملاءه قصوا قصصاً تختلف عن قصته لأنهما من المجانين . . وإننا بكل تأكيد نعرف ذلك . وبسبب ضعف ذاكرتهم وكونهم تواقين للمساعدة قالوا ما لا يتذكرونه فعلاً . ويمكن لأي شخص أن يخدع هؤلاء ، وما علينا إلا أن نستجوبهم ثانية فقد تحسنت ذاكرتهم الآن .

وقد أخذت بقول ماكي واستجوبت الاثنين بنفسي . وكان من الأفضل عدم اتعاب نفسي ، لقد ذكرا في هذه المرة كل ما قاله ماكي . لقد قالا أنهما أخطأ في كل ما قالاه وذلك بسبب التعب الذي عانياه أثناء السفر ، وقد أصبح لديهم الوقت الكافي الآن لاستعادة الذكرى ، وإن ما قاله ماكي هو الصواب وإنهما كانا على خطأ لم يكن للقارب شراع أو محرك وهكذا ...

والذي حصلت عليه من هذا الاستجواب هو البرهان على أن كلا منهما يخاف ماكي أكثر مما يخافان الموت ، وأنهما يغامران حتى بزنزانة الاعدام

لغرض تأييد قصته . واقتنعت أن هؤلاء ليسوا بجواسيس ، ففي تجربتي في مكافحة الجاسوسية خلال ثلاثين سنة لم ألق مثل هذين الشخصين. وأول الأشياء أنهما لا يتصفان بصفات الجواسيس الأولى ، وهي العبقرية والذكاء . وقد يخطأ الألمان إلا أنهم في منتهى الدقة في تجارتهم . وفي هذه المرحلة من الحرب لا يمكنهم إلقاء إثنين من الهواة في بلد يريدون غزوه . وإن أول الأشياء التي يقوم بها الجواسيس هي جعل قصصهم متطابقة في التفاصيل وأن يتفقوا عليها ويتمسكوا بها .

قد يكون ماكي جاسوساً محترفاً ، ولكني أجزم بأن صديقيه لا يمكن أن يكونا جاسوسين . ومع هذا كيف يمكن تفسير إجتماع هؤلاء الثلاثة الذين لم يتكلموا الانكليزية على ما يظهر ولأي غرض ؟

لقد مضى كثير من الوقت والمسؤولون يريدون نتائج سريعة ، وقد جربت كافة الوسائل المألوفة . وفي هذا الموضوع غير المألوف فشلت جميع تلك الوسائل تماماً ، إلا أني كنت مقتنعاً أن ماكي هو رئيس الخلية ، وإني على صواب عندما ركزت جهدي عليه . إن ماكي (بلبلي) بكل تأكيد ولكن المسألة هي كيف يمكنني أن أجعله يغرد ؟

وخطرت لي فكرة غير إعتيادية . وكانت على ما يظهر الطريقة الوحيدة التي قد تجعله يتكلم دون اللجوء إلى التعذيب الجسماني ، وإن كنت لا أرغب في إستخدام التعذيب الجسماني إلا أنني أجيزه في مثل هذا الموضوع . وقد تضمنت الفكرة الحصول على موافقة الضباط الآخرين ومساهمتهم في التنفيذ معي . ويرغب ضابط الأمن دائماً بالشيء الجديد ، وعندما تكلمت مع ضابط الأمن في مركزنا أخذ يحث الآخرين في المساهمة بالموضوع . وتم إقناع الآمر من قبل ضابط الأمن ، وقد إقتنع الآمر مع شيء من التردد .

وأول خطوة كانت نقل ماكي إلى زنزانة مظلمة لوحده ، وبعد قضائه ليلة ونهار هناك جاء به الحرس إلى غرفة كبيرة ووقف أمام منضدة مغطاة

بقماش أخضر ، وجلس خلف المنضدة ثلاثة من ضباط المؤسسة بزيهم العسكري وقد لمّعوا شاراتهم وانطقتهم ووضعوا مسدساتهم أمامهم . وكنت الضابط الذي ترأس المحكمة فجلست بين الاثنين .

كان هذا المنظر مؤثراً جداً خاصة بالنسبة لشخص أمضى أربع وعشرين ساعة في غرفة مظلمة وبصحبة أفكاره فقط . وقد رمشت عينا ماكي أثناء وقوفه بين الحرس ، وقد ساد الصمت دقيقة أو دقيقتين لاعطائه الوقت الكافي ليشعر برهبة الموقف ، بعد هذا تمزقت مشاعره وضاع .

قلت : أيها السجين ، أين قضيت الأربع والعشرين ساعة الماضية ؟ (وكان إستجوابي له هذا بالفرنسية) . .

قال : نعم سيدي في زنزانة مظلمة . .
قلت : هل تعرف نوع هذه الزنزانة ؟
قال : لا يا سيدي (وقد بدت عليه علامات العجب والتردد) .
قلت : إنها زنزانة الاعدام ، والرجل الذي يدخلها قد وصل المرحلة الأخيرة قبل سفرة الموت .

توقفت عن الكلام ، وساد الصمت في الغرفة إلا من أنفاسه ، ولكنه لم يفقد شجاعته برغم سرعة تلاحق أنفاسه .

قلت : يا أيها السجين . . لقد قبض عليك في لندن وأعطيت كل فرصة لتخبر السلطة بحقيقتك . وقد أعطيتنا قصة الديك والثور ولم تتعاون معنا . وقد كانت قصتك كاذبة بتفصيلاتها وبشهادة زميليك . وبرغم الأدلة ضدك أيها السجين تستمر في الكذب . وهناك شرح واحد لكذبك المستمر هذا : إنك قد أرسلت من قبل العدو كجاسوس أو رتل خامس ، وأثناء الحرب هذه الجرائم عقابها الموت .

وأنت الآن أمام محكمة نظمت لمحاكمتك وحدك . وقد إتفقت المحكمة على رأي مشترك وهو إنك (مجرم) ، وهناك حكم واحد يمكن أن يصدر

بحقك وهو الموت شنقاً . ورغم موقفك وكذبك الواضح إننا مستعدون إعطائك فرصة أخيرة .

وهنا رفعت ساعتي ووضعتها على القماش الأخضر أمامي على المنضدة وقلت : لديك دقيقتين فقط تقرر فيها بين الموت والكذب على شفتيك أو أن تخبرنا الحقيقة . فكّر في هذا جيداً فهذه فرصتك الأخيرة ، وبعد دقيقتين من الآن سينتهي وقتك .

وقد ساد الصمت والهدوء في الغرفة إلا من دقات الساعة المجردة . وحملت الثواني ماكي أقرب إلى حتفه وهي تمر واحدة بعد الأخرى . وأخذ ماكي ينظر إلى الأرض كما لو كان متعمداً السيطرة على أنفاسه . وقد ترشحت الأصوات الآتية من الخارج إلى داخل الغرفة وأدخلت الاعتيادية إلى هذا الموقف الغريب . وهنا أكملت عجلة الثواني دورة واحدة ولم يتحرك ماكي ولا يشير وضعه بأي حال من الأحوال إلى أنه فقد أعصابه . وفي هذه الأثناء إستعد أحد الحرس ، وكانت تلك الرفسة أشبه بطلقة المسدس في ذلك الهدوء .

إنتهت الدقيقتان ونظرت إلى الساعة ورفعتها وقلت : أيها السجين في القفص هل لديك أمراً تقوله ؟

نظر إليّ ماكي في العين وقال : لا شيء .

- هل هذا جوابك النهائي ؟

قال : نعم .

وقفت على قدمي ووقف معي الضابطان وقلت : لقد جلبت موتك بيدك على نفسك ، سأصدر الحكم عليك الآن .

ومغطياً رأسي بقطعة من القماش الأسود السلكي تكلمت الكلمات التي يسمعها كل شخص يحكم بالموت بمحكمة انكليزية ، قلت : لقد صدر الحكم بحقك أن تؤخذ من هذا المكان إلى سجن قانوني ثم إلى مكان

الاعدام ، وإنك ستلاقي هناك الموت شنقاً ويدفن جسمك بعد ذلك قرب ذلك السجن الذي كنت فيه قبل الاعدام . . . . ولعل الله يرحمك .

جلست ونظرت إلى ماكي وانتظرت برهة متوقعاً منه أن ينهار ، ولكنه لم يحرك ساكن ، وأخذ ينظر إلى الأرض . . بعدها أمرت الحرس أخذه خارجاً . وملكني الشك في أنه إنتبه إلى التمثيلية التي رتبناها من أجله . وقبل أن يغلق الباب خلفه وحيث لا زالت الأقدام تسمع في الخارج تنفس الصعداء الضابطان اللذان بجانبي وخف التوتر .

ساد بعد هذا صمت مخجل بالنسبة لي ، وبعد برهة تنحنح أحد الضابطين وقال ما كان متوقعاً : حسناً ماذا نفعل بعد هذا ؟

وكنت عادة أسيطر على مشاعري ببعض النجاح ، ولكني في هذا الموقف شعرت بصعود الحيرة إلى رقبتي ومنها إلى وجنتي وفشلت في فرضيتي الذكية غير الاعتيادية فشلاً كاملاً . ولم يخف ماكي ولم ينهار وكان مؤدباً لدرجة أنه لم يهزأ أو يضحك عالياً على التمثيلية التي مثلناها . وقد تكون هذه هي المتعة الوحيدة التي أنتشلتها من بين حطام أملي . لقد غلبنا جميعاً وأنا أكثر الجميع مسؤولية عن هذه الفكرة الغبية . وتمكنت من جمع شملي وقلت : سادتي ، هل يمكننا أن ننتظر لحظة ؟ فهناك مجال لاعادة السجين النظر في قراره (وهنا فقد صوتي وشعرت بالنظرات حولي تنصب على وجهي المفجوع) .

عندها سمعنا دقة على الباب . . بعدها فتح الباب ودخل أحد الحرس وقال محيياً : سيدي ، يريد السجين أن يعرف إذا كان بإمكانه أن يكلمك ؟

هنا إبتعلت الابتسامة التي كانت على شفتي وحاولت إخفاء نبرة : (قلت لكم ذلك) من صوتي . .

أجبت الحارس : حسناً ، أدخله . .

ماكي ادخل الغرفة .

سألته بشدة : ماذا تريد ؟

عرضت نصف إبتسامته التي أطلت من تحت شفته الممزقة وقذف بمفاجأة أخرى في هذا اليوم المليء بالمفاجئات . قال : حسناً سيدي ، الأفضل أن أكون نظيفاً .

وقد قابلت الصدمة باسترخائي إلى الخلف ، فقد تكلم الانكليزية بطلاقة ، تلك اللغة التي إدعى عدم معرفتها ، وكانت لهجته ومصطلحاته من عبر الأطلسي بكل وضوح .

قلت : نعم ، من الأفضل أن تكون نظيفاً . . إنك كندي أليس كذلك ؟

ـ نعم سيدي ، كندي فرنسي . .

وقد تبين أن ماكي وصديقيه فروا من القوات الكندية المعسكرة في بريطانيا ، ولكن هذا لا يكفي . ولا يمكن ترك موضوعهم في هذه النقطة لأنهم جاءوا بمشكلة جديدة .

وقبل أن يتمكن ماكي من السيطرة على أعصابه إستجوبته إستجواباً طويلاً آخراً ، وكان غرضي توضيح نقطتين خاصة ، النقطة الأولى : هي الأسباب التي دفعته إلى العناد في كذبه لدرجه أوصلته إلى (الموت) . والنقطة الثانية : هي ماذا حدث لبدلته العسكرية ودفتر راتبه الذي يعتبر هوية الجندي الاعتيادية بالنسبة للجندي الكندي ؟ وكيف تمكنوا من العيش بعد أن تركوا المعسكر وكيف تمكنوا من قضاء الوقت وكيف حصلوا على الدراهم التي صرفوها ؟

الجواب للمشكلة الأولى كان معقولاً ، لأن ماكي فر من الخدمة للمرة الثامنة ، وقد أنذر أنه إذا كرر مثل هذا العمل فإنه سيسجن سنتين في بيت الزجاج في الدرشوت ، وقد أخاف هذا السجن جميع الجنود بسبب أو بدون سبب ، وبهذا كان على ماكي أن يكذب الدرجة التي وجد أنه قد يعاني الأمر الأمّر .

أما من ناحية الراتب ودفتره والبدلة العسكرية فقد قال : أنه أحرق

الدفتر ، والبدلة العسكرية أبدلها ببدلة مدنية في سوهو ، وحصل على بعض النقود كذلك عوضاً عن بدلته العسكرية المستهلكة ، ولم يعرف ذلك الشخص الذي إشتراها أو سبب رغبته في ذلك .

وهنا إزداد شكي ولم أصدق القول أنه حرق دفتر الراتب . وقد يلقي الهارب دفتر راتبه إذا كان راكضاً ، ولكنه يكون محرجاً من ناحية إثبات هويته إذا أوقف أو إستجوب . ثم إن الحرق إجراء دقيق لأتلاف شيء ليس دليلاً على سوء لدرجة ضرورة إتلافه . والشيء الأقرب إلى الواقع هو أن ماكي وصديقيه باعوا دفاتر رواتبهم مع بدلاتهم العسكرية ، والمشتري الوحيد لمثل هذه الأشياء ليس تاجراً للملابس المستعملة ولكنه ـ على الأكثر ـ من منظمي الرتل الخامس . ففي أية لحظة قد يبدأ هتلر الإنزال في إنكلترا ، وقد إتبعت هذه الطريقة في فرنسا وبلجيكا وهولندا .

وقد يستعمل الرتل الخامس في نشر الرعب والفوضى بعد قصف (الستوكا) وذلك بنشر الاشاعات الكاذبة ، بالاضافة إلى تحطيم منظومة النقل العسكري وذلك بوقوف شخصين أو ثلاثة على مفترق الطرق في اللحظات الحاسمة وتوجيه الأرتال العسكرية بالاتجاهات المغلوطة . أو يتمكنوا من إقناع الآهلين بإخلاء دورهم ، وبذلك يربكون حركة المرور العسكرية . . وقد كانت أكثر القوات الكندية معسكرة في جنوب غربي إنكلترا وهي المنطقة الأكثر إحتمالاً للإنزال .

تساءلت : إذن فيما إذا كان هذا هو السبب في الرغبة بشراء البدلات العسكرية الكندية ، وإذا كان كذلك . . فمن هو المشتري ؟

لقد إستجوبت الفارين الآخرين ولكنهما ـ وإن كانا قد فطنا إلى التفصيلات التي عرفتها وإن ماكي قد إعترف ـ لم يزيدا على قصة ماكي ، فكان من الواضح أن ماكي هو رئيس الخلية وإنهما تبعاه مغمضي العيون . . إلا أنهما قالا أن دفاتر الراتب أعطوها مع البدلات العسكرية وإنها لم تحرق . وعند هذا الحد وبعد إستنفاد فائدتهم اليسيرة جعلتهم يستسلمون إلى

سلطاتهم العسكرية . وطلبت إجازة لماكي لغرض أن يوقف في الشعبة الخامسة العسكرية لأجل استفسارات أخرى ، وقد وافقت السلطات الكندية فوراً على ذلك الطلب ونشرت وزارة الداخلية الايضاحات حول ما يسمى بالانزالات والتي أقلقت العقول في بريطانيا .

وقد كانت المشكلة الثانية في إعتراف ماكي هي وجوب القضاء على منظمة الرتل الخامس إن كانت هناك منظمة وبأسرع وقت . . وهذا كان خارج نطاق مهمتي . فذهبت إلى سكوتلند يارد وقابلت أحد المحققين في الشعبة الخاصة ، وقد كان وجلاً من هواة الاستخبارات العسكرية أول الأمر ، وقد تضايق من القول أن هناك أشياء تحدث في سوهو ، المركز العصبي للجرائم في لندن ، دون أن يعلم به . وقد تحدثنا في الأمر طويلاً وفي النهاية كان ذلك الموظف القدير متواضعاً فوعدني بتنفيذ طلبي ، وهو تزويدي بسيارتين وعصبة مختارة من شرطة الأمن لمدة ثلاثة أسابيع . وقد أطلق على هذه العملية اسم « عمليات الليل في سوهو » .

بعدها إستجوبت ماكي عدة مرات ، وقد إعترف لي أنه كذب علي كذبة أخرى عندما أخبرني أنه حرق دفتر راتبه وذلك عندما واجهته باعتراف زميليه . وقد أصبح أكثر تعاوناً بالتدريج بعد أن وعدته أنه سيحصل على عقوبة أقل إذا تعاون معنا فأخذ يحاول كل ما في إستطاعته من أجل ذلك ، ولكنه قال أنه يعرف الوسيط الذي باعه البدلة العسكرية فقد شاهده مرة أو مرتين . لقد كانت الطرق مملوءة والمشارب مكتظة بالناس الغرباء وليس من السهل وصف ذلك الوسيط كما قال ماكي .

ولكن الشيء الغريب إنني أخذت أستلطف ماكي بالرغم من مظهره الممزق وكذبه الكثير وخداعه البارد ، وقد كانت لديه قابلية جيدة على النكتة عجبت بها . وقد إستمتعت بأحاديثي معه إلا أننا عرفنا أن هذه الأحاديث لم تقدم شيئاً في الموضوع . وقد تبين أن الفائدة من ماكي إستنفدت وكلما مر يوم دون نتيجة عرفت أن علي أن أبحث عن آخر ، وقد عرف بما أنه لا يتمكن

من مساعدتي فالأفضل أن يقدم بعض النكت . وفي أحد أيام الاستجواب وضع يده في جيبه وأخرج شفرة حلاقة ، وقبل أن أتمكن من إيقافه وضعها بكل هدوء في فمه وعلكها بدون أي إهتمام ثم إبتلعها وفتح فمه منتصراً ليتبين لي أن ليس في ذلك خدعة . بالاضافة إلى هذا العمل الغريب أخرج قطعة من الزجاج من جيبه ووضعها في فمه وسحقها بكل برود بين أسنانه . إلا أنني قد سمعت عن أكلة من هذا النوع ، إلا أنني لم أر أحداً عن كثب ، وكنت أتوقع أن يسيل الدم من شفتيه ولكنه سحق هذه الأشياء على ما يظهر بدون أي إهتمام وبسرور .

قلت : بحق إبليس ماذا تعني بهذا يا وحش ؟

قال : هذه تمثيلية كنت أكسب بها قوتي . .

صرخت قائلاً : قوتك ؟ . . أتأكل الزجاج من أجل قوتك ؟

ـ نعم بكل تأكيد ، فليس هناك سوق من أسواق اللهو في كندا أو الولايات المتحدة لم يشاهدني الناس فيها . . وينفر جميع الناس عندما أبدأ بروتيني ، وهذه هي الطريقة التي كسبنا فيها العيش في لندن بعد هروبنا .

ضحكت وعرفت فجأة كيف يمكن أن يكون ماكي ذا فائدة . . وإن أسم ماكي الغريب مختصر من الوصف الفرنسي للطاحونة .

وخطتي لماكي كانت بسيطة وهي أن أذهب برفقته إلى بارات سوهو أثناء الليل ويقوم هو بتمثيلية من هذا النوع في الوقت والمكان الضروريين ، وتقف على بعد مجموعة من شرطة الأمن لأن أكثر الناس يعرفونهم ، ولم أرغب أن يكون وجودهم ذا علاقة بوجودنا . . وسنجد صديق ماكي مهما طال الوقت .

أخبرت ماكي بالخطة ، وسألته إن كان بإمكانه أن يكون كلب الصيد . . فأجاب أنه بكل تأكيد كلب للصيد ، وأنه يفعل أي شيء لغرض الخلاص من هذا القبر . . وقال لي : من يدفع أجرة النقل وثمن الشرب؟ ، قلت : حكومة جلالة الملك وعليك أن لا تعتقد أن هذا الأمر لهو بل أنه

عمل ، وإذا حاولت الهروب فإنك تقضي باقي أيامك في بيت الزجاج . . هل تفهم هذا ؟ . وفهم ماكي هذا جيداً .

لم نحصل على نتيجة في الليلة الأولى ، فبعد وصولنا إلى سوهو أخذت صفارات الانذار تنذر بالقصف . وبعد دقائق كنا نسمع وصول أسراب القاصفات الألمانية فوق رؤوسنا ونرى الأنوار الكاشفة تتجه نحو السماء الحالكة الظلمة ، ثم نسمع دوي المدافع المختلط بصفير القنابل المتساقطة كما لو أن السماء تمطر بالحديد . وقد هجر الناس شوارع سوهو وذهبوا إلى مخابىء الغارات ، وبعد ساعات عديدة من البحث غير المجدي قررت أن أترك الصيد تلك الليلة .

وقد جوبهنا في الليلة الثانية أيضاً بالقصف حال وصولنا منطقة الصيد ، ولكن لحسن الحظ لم يستمر القصف طويلاً . وقد كنا نهرب من ظلام الشوارع وندخل بار تلو الآخر وعيوننا تدمع بسبب رائحة البيرة ودخان السكاير الذي تكاثف بسبب غلق الأبواب والنوافذ والستائر الثقيلة التي كانت موضوعة عادة في كل باب . وكنا ، أنا وماكي ، نجد طريقنا بصعوبة إلى المشرب ونطلب نصف زجاجة من ذلك الشراب الذي يطلق عليه الانكليز اسم البيرة . وهناك نجد أنفسنا أمام لغات ولهجات مختلفة تصم أذاننا . وهنا ينظر ماكي بكل حذر فوق نظارته ويحاول رؤية (صديقه) بين الرجال المختلفين بالأحجام والأطوال والألوان ، الذين ملئوا الصالة . وغالباً ما يهز رأسه ، وبعد دقائق قليلة من الكلام الفارغ نجد طريقنا إلى الخارج وندخل الشوارع المظلمة لنبحث عن مشرب آخر بعد أن نعطي الشرطة السرية الوقت الكافي ليلحقوا بنا ونبدأ نفس الروتين .

وقد كانت الساعة متأخرة ليلاً وكان نجاحنا صفراً ، وكنت على وشك أن أفقد صبري بعدما مللت من جو البارات الثقيل وداهمني سوء الهضم بسبب كثرة شرب البيرة ، وبدأت أفكر فيما إذا كانت فكرتي هذه ستنتهي بمطاردة الوز البري بالاضافة إلى عدم معرفتنا مكان تلك الوزة بالتحديد . .

وقد اشتقت إلى فراش نظيف ووسادة ناعمة . وفي الوقت الذي فكرت فيه إنهاء هذا الصيد غير المجدي لليلة ثانية طرق الحظ بابنا .

لقد دخلنا أنا وماكي مشرباً في شارلوت رود ، وكان هذا المشرب أقل إزدحاماً من المشارب التي زرناها ، وأثناء تقدمنا نحو البار لاحظت تبادل النظرات بين شاب وسخ وماكي ، وقد كان ذلك الشاب منحنياً على البار . . فقلت في نفسي إن هذا كل شيء .

أفرغ الشاب بعدها كأسه وبدون أن ينظر ثانية إلى ماكي إتجه نحو الباب . . فأشرت لأحد الشرطة السرية أن يتبعه وأخذت ماكي جانباً وقلت : حسناً أنه صاحبك أليس كذلك ؟

أومأ عندها ماكي برأسه معترفاً .

- لماذا لم تقل لي ذلك بحق إبليس أو أن تذهب وتتكلم معه ؟ هل تحاول خدعي ؟

ولأول مرة بعد صداقتنا - أنا وماكي - بدت عليه الحيرة ، وقد هم بكلمة (خيانة) عرفت بعدها الدرجة التي إرتبط ماكي بعرف الدنيا الخفية ، وقد ذابت أفضل النوايا عندما واجه ماكي الرجل الذي يبحث عنه .

لم تكن هذه الصدفة عديمة الفائدة ، فقد رجع السري آخر الليل بكثير من المعلومات ، وقد تبين أن الوسيط (خلفه) عند أحد الخياطين . . ولم يكن ذلك الخياط من أصل بريطاني بل كان فرنسي الأصل . . ولم تكن له سابقة في الاجرام ولم يكن هناك أي شك في أنه كان يوماً ما مواطناً غير صالح . وكان الموضوع مصادفه في أن يكون مشتري البدلات العسكرية يقتات على تفصيل الملابس ، وقد قبضنا عليه واستجوبناه . وقد إنهار واعترف وأعطانا عنوان الحلقة الثانية في السلسلة .

والشخص الثاني يسمي نفسه مدرب تربية بدنية ، وبعد الضغط عليه أعطانا معلومات لم تكن تربوية ولا بدنية في طبيعتها ولكنها كانت مهمة . فقد

أعطانا عنوان في روملي رود في سوهو عند سماع السريين له عرفوه وكان صاحب ذلك العنوان مجرم معروف بلقب (شر سوهو) وكان هذا متهماً بأكثر من ثلاثين جريمة من جرائم الاحتيال إلى السرقة بالعنف . وقد أصبحت القصة مثيرة في النهاية .

وفي الليلة التالية ذهبنا إلى ذلك العنوان ووصلنا الشقة في الطابق الثالث في أحد بنايات شارع روملي ، ولم يجب أحد عند ضغطنا على جرس الباب ولم يكن هناك أي جواب بعد طرقنا الباب . وحاولنا فتح الباب إلا أنه كان مغلقاً .

قلنا : هناك حل واحد للموضوع وهو أن ندخل عنوة .

ولم يكن أمر فتح باب مغلق أمراً صعباً بالنسبة إلى الشرطة المدربين ، ولكن كان مجرد عمل صبيان . وفي لحظات فتح الباب باقتلاعه من مفاصله ، واندفعنا إلى الداخل . وقد كان كل شيء هادئاً في الشقة وكانت مهجورة حتى وصلنا غرفة النوم حيث وجدنا امرأة نائمة في فراش مزدوج كبير ، وفي تنفسها ضيق وكان واضحاً أنها مخمورة وأنها ستبقى على هذا الحال ساعات قبل أن تستفيق . وقد قال أحد الشرطة مهمهماً : لقد رأيتها سابقاً ، إنها عشيقة الشر وهي مدمنة معروفة .

وقد كانت الوسادة التي إلى جانبها ساخنة ، وكان الشرشف أيضاً دافئاً فعرفت أن هناك شخصاً كان إلى جانبها قبل لحظات . وقد فتشنا الشقة ولم يبق سوى السقف ، وهناك وجدنا الشر مقرفصاً خلف المدخنة ، وكان يرتجف من البرد : لابساً بجامة خفيفة ، وقد استسلم من أول إنذار . وقد كان شر سوهو فزعاً ولم يفزعنا عندما ألقينا القبض عليه .

وقد فتشنا الشقة أثناء إرتدائه ملابسه فوجدنا فيها كمية كبيرة من الكوكايين وكتب ومجلات وصور كثيرة فاضحة وبعيدة عن الشرف والآداب . ولم نجد إشارة واحدة عن البدلات العسكرية أو دفاتر الراتب . ولكن عندما

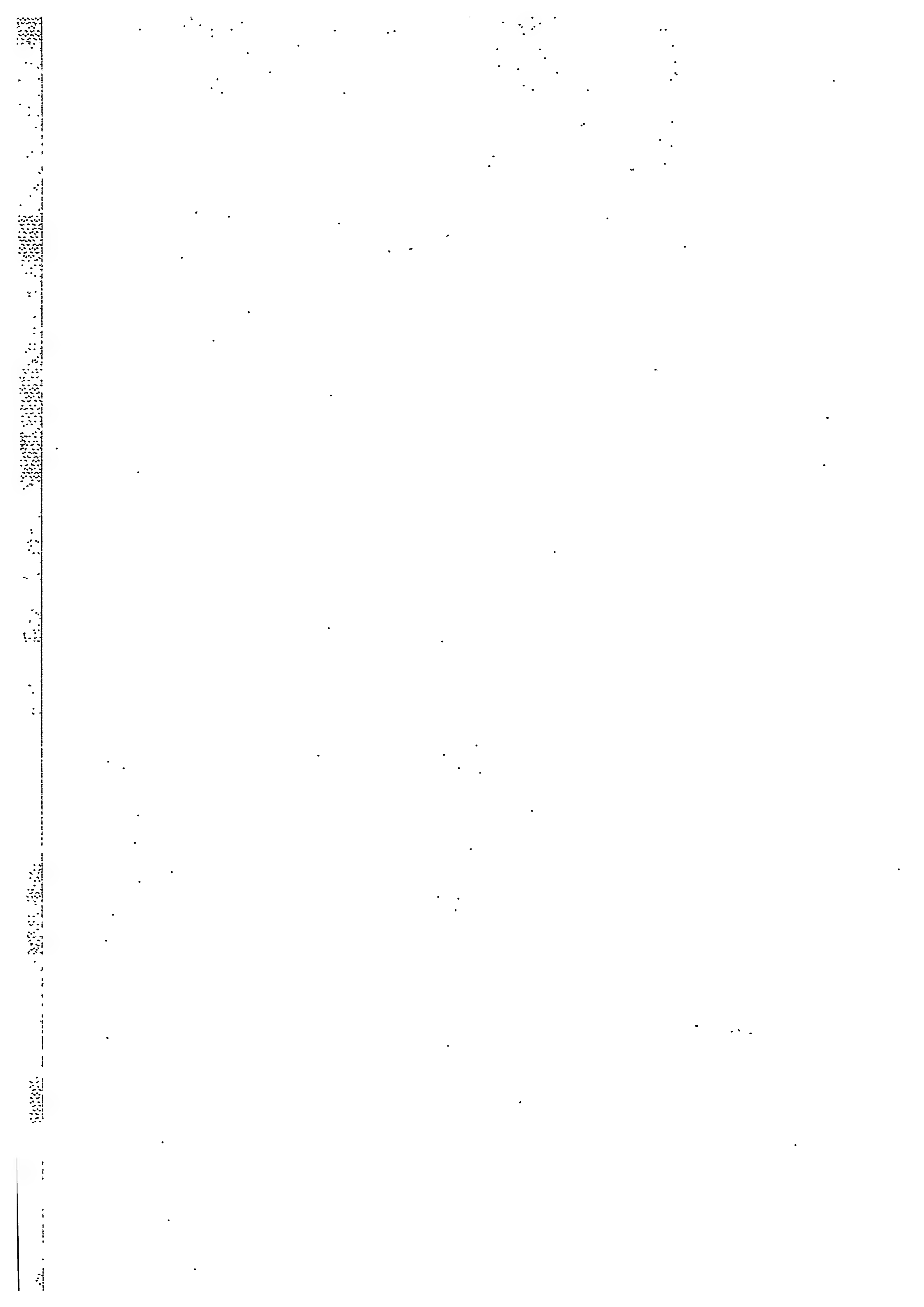
جيء بالشر إلى مكتبي هددته بأن الأشياء التي ضبطت معه كافية لادانته وأيداعه السجن لعدة سنوات . . إنهار واعترف . ولم يكن هناك عرف يربطه إلى الدنيا الخفية ذلك العرف الذي ربط ماكي الليلة الماضية . وبعد مدة قصيرة إتضح لي بمرارة أن هذا الرجل الكبير يمكنه خيانة والدته لغرض أن يحافظ على جلده . لقد عرفنا الشر بقادة خلايا ذلك التنظيم التجاري لشراء البدلات العسكرية وأين نجدهم ونجد محلاتهم . . وقد نقلت تلك المعلومات إلى سكوتلنديارد . وقبل حلول النهار قبض على كافة قادة الخلايا ، وقد وقعت هذه التجارة بالافلاس بصورة مفاجئة .

وأهم ما حصلت عليه من المعلومات من الشر هو السبب في التجارة بالبدلات العسكرية ، فلم يكن هناك رتل خامس في الموضوع ، وقد عرفت أن المجرم العادي في سوهو لا يفكر إلا بالأمن والمنفعة الشخصية وليس لديه التعصب أو الوطنية المقلوبة التي تؤدي به إلى خيانة بلده . وقد كانت الحاجة إلى الملابس العسكرية ناشئة عن أن منطقة سوهو لا يدخلها الانضباط إلا نادراً وهناك كثير من الشباب الذين هم في سن الخدمة العسكرية ويرغبون تجنبها بدفع مبالغ كبيرة لأجل الحصول على البدلات العسكرية والهويات التي تمكنهم أن يدخلوا الجيش دون اللجوء إلى الفحوص الطبية والقسم ومعسكرات التدريب . والذي يرتدي الملابس العسكرية لا يتعرض إلى مراقبة الشرطة الذين يبحثون عادة عن الفارين بالزي المدني ولا يتعرضون إلى (الأبطال) بالزي العسكري والذين كما يبدو يتمتعون بإجازة يستحقونها .

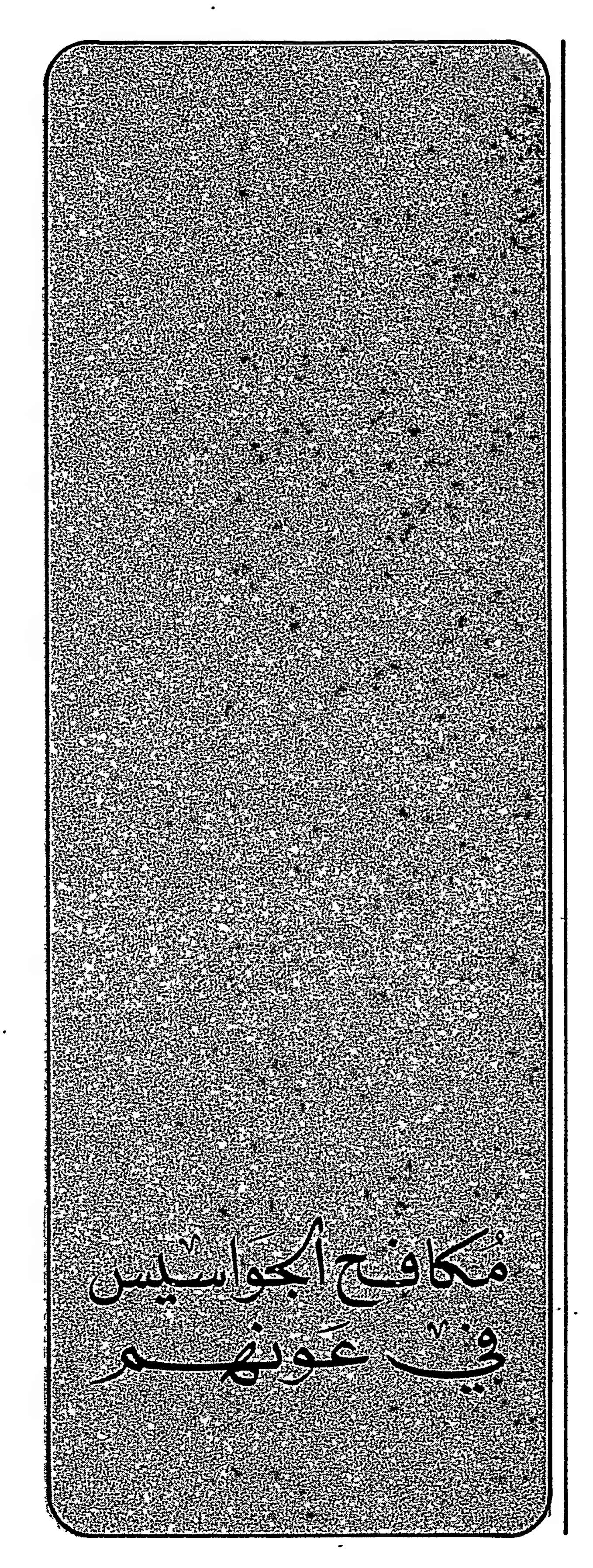
وعندما حوصرت العصابة التي تشتري وتبيع الألبسة العسكرية والهويات وجهت سكوتلنديارد فعالياتها إلى القبض على مئات الفارين بدون زي عسكري وعلى الآخرين بالزي العسكري . وقد إستمر الضيد هذا بمعونة الانضباط العسكري لعدة أشهر وكان موفقاً على الأغلب .

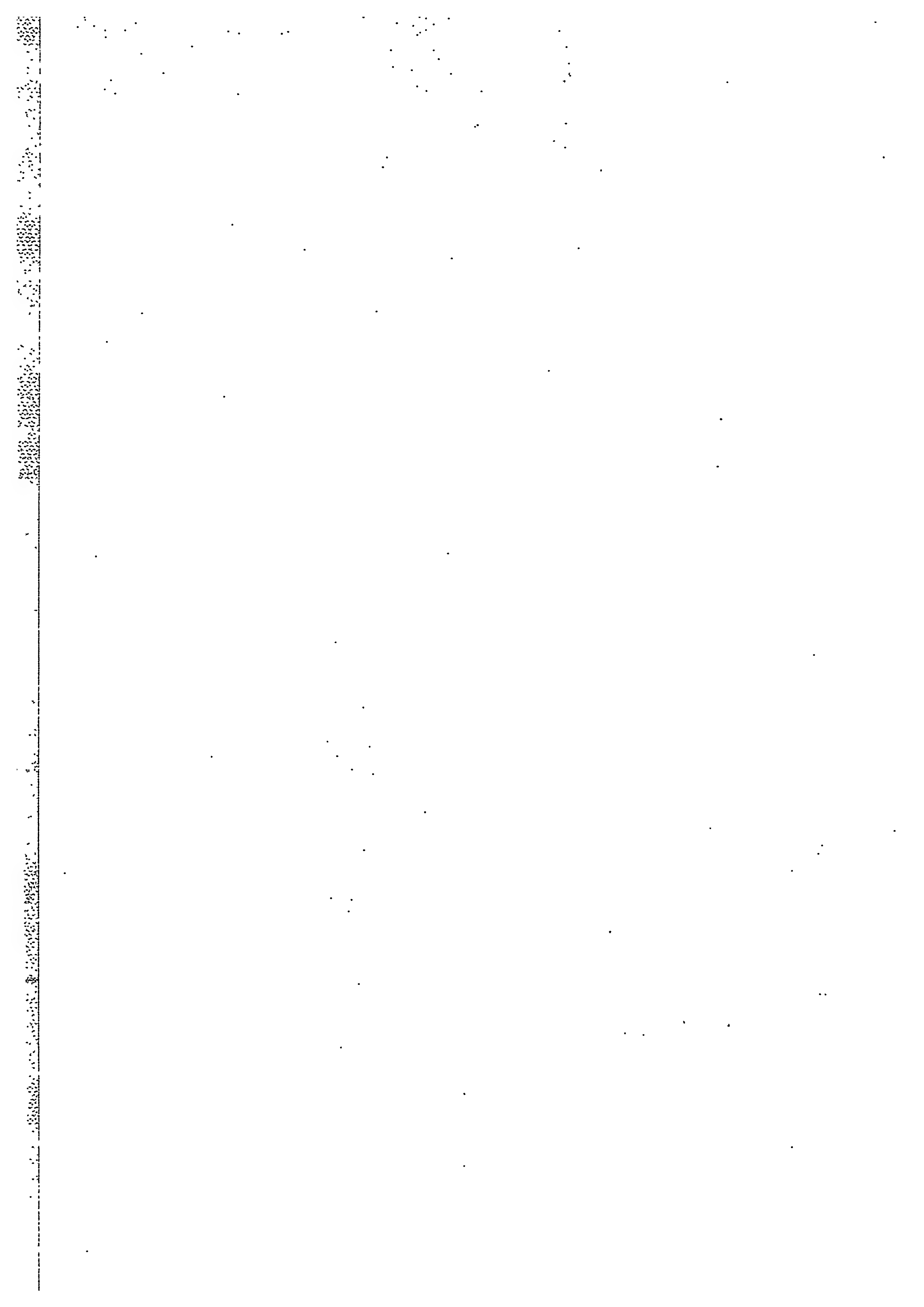
لم أر ماكي ثانية بعد أن سلم إلى السلطات العسكرية الكندية ، ولو أنه أنهى خدمته لتمكن من العمل بنجاح . لقد كان شجاعاً وشغولاً أثناء السلم

وزميلاً جيداً إن كان هناك قتـال . أما الشـر الذي عـرفته فكـان مفيداً أيضـاً ولكن ليس بالطريقة التي يحتاج فيها إلى جرأة . وقد إستخدمته مخبراً وحصلت على معلومات جيدة منه أحياناً . وقد ثبت في النهاية أن طريق الصـلاح ضيق بالنسبة للشر ، إذ سمعت أنه سجن أربع سنوات أشغال شاقـة بسبب سرقـة بالعنف .



الفَصْـل الخامِس





اثناء الحرب العالمية الاولى كانت النساء توقف الشبان الاصحاء الابدان في الطريق وتعطيهم ريشة بيضاء . . ومعنى هذا واضح جدا ، فلماذا لا يقومون بنصيبهم في القتال ؟ هل هم يخافون العمل العسكري ؟ وقد يتعرض الرجال إلى هذا النوع من الاهانة اثناء الاجازات عند ارتدائهم الملابس المدنية ، او الرجال الذين لا تسمح ظروفهم الصحية الغير واضحة للعيان مثل ضعف القلب أو البصر أن يخدموا في الجيش في الوقت الذي تكون فيه مظاهرهم الخارجية خادعة .

ولحسن الحظ لم تكن هذه الظاهرة موجودة في الحرب الثانية ، فلم يشعر احد أن الشخص غير المرتدي للبدلة العسكرية كان جبانا . فعند سقوط القنابل لم تفرق الشظايا بين العسكريين والمدنيين ، والجميع جابهوا الموت بسبب الحرب . وفي الحقيقة كان المدنيون في المدن الكبيرة مثل لندن وغيرها اكثر تعرضا للموت من الجنود في ساحة قتال الشرق الاوسط والساحات الاخرى التي لم تشتد فيها الحرب . ومع هذا فإن العادة بطيئة الموت . وكانت الامهات اللواتي يجابه اولادهن خطر الموت أو اللواتي فقدن اولادهن يشعرن بمرارة نحو الشباب الناعم الذي يعيش في وست اند دون أن يشاركوا في مجهود الحرب . وكان هناك الهارب أو المتخلف عن السوق ،

ولكن هؤلاء كانوا قلة بوجه عام . ومن الشباب من عاشوا بشقق مترفة واختفوا بصورة سحرية لم يكونوا ما نسميهم بالعامية بالسبفس ولكن كانوا جواسيس .

وإني احمل منتهى الاعجاب لمثل هؤلاء الرجال . وبكل تأكيد فإن أي جاسوس سواء يعمل للاجنبي أو لنا يستحق الاعجاب لجرأته وحدها ، فإن من السهل أن يكون الشخص شجاعا بين جماعة وشيء آخر أن يكون الشخص جريئا عندما يكون وحده وعندما يكون الزميل أو المار هو الواشي عندما يكون على الانسان أن يكون عنيدا في اليقظة وحتى في النوم حيث يجب عليه أن لا يتكلم لغته الوطنية حتى اثناء النوم ويفشي سر نفسه . ولا يستطيع شخص معرفة الارهاق الذي يعانيه الجواسيس بسبب الاحتراس الدائم إن لم يمر بها نفسه أو يعيش زمنا كافيا مع الجواسيس . وهذا الاحتراس يجعل الجاسوس لا يميز بين الصديق الذي يربت على كتفه من الخلف والذي يقبض عليه غفلة . والجواسيس الذين خدموا الحكومة البريطانية وعاشوا في شقق مترفة في وست اند والذين حسدوا من قبل الجهال كان يجب أن يكونوا شبابا وعلى أتم الصحة ، وكان طريقهم الاعتيادي هو النزول بالمظلات ولا يصلح من في سن الاربعين للنزول بالمظلة لصلابة عضلاته ولا يمكنه النزول في الظلام الحالك حيث تكون الصدمة مهلكة إذا كانت الارض صلبة . وكثير من الجواسيس كانوا غرباء ينزلون في اوطانهم بالمظلات ليلا واحيانا قرب المدن التي ولدوا وعاشوا فيها . وقد تجري على البعض العمليات الجراحية لتغير وجوههم لئلا يعرفهم اصدقاؤهم واقاربهم . وكان الآخرون انكليز ومن الذين يعرفون أوروبا جيدا والذين يعرفون لغة على الاقل معرفة تامة لدرجة أنهم لا يفرقون عن مواطني تلك الدولة . .

وقبل دخول اراضي العدو لأشهر يدخل مثل هؤلاء الرجال الدورات الرياضية العنيفة ويتعلمون القفز بالمظلات واستخدام المتفجرات ثم يدخلون مدرسة الجاسوسية . ويدخل في منهجهم طرق التمويه وكيفية قتل الرجال

دون ضوضاء ، كذلك استخدام كافة الاسلحة اليدوية واجهزة الراديو ، كذلك عن التصوير والكتابة السرية وعادة دراسة تفصيلية للمناطق التي سيزورها . ويكون مستوى مثل هذه الدورات العقلي والجسمي مرتفعا جدا . والذين يجتازون كافة الاختبارات يسمح لهم القيام بالمهمات . ويكون الضبط في مثل هذه الدورات اسبارطيا ، ولا يسمح لهؤلاء شرب الكحول أو مصاحبة الفتيات ، والحب والعواطف تكون دائما الد اعداء الجاسوس لأن على الجاسوس أن يسيطر على عواطفه .

ويرسل هؤلاء الشباب بعد تدريبهم إلى درجة عالية من القابلية العقلية والبدنية في واجباتهم الخطيرة ، ومع ذلك وبالرغم من تدريبهم الممتاز فإن نسبة الموت بينهم عالية جدا . ويتذكر الكثير قصة (انكلاند سبيل) وكيف أن كثيرا من الشباب الهولنديين قبض عليهم الغستابو بسبب دخول أحد الخونة بينهم رغم كافة المحاذير التي اتخذت في اختيارهم . وقد وصلت لنا الاخبار بأن بعض عملائنا قبض عليهم بسبب اخطائهم ، وقد كان هذا مؤلما حقا إذ عني أن التدريب والفنون والوقت والمادة التي بذلت والمعلومات كلها حصل عليها العدو وهذا جعل السلطات تعيد النظر فيما إذا كانت تلك المهمات ضرورية لدرجة كبيرة توازي المخاطرة بحياة مثل هؤلاء الشبان . والمغامرة في موضوع يكون فيه النجاح واحد ضد عشرة قد يقوم بها رجل شجاع حيث لديه الفرصة أن يخرج منتصرا . وإذا كانت النسبة واحد ضد مائة أو ربما مائة ضد صفر لا يمكن لمسؤول أن يجرأ على الطلب من رجل ذكي وشجاع والذي تكون قابلياته ذات فائدة لوطنه أن يقوم بعمل شبيه بالانتحار .

وفي هذا الاثناء اعتقد احد المسؤولين أنه يمكن الاستفادة من ضباط مكافحة الجاسوسية الذين لديهم الخبرة في مسك الجواسيس وذلك بفحصهم قابليات وكلائنا قبل ذهابهم في مهماتهم الخطرة ، وإذا تمكنوا من اجتياز هذه الفحوص الدقيقة التي توضع يكون للوكيل الثقة في غلبة الغستابو ، وإذا فشل في مثل هذه الفحوص فلا يكلفه ذلك حياته . . وقد يستفيد من ذلك

الفحص في تجنب الاخطاء ، وهنا طلب مني استجواب الوكلاء قبل تركهم انكلترا ، وقد طلب مني فحصهم فحصا دقيقا وبكل طريقة يمكنني دون التعذيب . . وإن تشابه وسائلي قدر المستطاع وسائل الغستابو .

وبعد أيام قليلة جاءني إلى مكتبي ثلاثة شبان وكانت اجسامهم متينة وقد دربوا تدريبا جيدا واشرقت وجوههم وعيونهم بالصحة واللياقة وكانوا في منتهى الحيوية والذكاء .

التفت إلى الموظف الواقف إلى جانبهم والذي كان فخورا بهم وواثقا من قابلياتهم ،

وسألته : متى يتركون ؟

اجاب : بعد غد .

- بوضعهم هذا ؟

- نعم كما هم الآن . .

نظرت إلى الشبان الثلاثة وكانت ملابسهم نظيفة وانيقة واعتيادية ، وكان مظهرهم بكل تأكيد يوحي بأنهم ثلاثة تجار بلجيكيين كما كان مقررا لهم . تقربت نحو الاقرب وسحبت رباطه من تحت صدريته وقلبت رباطه فوجدت علامة الرباط تصرخ : لندن اكسفورد ستريت .

قلت للموظف الذي معهم : خذهم خارجا . واصبحت نظراته بعد الآن منخذلة . بعد هذا ليس هناك داع في استجوابهم .

وجلست في غرفتي وقلت في نفسي : لا عجب اذن أن يموت الكثير من الشبان الشجعان بسبب الاخطاء الغبية التي تقع . وظهر غريبا أن التدريب العقلي والبدني يرتفع به إلى القمة وتترك الاشياء الظاهرة ولا يهتم بها . واسفت على الارواح والنقود التي بددت بسبب مثل هذه الاخطاء .

وبعد ستة أيام طلب مني استجواب شاب آخر ، وكان مقررا له أن يلقى من الجو في بلجيكا : وهنا لم اجد أي علامة للاقمشة الانكليزية في الملابس والتي قد تفشي سر الوكيل .

طلبت منه أن يقص عليّ قصته التي عليه أن يقصها للنازيين ويشرح حركاته السابقة ويبين الاسباب في وجوده اينما عثر عليه . . فقال : عند احتلال الالمان هربت إلى فرنسا ، وفي نيس تمكنت من العمل في مزرعة للزهور وبقيت هناك ثمانية أشهر ، وعند سماعي أن الظروف افضل في بلجيكا تحت الحكم النازي مما كان عليه الوضع قررت الرجوع إلى بروكسل .

فالذي عرفته من هذا القول أن هذا الشاب جاسوس واضح . . فسألته : ماذا قلت كان عملك ؟ في مزرعة الزهور هذه . . . وبالبلجيكية؟

اجاب : اجير سيدي .

فأخذت يديه وفحصتها فلم أجد مناطق قوية في عرض راحات يديه ، بل كانت اصابعه ناعمة واظافره معتنى بها ، وليس هناك أي أثر لكسر أو فطر أو تغيير في اللون بين بعضها . ولا يمكن لشخص أن يعمل ثمانية أشهر في مزرعة ويحتفظ بنعومة يدي عامل مكتب .

وقد تألمت بسبب خيبة الأمل وبسبب الاشفاق على هذا الشاب ، وقلت : حسنا قل لي شيئا عن مزرعة الزهور هذه وما نوع الزهور التي زرعتها ؟

ـ آه زهور . . . و . . . و . . . شبو . ثم صمت .

قلت : قرنقل مثلا ؟

قال : لا ليس قرنفل .

قلت : ورد الأسد ؟

قال : آه نعم زرعنا ورد الأسد هناك . . .

قلت : يا ولدي العزيز تذكر انك عملت ثمانية أشهر في مزرعة زهور ، ولكني لا اصدق انك تعرف أي شيء عن الزهور . ارجع إلى معلميك وقل لهم أنك تضيع وقتي ووقتك وتعرض نفسك للموت دون سبب .

وبعد هذه التجربة ادخلت موضوع القصة داخل القصة التي تحدثت عنها في ملحق الفصل الثاني . والطبيعة البشرية بشكل أننا نصدق الاقوال التي ينتقد فيها الشخص نفسه . ويميل المحققون الغستابو إلى تصديق اسوأ الطبائع البشرية عند الرجال . وعلى مثل هذا الشاب بعد التعذيب أن يتظاهر بالانهيار ويصرخ قائلا : كفوا بحق السماء عن هذا التعذيب ، سأخبركم عن الحقيقة : إني لم اعمل في مزرعة زهور ، لقد كنت هناك بضعة ايام ولم يكن لدي فلس واحد فبدأت اتسول ، ومرت بي عجوز متصابية اعجبت بشبابي واخذتني معها إلى بيتها ولم اطيقها بعد ليلتين بعد أن استنفدت قيمة دراهمها . . والرجل الجائع لا يمكنه الاختيار ومع هذا لم اتمكن من اشباع هذه المرأة الثائرة في الفراش فهربت منها واخذت نقودها وحليها واختفيت من الشرطة لعدة اسابيع بعدها اقنعت أحد المهربين وعبرني عبر الحدود .

هذا النوع من القصص يصدقه الغستابو اكثر من القصص الشريفة . وقد جهز كافة جواسيسنا بعد هذا بالقصص الداخلية التي وضعت باعتناء قبل ذهابهم ، وليس هناك شك في أن هذه الطريقة اقتصدت كثيرا من الارواح .

ومن بين عشرات الجواسيس الذين استجوبتهم قبل ذهابهم في مهامهم وجدت شخصا واحدا فقط من لم يخطىء خطأ واحدا . وقد كان اكفأ وكيل إذ تمكن من دخول بلجيكا في عدة واجبات ولم يقع فريسة للغستابو ولا في مرة واحدة . . وبالحقيقة لم يكن يوما تحت الشك .

جاءني يوما أحد الحرس واخبرني أن السيد دوفور يرغب في مقابلتي . وتوقعت أن يكون هذا شخصا اعتياديا وذكيا ، الا إنني استغربت عندما رأيته يدخل بصحبة احد الضباط واسترخى فكي الاسفل بسبب الاستغراب . ولا يمكن وصفه اكثر من أنه مخلوق غريب ويظنه المشاهد أنه مجنون فقد كان فكه الإسفل ثلاثة امثال الشكل العادي وكانا خداه منتفخين وعيناه غائرتان وشفتاه رفيعتين ومبللتين واللعاب يسيل من احدى زوايا فمه . نظر هذا

المخلوق إليّ وابتسم ثم أخذ يضحك عاليا . . فصرخت به :

ما هذا بحق جهنم ؟ هل تحاول اثارتي ؟

ابتسم الضابط الذي كان معه وقال : هل يمكنني أن اقدم لك السيد دوفور فإنه إذا نجح باختباراتك سيهتم بنقل الدراهم إلى وكلائنا في بلجيكا وفرنسا ؟

قلت : على ما يبدو وفي هذا المظهر لا يحتاج إلى اختباراتي ، وإن محللا نفسانيا اصلح مني في موضوع اختباره ، ومع هذا فأني في خدمتكم .

التفت إلى هذا المخلوق الذي يستحق العطف والذي استمر في الضحك ووضع اصبعا وسخا في الدواة التي كانت على مكتبي كما لو كانت هذه الدواة جميلة وقد لمع ذكاء غريب على تقاطيعه الفارغة ثم اختفى .

ـ كم عمرك دوفور ؟ سألته بحدة بالبلجيكية . .

ـ كم عمري ؟ (وضحك ووضع يده على كتفي) ، كم عمري ايها العجوز ؟ وكيف اعرف ذلك (ومال برأسه إلى الخلف واخذ يزداد ضحكا) .

ثم سألته اسئلة اخرى : أين ولدت؟
أجاب : كيف اعرف ؟
ـ أين عشت ؟

ـ أنا يا عجوز ؟ أنا لا اعيش في مكان . . (واستمر في الضحك) .

صرخت به قائلا : يجب أن تعيش في مكان ولا يمكنك أن تخدعني ,

لم يتأثر مطلقا ، ونظر إليّ وغمز ثم قال : أنا اعيش في الغابات والحقول ، وفي وسط القش في بلجيكا وانتقل على الطرق . .

ـ ماذا يفعل والدك لغرض العيش ؟

حك رأسه وضحك اكثر من قبل وتطاير على وجهي ومكتبي اللعاب

وقال : هذا سؤال ممتاز يا عجوز . . إن والدي مجنون . . .

وهنا فكرت أنه يعاني المرارة وهو يتهم والده بالجنون . .

فقلت له : لماذا ؟

قال : لأن المجنون العجوز يشتغل .

قلت : ألا تعتقد أن العمل شيء صحيح ؟

أشر بابهامه إلى صدره الغريب واستفهم وقال : أنا أعمل ؟ لماذا اعمل ؟ أني أنام اكثر الاحيان في المراعي وآكل افضل من الامير ، فعندما اجد مزرعة اجد بقرة ، وعندما يغفل الفلاح اسرق الحليب ، والدجاج حيوان اليف كما تعلم ، ويمكنك أن تضغط على رقبة الدجاجة وتضعها في القدر (واخذ يضرب بطنه متذكرا الوجبات العديدة اللذيذة التي حصل عليها بدون ثمن) .

ولا بد أن هناك شيئا فاجعاً في شهيته للاكل ، ووجدت نفسي ابتسم عندما سألته إذا كان قد دخل مدرسة . . فاجابني أنه لم يدخل مدرسة ولكنه يستطيع أن يكتب اسمه . فقلت : اثبت لي أنك تتمكن من ذلك ؟

أخذ القلم من امامي وقد كاد أن يضيع في يده الضخمة وكف ردنه وسحب ذراعه إلى الخلف وانحنى على الورقة ومال برأسه إلى جهة واخرج لسانه وخط على الورقة وقال : هذا . . . دوفور في خدمتك (وكان يبدو منتصرا) .

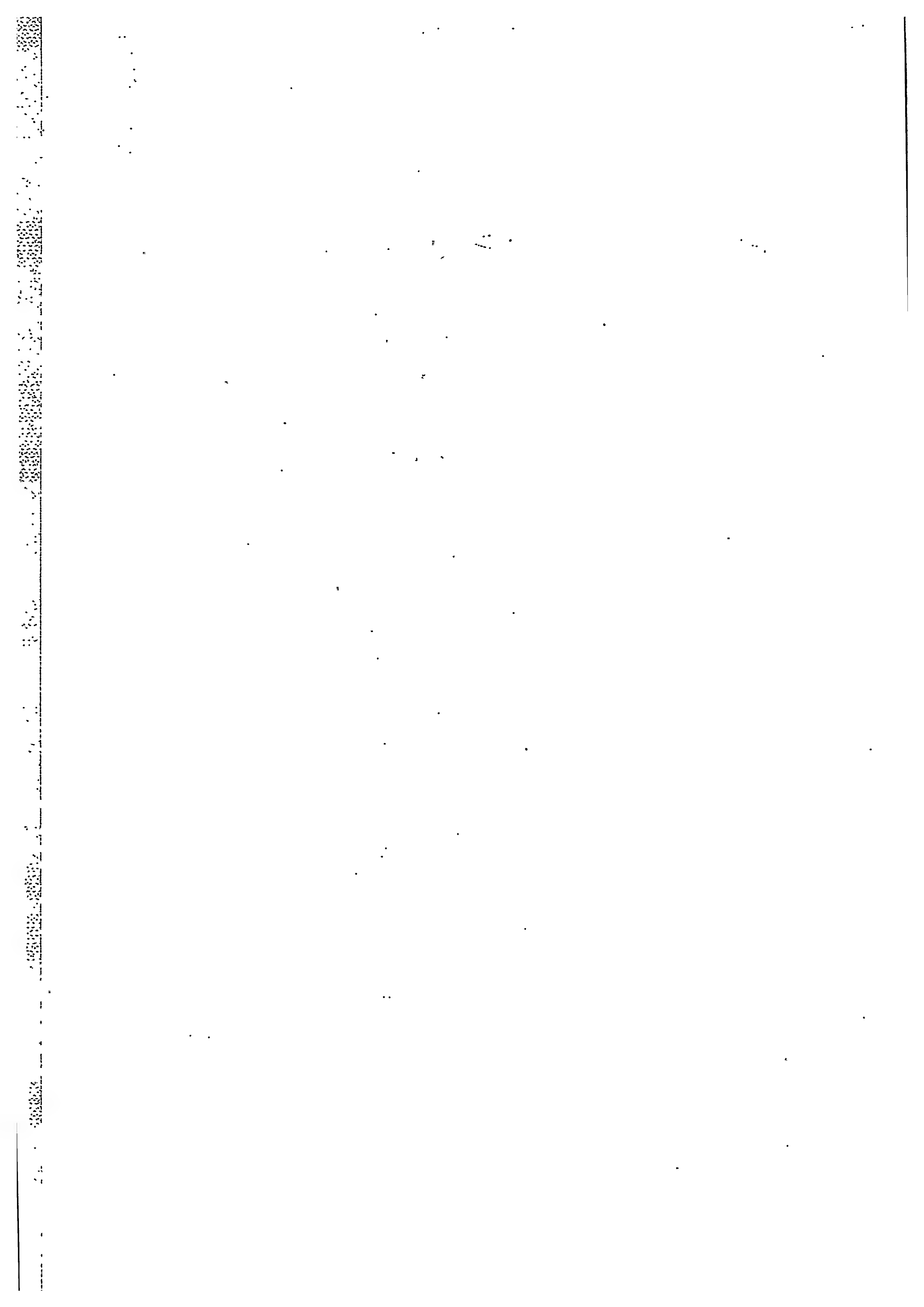
وقد استجوبته عدة ساعات ، ولكنه غلبني . . ولم احصل منه على ثلاث كلمات فيها معنى أو فائدة .

قلت للذي أتى به : خذه خارجا وارسلوه متى شئتم ، سوف لا يتمكن الغستابو من اكتشافه وقد ينهارون انفسهم قبل أن ينهار . وإذا قبضت عليه شرطة البلجيك عدة مرات فأنهم سينهزمون إذا رأوه بعدها ، وسيكرهه الشرطة . . أنه عبقري .

ضحك الضابط الذي معه وقال : سيذهب في مهمته قريبا جدا لأنه سبب الصداع لرجال شرطة لندن الآن . لقد اعطيناه شقة ممتازة في اجوبر إلا أنها لا تنفعه لأنه يتركها ويذهب كل ليلة إلى هايد بارك لينام على الحشيش .

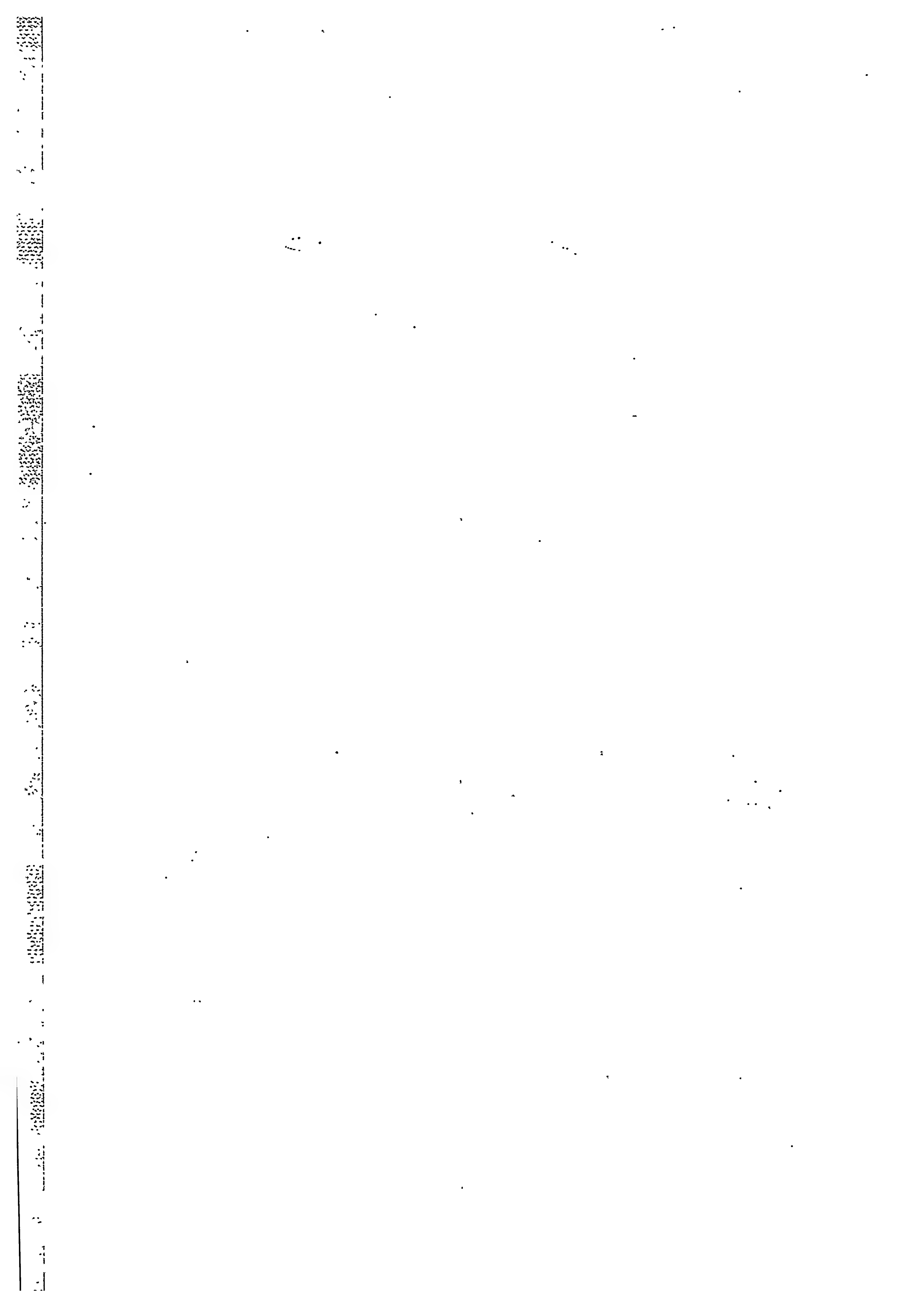
ثم تركا مكتبي-بعد أن ابتسم دوفور وودعني صامتا . . ولم أره بعد ذلك . ولكني تتبعت اعماله بشغف ، فكان اول نزوله في بلجيكا بالمظلة حاملا معه ٤٠٠ جنيه لأحد الوكلاء هناك . وبعد ٤٨ ساعة جاءت الرسالة (انتهت المهمة) . وقد القي مرة بعد اخرى فانهى مهماته على احسن وجه . ولم يفشل مرة في الوصول إلى هدفه مهما كانت الشرطة قريبة منه أو الغستابو . وعلى ما اظن أنه حمل آلاف الجنيهات إلى الوكلاء ولكنه لم يفقد مليما واحدا .

وكان هذا الرجل الغبي في مظهره انشط عناصر الاستخبارات البريطانية ، وقد نجح في مهمات فشل في تحقيقها الاصحاء الاذكياء . ولو أني أراه ثانية لكنت دعوته إلى وليمة دجاج ، ولكني ساشتري الدجاج ولا اسرقه .



الفَصْل السَّادس

مَنْ صَبَرَ ظَفِر



مهما كانت اخطاء الالمان يجب أن لا ننسى أنهم يستحقون الثناء لدقتهم وتنظيمهم الممتاز ، فبعد الاشهر الاولى المؤلمة من سقوط فرنسا واحتلال الاراضي الواطئة تمكن الآلاف من اللاجئين الهرب إلى انكلترا في فوضى الظروف . وقد وصل البعض بعد أن ركبوا القوارب ليلا من نقطة ما في الساحل الأوروبي ، وقد تكون النقطة في النروج أو في ساحل بريتاني . وقد يتجه البعض نحو الجنوب فيصلون جبال البرنيس ويتسلقونها ويدخلوا اسبانيا . وقد يصلون بعد ذلك إلى البرتغال إذا تمكنوا من تجنب شرطة فرانكو . . وبعدها ينتظرون الابحار من لشبونة .

وعندما سيطرت شرطة الأمن وسيطر الغستابو بالتدريج على الساحل الاوربي ونصبت المخافر العسكرية طوال آلاف الاميال خف عدد الهاربين . وكان على الشخص الذي يرغب العبور إلى انكلترا أن يكون جريئا وبحارا ماهرا ومحظوظا في المجازفة بقارب مفتوح حيث يسهل على طيران الاستطلاع الالماني قصف مثل هذه القوارب بتوجيه الطائرات التي تحلق قريبا من سطح الماء اليها . وقد تتعرض مثل هذه القوارب إلى زوارق الدوريات الالمانية ذات المحركات التي لا يمكن تجنبها من قبل القوارب الشراعية وقوارب الجذف ، والقبض على اللاجئين قد يعني الموت غرقا أو شنقا بعد ذلك ، وقد يعني

سجنا طويلا في احدى المعسكرات . . ولهذا نجد أن اعداد اللاجئين التي وصلت انكلترا في عامي ١٩٤١ و ١٩٤٢ كانت قليلة بالمقارنة لاعداد اللاجئين بعد الستة أشهر الاولى من دنكرك . .

ولكن الالمان انتبهوا أنهم إذا تمكنوا من غلق الساحل الاوربي ومنع سكان اوربا المحتلة من الهرب فأنهم يعزلون انفسهم عن المعلومات . والشخص الذي يعزل نفسه عن العالم يجد نفسه لا يرى العالم ولا العالم يراه . وقد كان الالمان بحاجة إلى المعلومات من الجو عن سرعة نقاهة انكلترا من دنكرك والقصف المتواصل ، وكذلك عن توزيع قطعاتها وتحشداتها وتدريبها وخططها للعودة إلى البر الاوربي . وكان الاستطلاع الجوي والتصوير الجوي نوعا من الحصول على المعلومات ، ولما كانت تلك المعلومات غير صحيحة كليا فهي بحاجة إلى شاهد عيان من الارض . فوجد الالمان الحل لهذه بسرعة . . فعندما يسمعون عن وجود محاولة للهرب لا يتخذون أي اجراء للقبض على المحاولين بل يتركون المحاولة تنجح بعد أن يتمكنوا من ارسال جاسوس أو اكثر بين جماعة الهاربين . والجاسوس بين جماعة من اللاجئين لا يجلب الشبهة حتى لو وصل وحده . . ولا يشك في أمره الجماعة الهاربين معه لأنه يقوم بتنظيم المحاولة معهم ، وكذلك يقوم بالمخاطرة معهم فنجد أن قصته مؤيدة من قبل كافة الذين معه .

وكان في هذا الحل للمشكلة فائدة اخرى بالنسبة للالمان . . فالعميل الذي يدخل لشبونة وينتظر التسفير إلى انكلترا قد يصل بعد أشهر من خروجه من المانيا ، وإن كان يعرف الطرف والوسائل للوصول بسرعة إلى لشبونة فعليه أن ينتظر ويدخل بقائمة الانتظار لكل الاجناس ليحصل على سمة الدخول إلى انكلترا ثم الانتظار للحصول على مكان في البواخر القليلة الذاهبة إلى انكلترا . ومثل هذا الجاسوس لا يخاطر بتخطي قائمة الانتظار أو بالتوسط لغرض تقديم تاريخ ابحاره ، وكل ما عليه هو الانتظار لدوره ليصل إلى انكلترا . وإذا تمكن من الخلاص من مكافحة الجاسوسية واستجوابها تصبح الأوامر الموجودة لديه قديمة والوضع الذي جاء لاعطاء تقرير عنه قد

تغير تماما ، وقد يحصل على تعليمات جديدة إلا أنه يخاطر بحياته دون مبرر .

وبينما لا يتجاوز عبور القنال في اسوأ الظروف اليوم أو اليومين فالعميل الذي يتمكن من مراوغة شبكة مكافحة الجاسوسية يقوم بمهمته دون تأخير .

ومن وجهة نظر الالمان كانت الخطة جيدة حتى وإن كانت تعني فقدان الوكلاء بنسبة كبيرة فأنهم عرفوا أنه لا تستطيع أي دولة الكسب في الحرب دون أن تقدم الكثير من الضحايا .

أما البريطانيون فأنهم عرفوا أن احدث المعلومات يأتي بها الاشخاص الذين يعبرون طريق القنال ، ويقوم ضباط استخبارات القوة الجوية باستجواب هؤلاء في البدء . وكانت المعلومات التي لها اهمية للعمليات ترسل فورا إلى قيادات القصف أو قيادات القتال الجوية . وقد يحصلون منهم على معلومات جديدة عن تحشدات العدو أو عن المعامل السريّة التي تنتج لوازم حربية معينة ، أو حتى تاريخ اجتماع أو مكان اجتماع القادة العسكريين . وكان من الواضح وجوب وصول مثل هذه المعلومات إلى القوة الجوية وغرف العمليات باسرع وقت .

وكان ضابط الاستخبارات للقوة الجوية من الطراز الممتاز في هذه المهمة ، ولكن لم تكن مهمتهم مسك الجواسيس بل كان همهم الحصول على المعلومات ذات الاهمية الجوية الفورية ، وقد تركوا بطبيعة الحال جانب الأمن إلى ضباط مكافحة الجاسوسية وهؤلاء يقومون بترشيح كافة الوافدين .

وفي صباح احد ايام ربيع ١٩٤٢ دق جرس التلفون في مكتبي في المدرسة الوطنية وكان في الطرف الثاني ضابط استخبارات من القوة الجوية وهو صديق قديم لي ، الا أنه لم يكن مشجعاً في ندائه هذا ، وقال لي : إنه انتهى من استجواب ثلاثة هولنديين وصلوا الساحل الجنوبي الشرقي بقارب وأن احد الثلاثة على ما يظهر مجنون أو أنه في حالة اضطراب عصبي نتيجة الفرحة في الهروب والنجاة لدرجة أنه فقد المنطق ، ففي وقت تراه يبكي وفي آخر تجده يصرخ ويغني اغان غريبة يشكر فيها خالق السماء والارض ، ولم

يحصل منه على أية حقيقة سوى أنه هولندي واسمه على ما يظهر درونكرس . وطلب مني أن ابدأ من هذه النقطة .

وبعد ساعات قليلة وصل غرفتي درونكرس . كان نحيفا طويل القامة يكاد يلتصق الجلد على العظم في وجهه ، وكان شعر رأسه ابيضا وعيناه سوداوين ، وكان انيق المظهر ومهتما بهندامه ، ومليء بالصراحة على ما يبدو . وقد دخل إلى مكتبي وهو يغني اغنية وطنية هولندية ويتمايل ويشمر بذراعيه . وعندما وصل إليّ شبكني وهز يدي بحراره . وعندما كان يكف عن الغناء يقوم بالثناء على الله الذي رعاه وانجاه .

وقد تمكنت من تهدئته قليلا بعد عناء ، ولكنه ابتدأ ثانية حال تهنئتي اياه على هروبه . وكان شيئا مؤلما أن ترى رجلا كبيرا يفقد اعصابه بهذه الصورة ، وباعتقادي أن الشدة هي الطريقة الصحيحة لمعالجة اشخاص فقدوا اعصابهم ، ولهذا تعمدت أن تكون لهجتي معه شديدة . . فقلت له : إننا فرحون لنجاتك كفرحتك بذلك ، ولكن هذا التعبير عن الفرح اصبح موضوعا صبيانيا واكثر من صبياني إذ أنه تعبير أناني ، ويجب أن تعلم أن هناك الكثير من هم أقل منك حظا ممن لم يتمكنوا من الهرب من بين فكي الالمان . . فازجو أن تهدأ وتخبرني عن كيفية هروبك من هولندا ، وقد يمكننا أن ننتفع بالطريقة التي وجدتها للهرب وذلك لمساعدة آخرين على الهروب ، وبهذا عليك أن تسيطر على اعصابك وتهدأ . . هل تسمعني ؟

اومأ برأسه وتمكن بالتدريج من السيطرة على عواطفه وجلس على كرسي في الجهة المقابلة لمكتبي . وبعد هذا الانقلاب المفاجىء الذي يحدث احيانا اثناء الهزات العصبية القوية اصبح درونكرس اعتياديا تقريبا واخذ يسرد لي قصته . .

قال : لقد تزوج قبل ٣٥ سنة وأنه لم ينجب اطفالا ، وقد عاش هو وزوجته في شقة صغيرة في الهيك ، وكان يعمل في البريد ولم يكفه راتبه فكان عليهما أن يتحملا شتى انواع الضنك لغرض أن تتماثل لديهما الواردات

بالمصروفات . وبعد الاحتلال الالماني في سنة ١٩٤١ ساءت الظروف من سيء إلى اسوأ فقد ارتفعت الاسعار يوما بعد يوم ، ومن اجل زوجته وبعد أن فشلت جميع الحيل (وهنا ابتسم لاعترافه) دخل السوق السوداء . وكان هذا عملا غير قانونيا ولكنه كان يجب أن يقوم به وذلك لعدم بقاء اي اختيار امامه ، وبهذا وجد نفسه غنيا بسرعة وانتشل نفسه من الجوع بسرعة . وكانت السوق السوداء سهلة الدخول ، إلا أنه بحذره عرف أن هذا الشيء لا يدوم وأنه سيواجه المشاكل يوما من الأيام . . ولكنه ابعد هذه الفكرة عن باله عندما تزايدت ارباحه ولكنه فوجىء في احد امسيات كانون الاول الاخير باحد اصدقائه ينذره بأن الغستابو يراقبه وهم دائما يجتهدون في القبض على وكلاء السوق السوداء في هولندا ووضع نهاية إلى تلك التجارة غير القانونية والتي كانت تدني نظامهم في هولندا إلى الانهيار . وقد كان الغستابو يراقبه اما بسبب عثورهم أو بسبب الاخبار عنه . وكانت العقوبة للعامل في السوق السوداء هي الموت ، وقد عرفا هو وزوجته هذه الحقيقة ، وصديقه الذي جاء ينذره نصحه بأن الطريقة الوحيدة للنجاة هي الهرب وإن لم يرحل فان الغستابو سيمسكه إن عاجلا أم آجلا . وقد وافقت زوجته بعد شيء من البحث على تركه هولندا ، ولم يكن هناك خوف من أن يؤذيها الغستابو اثناء غيابه لا سيما أنه قام بفعاليات السوق السوداء هذه خارج بيته وأن الالمان آنذاك يتصرفون بشيء من الروية وأنهم سوف لا يوقفون زوجة بريئة بسبب اعمال زوجها . وقد اقترح صديقه الحميم هذا عليه أن يذهب إلى مقهى معروفة في روتردام وهي مقهى (اتلانتا) حيث يمكنه أن يجد احدا يساعده في الهرب إلى انكلترا . (وهنا في هذه النقطة من قصته تذكرت تلك المقهى جيدا) .

واستمر درونكرس في سرد قصته ، ولكنه وإن قالها بصورة متعثرة ومهلهلة إلا أنها بدت و كأنها قصة حقيقية. وفي اليوم التالي قال: ذهبت إلى روتردام ووصلت المقهى فوجدت عرضا رجلا يدعى هانس وبعد أن تكلمت معه قليلاً اطمأنيت له وأخبرته أن الغستابو يتعقبونني وأملي الوحيد هو الحصول على

قارب أذهب به إلى انكلترا . وقال أن هانس هذا ابتسم وقال له أنه الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يعاونه في هذا الأمر حيث أن هانس يعمل لدى احد تجار روتردام ولديه ترخيص في توزيع الوقود للبواخر وأن لدى التاجر قاربا جيدا كان هانس مسؤولا عنه . ولغرض انتشال درونكرس من هذه المحنة كان هانس على استعداد لبيعه القارب . وقال انهما اتفقا بعد مدة من التعامل على بيع القارب بمبلغ اربعين جنيها ، وكان هذا اقصى ما يستطيع دفعه درونكرس .

وقد رتبا خطة بسيطة للهرب . . فكان على هانس أن يجهز القارب بما يكفيه من الوقود للوصول إلى انكلترا ، ولم يتضمن ذلك أي خطر حيث يمكن هانس أن يحصل على الوقود دون أن يجلب أي شك ، كذلك يمكن تهريب درونكرس دون أن يشتبه به في الميناء إلى القارب ويمكن اخفاؤه فيه والمرور به خلال نقاط التفتيش الالمانية التي اعتادت على هانس . وبالاضافة إلى ذلك كان لدى هانس بطاقة خاصة بالمرور ، وبعد عبور نقاط الحرس في مداخل الميناء والدخول في البحر بعيدا عن الانظار يمكن أن يلقي هانس في نقطة بعيدة على الساحل ويذهب بعد ذلك درونكرس ويبحر على مسؤوليته إلى انكلترا . . وإذا اتجه إلى الغرب فلا بد أن يصل الشاطىء الانكليزي .

هذه هي الخطة كما ذكرها درونكرس ، وشكر السماء لأنها نفذت بنجاح ، ولم تنجح هذه المحاولة إلا بعد كثير من المتاعب . وذكر أن صديقا له رغب في مصاحبته إلى انكلترا ، ولم يكن يرغب في أخذ شخص ثالث إلا أنه تراجع . وفي غرفة صغيرة نتنة في القارب حشر الثلاثة انفسهم وقد بدى الوقت طويلا جدا قبل أن يتحرك القارب وكاد الوقت أن يكون دهرا قبل عبور الابواب . وادعى أنهم لم يتمكنوا من التنفس عندما وقف هانس يمزح مع حرس النقاط . . بعد ذلك عرفوا أنهم في عرض البحر بعد أن شعروا بتزايد سرعة القارب . وعندما اقترب القارب إلى البرزخ اتجه به هانس إلى الجرف ونزل بعد أن تسلم الاربعين جنيها ، وهنا ادعى درونكرس أنه شكر

هانس من اعماق قلبه بسبب عمله هذا حيث لم تكن النقود تساوي شيئا بالنسبة للحياة .

وهنا اومأت له برأسي واشعلت سيكارة جديدة . .

وهنا ايضا سالت الدموع من عيني درونكرس وقال : ليس هناك شيء آخر يمكنني أن اخبرك به يا سيدي . . (واستمر قائلا) ومع هذا لم تكن الرحلة سهلة بعد هذا، ولم تكن لدي خبرة في الابحار ولا لدى الاخرين أيضا . . واول شيء لاقانا هو التماس بمنطقة رملية وهذا كلفنا الساعات قبل أن نتمكن من الابحار في البحر . وفي هذه الاثناء استمرت الانوار الكشافة تتحرك من اليمين إلى اليسار وبالعكس فوق المنطقة الرملية التي صادفناها (وهنا اخذ يؤشر بيديه من اليمين إلى اليسار) ، وكان الحظ في عوننا إذ أننا لم نكتشف (وهنا اخذ نفسا عميقا مسموعا ووقف على قدميه ، وبنوبة هستيرية غريبة ضرب قدميه بالارض وشمر يديه في الهواء وصرخ) : ولكنني اشكر الله أنها انتهت الآن . . أنا هنا بصحة وامان في انكلترا ، لقد ولت مشاكلي .

وهنا سحقت سيكارتي في النفاضة وقلت : درونكرس اظن أن مشاكلك قد بدأت الآن .

وهنا ساد الصمت لبرهة طويلة ، وأخذ ينظر إلي وأنظر إليه ، فقال : إسمح لي يا سيدي . . أظن أني لم أسمعك .

ـ لا يا درونكرس (وأردفت قائلاً) لقد تكلمت بوضوح ، ففي رأيي أن مشاكلك لم تنته بعد ، فقد أخبرتني بقصة مثيرة جداً ذكرتني بكتابات الكاتب الأمريكي الشهير ادكار بو . . ولو تتذكر جيداً تجد أن قصصه يطلق عليها (خيالية)، وهنا موضوع الشبه الكبير . وإن قصتك بدون أي شك وهمية وعلى ما أظن أنها من نسج خيالك ، ويمكنني القول أنك نسجتها بنفسك . والآن أرجو أن تخبرني الحقيقة .

وهنا نظر إليّ وبلل شفتيه وانقلب التعجب إلى غضب وقال : أرجوك سيدي : هل تظنني أكذب ؟ إن إتهامك هذا إتهام خطير ، كما أنني أجد نفسي قد أهنت كثيراً . .

وهنا إنجنيت إلى الأمام وقلت : قلت يا درونكرس ما معناه أن صاحبك هانس يرغب أن ينتحر .

رمشت عيناه وقال : ماذا تعني . . ينتحر ؟

ـ التاجر الذي ذكرته قد فقد الآن قاربه أليس كذلك ؟ وقد يخبره الحرس الألمان أن هانس ذهب به إلى عرض البحر ، وأن هانس رجع بمفرده وذهب القارب ومثل هذا لا يصدقه التاجر ولا الألمان ، وغالباً سيقوم التاجر بتسليم هانس للغستابو وما القصة يا ترى التي سيقصها هانس للغستابو ؟ قد يكون هؤلاء شرسين متى شاءوا . . (وهنا نظر إليّ درونكرس ثانية) ، وأردفت قائلاً : ألم تفكرا في أن مثل هذا العمل يعني الانتحار بالنسبة لهانس ولأجل مبلغ حقير وهو ٤٠ جنيهاً ؟ .

وهنا تمتم درونكرس وقال : بحق السماء لم نفكر في هذا (وقد تراقصت الدموع في عينيه) .

ثم إستمريت قائلاً : وبالاضافة إلى ذلك فإن الشخص الذي يذهب إلى روتردام لغرض الحصول على قارب يوصله إلى إنكلترا لا يذهب عادة إلى مثل هذا المقهى اللطيف الذي لم يهدمه القصف . . والآن ما سبب زيارتك ؟ إنك ذهبت إلى المكان الوحيد الذي يخلو من البحارة ، ولِمَ لم تذهب إلى إحدى بارات الساحل حيث تجد الكثير من البحارة ؟

وهنا تظاهر درونكرس بعجزه عن الاجابة وقال : سواء صدقت أم لم تصدق يا سيدي فقد أخبرتك الحقيقة .

قلت : هل ما قلته هو الحق فعلاً ؟ إن قولك يجتاز حدود الاعتقاد-إذ كيف يمكنك أن تجد في مقهى مزدحمة الشخص الوحيد ـ ربما في هولندا ـ

الذي يمكنه أن يعاونك ؟ ألا تظن أنك غامرت في فضح أمرك إلى شخص غريب تماماً وكان يمكن أن يكون هذا وكيلاً للغستابو . . أليس كذلك ؟ وفوق هذا كيف يجرأ هانس الذكي على القيام بمثل هذه المغامرة وهو يعرف أن عمله هذا قد يقوده إلى السجن والتعذيب وربما إلى الموت لغرض الحصول على اربعين جنيهاً حقيرة ؟ أعطني أجوبة مقنعة لهذه الأسئلة عندها يمكنني أن أصدقك . .

وهنا تنفس درونكرس عميقاً وقال : لا يمكنني إضافة أي شيء إلى الحقيقة التي أخبرتك بها يا سيدي .

هززت رأسي وقلت : درونكرس إني أعرف من أنت . . إنك كذاب ، وكذلك أعرف من أرسلك في هذه المغامرة . . إنه السيد ستراوخ رئيس الخدمات السرية الألمانية . . أليس كَذلك ؟ إلا إني سأعطيك **٢٤** ساعة لإعادة النظر في أقوالك وستأتي غداً في مثل هذا الوقت هنا لتخبرني بالحقيقة . .

كزر قوله هنا وقال : لقد أخبرتك الحقيقة يا سيدي . .

وعند مناداتي الحرس ليخرجوه نظرت إليه بإحترام لقوة مقاومته وعدم إنهياره فقد كان أقوى مما توقعت أول الأمر ، وكان واثقاً مما يقول حتى خلته لا يكذب في قوله ، ولكني تركت مثل هذه الأفكار وقلت في نفسي : إنه جاسوس ويجب أن أجعله يتكلم .

وعند تركه الغرفة ودعني قائلاً أنه سيكتب إلى السلطات العليا يخبرها بأن لديها هملرا آخراً . . وقد كتب فعلاً رسالة إلى ملكة هولندا وأخرى إلى ملك بريطانيا وثالثة إلى رئيس الوزراء شرشل ، ولكن هذه الرسائل لم تصل .

وعندما غلق الباب خلفه أشعلت سيكارة واسترخيت إلى الخلف وأخذت أستعرض قصته . كنت متأكداً أنه أخبرني بنسيج من الكذب وأن

درونكرس جاسوس ماهر . وقد حاولت أن أجعله يعترف وتمكنت من ذلك ولكن بعد أن إستغرق إستجوابه أكثر من أسبوعين .

في الفصول السابقة أكدت على وجوب تفتيش لوازم اللاجئين . فمثلاً لم أشك شكاً قاطعاً في تمرمانس إلا بعد أن وجدت الأدلة الثلاثة في محفظته ، ففي تجربتي أن كل جاسوس لا بد أن يحمل معه ـ بملابسه أو لوازمه ـ شيئاً يدينه . وقد يكون الدليل شيئاً تافهاً لا يمكن تمييزه إلا من قبل الشخص المحترف . ولدى الجاسوس مهمتان وهما : الحصول على المعلومات ، ونقل تلك المعلومات . ولغرض القيام بهاتين المهمتين يحتاج عادة إلى (مذكرة) تحتوي على ملاحظات عن المعلومات التي هو بصددها وعن العنوان الذي يجب أن تصل إليه مثل هذه المعلومات . وقد يحمل بعض الوسائط كآلة التصوير المايكرومي أو غيرها من الوسائط التي تستخدم لغرض نقل المعلومات بصورة سرية .

وإذا كان الجاسوس مدرباً تدريباً جيداً لا يمكن الحصول على إعترافه بالطريقة الاعتيادبة من الاستجواب . . والتعذيب يمكنه أن يحقق الغرض ، إلا أن مكافحة الجاسوسية في بريطانيا تمانع في إستخدام التعذيب .

وقد أخذت أستجوبه في كل يوم مشيراً إلى أقواله المتضاربة موجهاً له نفس الأسئلة ، ولكنه يستمر في تكرار القول : إني أخبرتك الحقيقة يا سيدي .

وقد كنت مشغولاً في مواضيع أخرى عدا موضوعه في النهار فلم أتمكن من القيام بتفتيش لوازمه ، فأخذتها معي إلى شقتي في جلسي ووضعتها على منضدة عارية وأخذت أدقق كل غرض على حدة .

وأول ما فتشت وجدت ساعة ذهبية وسلسلة خاصة بها ، وقد فتشت كل حلقة تحت المجهر فلم أجد هناك أي علامة عليها . وقد فككت الساعة

وفحصت أجزاءها من الداخـل والخارج وفحصت دواليبهـا المختلفة لغـرض العثـور على أي إشـارة قد تنفـع . ثم نزعت رقـاص السـاعـة وفحصت كـل حجرة فيها فلم أعثر على أي شيء أيضاً .

والشيء الثاني كان علبة سيكاير هولندية رخيصـة (دولة الشمـال) . . أخرجت كل سيكارة على حدة ومزقتها لأرى فيما إذا كانت هناك أي إشـارة . وقـد فحصت الورق من الكتـابة السـرية ثم بعثـرت التبغ فلم أجـد شيئـاً . . فقررت أن أقطع الفحص وأنام ما تبقى من الليل .

وفي اليوم التالي بدأت أستجوب درونكـرس ثانيـة ولكن دون جدوى ، فأخذت أستجوب الرجلين اللذين كانا معه ، فوجـدت أنهما هاربـان حقيقيان وكان أحدهما موظفاً صغيراً في البريد في الهيك مع درونكرس وكان هذا نحيفاً رقيقاً صغيراً يعطس دائماً وربما كان مريضاً بـالسعال أو السـل ، ولكنه إحتفظ بروح عذبة فكان تواقاً للالتخاق بالجيش الهولندي الحر .

وكان الثاني هجينـاً ملايوياً هولنديـاً ميالاً للتعـظيم وأحيانـاً للكذب إلا أننا وجدنـاه عديم الأذى. وقـد تركت هـذا المتكلم مع درونكرس في الغرفـة وخـرجت إلى غرفـة مجاورة أستمـع لحديثهـما الذي نقـل إليّ بسماعـة ، وقـد أخفيت السماعة في مظلة المصباح الكهربائي في الغرفة . وقد كان درونكرس يرد على أسئلة هـذا الشخص بانصـاف كلمات وإيمـاءآت ، ولم أجد في قـول أحدهما ما يثبت إدانتهما . وبعد الاصغاء لمدة عشر دقائق تقريبـاً قررت قـطع هذه المحاولة وأخذت أستجوب درونكرس ولكن بدون جدوى أيضـاً ، فكان يواجهني دائماً بالقول : لقد أخبرتك بالحقيقة يا سيدي

وقد مرت الأيام والليالي دون نتيجة سواء من إستجوابه نهاراً أو فحص لـوازمه ليـلاً . وهنا وصلت إلى فحص الجـرائد والخـرائط التي كانت معـه ، فـأمضيت السـاعـات في فحص كل عقـدة من الورق بـالمجهز والكيميـاويـات الخاصة ، وتمر لحظات أحيـاناً بـين شرب أقـداح القهوة أو تـدخين السيكـاير أتساءل خلالها فيما إذا كانت هناك جدوى في الاستمرار باستجواب درونكرس

وما إذا كانت مهنتي تقودني في هذا الموضوع إلى الظلال . ولو أن درونكرس بريء لكنت أشبه بالباحث عن إبرة في كومة من القش . وأقول أحياناً لنفسي إني وقعت بالأخطاء التي أحذر منها العاملين بأمرتي وهي السماح للانطباعات الخاطئة أن تقذف بي بعيداً عن الواقع .

وفي الصباح التالي طلبت درونكرس مرة أخرى واتهمته بالخيانة والجاسوسية ، فكان جوابه نفس الجواب الذي دق في أذني مرة تلو أخرى وهو : لقد أخبرتك الحقيقة يا سيدي . وكان يقول هذه الكلمات بنبرة تعبة ومتقطعة ، ويبدو أنه تعب مني بقدر ما كنت تعباً منه ، وقد يكون تعباً فعلاً .

قلت : الآن أنظر إليّ يا درونكرس ، لقد تمسكت بأسلحتك جيداً وإني أهنئك على عنادك ، ولكن يجب أن لا تعتقد أن عنادك هذا سيفيدك أبداً ، فهل تعرف أنك سوف لا تخرج من هنا حياً ؟ إنك جاسوس وضيع وأعرف أنك كذلك ، وبإمكاني أن أوجه لك الأسئلة لمدة أطول مما تتمكن من إعطائي نفس العبارة . . إنك ستعترف إن عاجلاً أم آجلاً ، فلماذا تطيل في محنتك هذه ؟ ولماذا لا تعترف بأنك جاسوس وتضع نهاية لجميع هذه الأسئلة ؟

وهنا ساد الصمت المطبق في الغرفة إلا من وقع الأقدام في الخارج في الممر ومن ضوضاء وسائط النقل المارة في كلافهام . وهنا نهض درونكرس ببطء ورفع يديه مؤشراً إلى السقف وهو ينظر إليّ ، وقد توترت أعصابي بسبب ذلك وإن كنت مسيطراً على أعصابي جيداً ، فقد توقعت أن ينهار في هذه النقطة .

قال : سيدي (وكان يبدو عليه التأثر العميق) والله الذي أعبده وروح والدي ـ التي هي بالجنة ـ الذي أحببته كثيراً ، أقسم لك بأني مخلص لوطني ولعرش اورنج وإني لست جاسوساً .

وهنا أسترخيت إلى الخلف على الكرسي وقلت : لا أتمكن من قول شيء الآن . .

وفجأة جلس درونكرس وأخذ يبكي ولأكثر من ربع ساعة ، اهتزت كتفاه وانهمرت دموعه ، فأخذت أنظر إليه وهو يسترجع وضعه بالتدريج .

وهنا قلت : مع كل هذا درونكرس إنك جاسوس وإني مصر على إثبات ذلك .

وفي المساء الثاني عشر وصلت إلى آخر لوازم درونكرس ، فكان ذلك معجم هولندي إنكليزي ، وكان غلافه وأوراقه مبللة بماء البحر المالح ، فعثرت بين السبعمائة صفحة على الدليل إلى موضوع درونكرس وإلا كنت أبحث عن جريمة رجل برىء لمدة اسبوعين من العمل المتواصل . وأثناء فحص المعجم كانت القنابل تتساقط خارج شقتي ويهزها نباح رشاشات مقاومة الطائرات المتقطع وصفير القنابل . ولم يبق سوى هذا المعجم ومنفضة مليئة بأعقاب السكاير على منضدتي .

بدأت الفحص بتدخين سيكارة جديدة وارتشاف فنجان قهوة ، ففتشت غلاف المعجم ثم مزقته وفككت التجليد ، ولم يبق أمامي سوى قراءة كل كلمة في كل سطر من سطور السبعمائة صفحة التي يحتويها المعجم وفحصها بالمجهر .

بدأت هذا العمل المضني وأخذت الساعات تمر الواحدة تلو الأخرى وأنا أقلب الصفحات . وعند سماع صافرة الأنذار كنت أطفىء الضوء وأغمض عيني . . وعند إنتهاء الانذار أشعل النور وأذهب إلى النافذة لأرى النيران المتقدة بسبب القصف وقد اصطبغت السماء إحمراراً . وكان الوقت فجراً وقد مر بي ـ في هذه الأثناء ـ أحد مكافحي الحريق وكان تعباً وحاملاً خوذته الحديدية بيده وكان وجهه أسوداً من الدخان والأوساخ . وهنا أغلقت النافذة والستارة الثقيلة الخاصة بحجز النور وشربت قدحاً من الماء ورجعت أفحص المعجم . فلم أعثر لحد ما بعد منتصف المعجم على أي إشارة . وهنا قلت أن آخر فرصة في إثبات جريمة درونكرس قد ولت . إلا أنني لم أيأس ،

فعند وصولي صفحة ٤٣٢ جلست إلى الخلف وتنفست الصعداء . . فقد وجدت الشيء الذي كنت أبحث عنه . لقد وجدت ثقب دبوس تحت الحرف (ف) ، وهنا إتضحت الطريقة التي يتبعها درونكرس . وكنت متأكداً أن هناك ثقوب أخرى تحت حروف أخرى في المعجم . وفعلاً كانت هناك حروف أخرى فوضعتها حسب ورودها بقلم رضاص فوجدت أن هذه الحروف شكّلت إسمين وعنوانين كان على درونكرس أن يرسل المعلومات إليهما : الاول في استوكهولم ، والثاني في لشبونة .

لقد إنتهى عملي بالارتياح بعد أسبوعين من العمل والسهر ، إلا أن النتائج بعد العمل الطويل تكون عادة غير مريحة تماماً . ففي اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة الوطنية وأرسلت بطلب درونكرس ، وعند دخوله الغرفة لاحظت لأول مرة كم كان مسناً ومنحني الظهر ، وقد جلس مقابلي على كرسي خشبي ، وكان مستغرباً من نظراتي إليه وضجراً من مقابلاتي اليومية أكثر من مللي لها ، إلا أنه لم يعرف أن ذلك كان اللقاء الأخير بيننا .

أخرجت من جيبي قطعة من الورق التي كتبت عليها الأسماء والعناوين الخاصة به وفتحتها وعدّلتها قبل أن أضعها على المنضدة وقلت : درونكرس ، للمرة المئة هل تعترف بأنك جاسوس ؟

وهنا جاءني الجواب بدون تردد كما لو أني ضغطت على الزر الصحيح : لقد قلت الحقيقة يا سيدي .

وهنا قلبت له قطعة الورق ليتمكن من قراءتها .

وفي تلك الغرفة الهادئة إنخفض صوتي وكاد أن يكون أشبه بالمشاورة وقلت : درونكرس ، لقد ولدت هولندياً ولكنك ستموت خائناً . إقرأ هذين السطرين وأخبرني هل تعترف بأنك خائن ؟

لقد وجد درونكرس أن اللعبة قد انتهت ، فانهارت مقاومته القوية وبعدها إنهار واعترف بكل شيء .

نعم كان جاسوساً فعلاً ومرسلاً من قبل ستراوخ عميد الخدمات

السرية الألمانية الذي كان يزور مقهى (اتلانتا) في روتردام .

وبعد دقائق طبع الاعتراف ووقعه .

وقد أكملت هذا الموضوع ولم يهمني بعد هذا إلا أن أعرف السبب الذي دفعه إلى مثل هذا العمل (الخيانة) وهو شخص بورجوازي . .

فقلت له : أخبرني يا درونكرس لماذا قمت بهذا العمل ؟ وما الذي دفعك أنت الرجل الشريف أن تقع في مثل هذه الجريمة الشنعاء ضد وطنك ؟

جلس بعد هذا حائراً على كرسيه وقد فقد كل مقاومة وأخبرني ببطء وتلكؤ بقصته . وقد شعرت بالعطف نحوه عندما أخذ يرويها ، فهذا الرجل الذي تعب قبل أوانه بسبب السرقة والخطف والذي لم ير محاسن الحياة كان لديه هدف واحد بعيد عن الأنانية وقد يكون هدفاً نبيلاً ، كان ذلك هو حبه الكبير لزوجته . .

لقد عمل فعلاً في السوق السوداء ولكن دون أي نجاح كما إدعى سالفاً ، وواجه الفقر والجوع مع زوجته ولم يتمكن أن يراها في هذه الحالة ، ولهذا تطوع أن يتجسس كحل أخير ، وقد وعدوا أن يدفعوا (١٥) جنيهاً لها شهرياً ولمدة ثلاثة أشهر وإذا رجع سيعطونه عملاً بمائتي جنيه سنوياً ، وكان عليه أن يجد طريقه إلى بلده دون أي مساعدة منهم . وكانت هذه صفقة جيدة من وجهة نظر الألمان . إلا أنه وجد نفسه مكتشفاً بعد أسبوعين فقط من تركه هولندا .

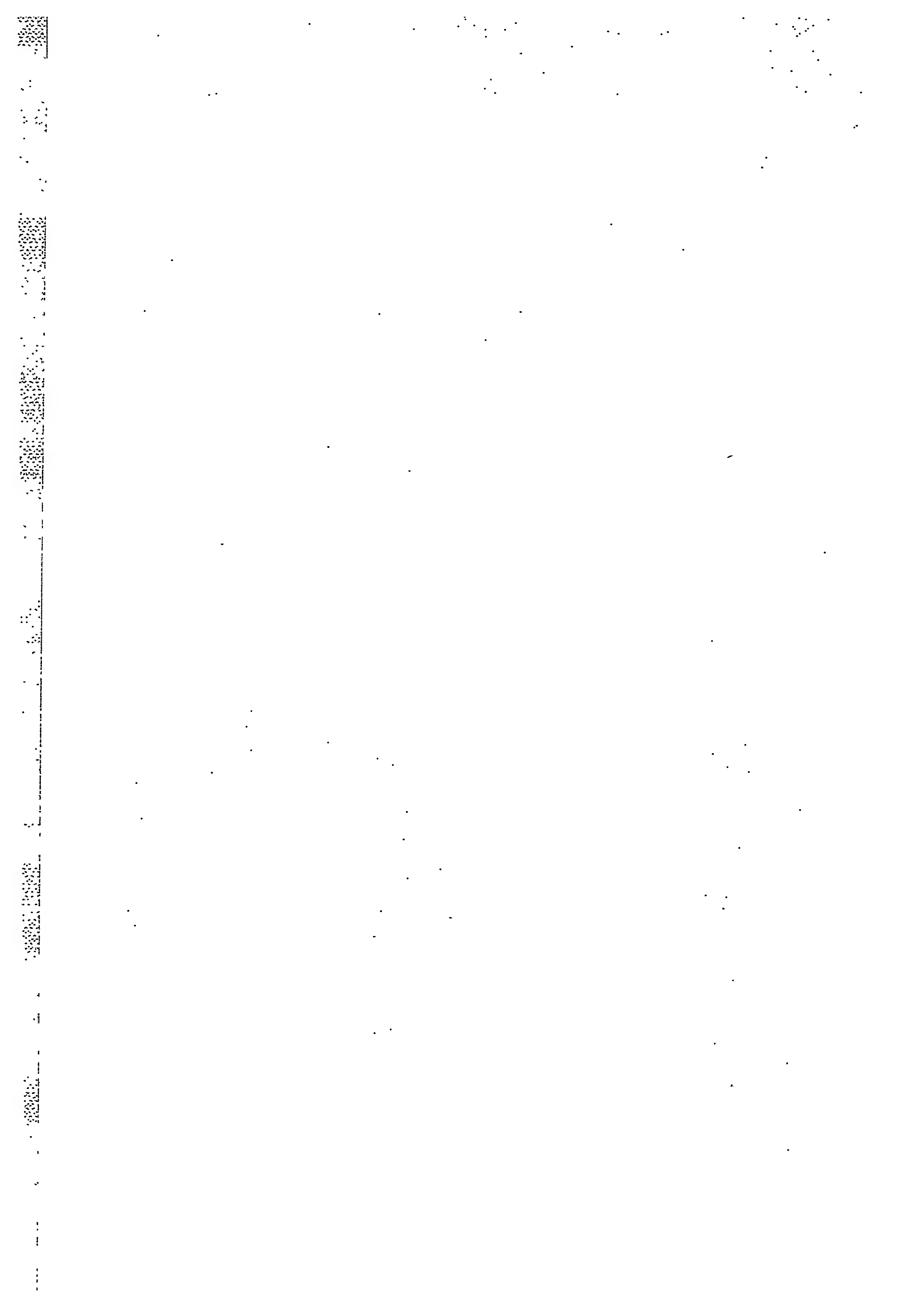
وعندما قال هذا صدقته لأول مرة .

وقد حوكم من قبل الحاكم روتسلي في محكمة الجرائم العليا يوم ١٣ و١٦ و١٧ تشرين الأول عام ١٩٤٢ فحكم عليه بالموت . وقد استأنف الحكم في ١٤ تشرين الثاني إلا أن المحكمة الكبرى رفضت الاستئناف .

وقد أعدم شنقاً في ليلة رأس السنة عام ١٩٤٢ في سجن وندسورث .

الفَصْل السَّابع





بعد إنزال نورمندي أمرت بالذهاب إلى الأراضي الأوروبية مع ستة من المعـاونين وهم من ضبـاط الأمن وكنت رئيساً للبعثـة وملحقاً بـالقيـادة العليـا الحليفـة للجيوش البـرية . وكـان واجبي في هذه المهمـة (التنظيف) بمعـاونة الأمن البريطاني وكذلك المحافظة على آمن خطوط المواصلات خلف القطعات المتقدمة الحليفة . وفي هذه الأثناء كانت الجيوش الحليفة قد إنطلقت من رأس الجسر الذي إحتلته في نورماندي ودخلت فرنسا وبلجيكا ووصلت هولندا .

لم تكن هذه المهمة سهلة بالنسبة لرجل في الخامسة والخمسين من عمره يعيش في ظروف قتال بوجباتها المتقطعة ويجتاز طرقاً ممزقة بالقنابـل وغير مبلطة وينـام ساعـات قليلة دون نزع مـلابسه . وهنـا لا أرغب أن يتهمني القارىء بسرد البطولات حيث أن مشاكلي كانت أخف بكثير من مشاكل القـطعات في الجبهة والتي جابهت العـوز والموت في آن واحـد ولكني لم أعد شـاباً وإن كنت مستمراً في العمل ، فقد فقدت-الصفـة القيمة في الحيـاة وهي الشباب فـولّت المرونة وولت النزعة التي تساعد الرجل التعب على إسترجاع قوته بعد ساعات قليلة من النوم .

كان هناك كثير من العمل بحيث يكفي لاشتغالي أكثر من ٢٤ ساعة ، ففي كل مدينة تتحرر كانت هناك إتهامات ورد إتهامات بأن هذا أو ذاك كـان

متعاوناً مع الألمان . وكل شخص حاقد يأتي بكل الأدلة القاطعة عن تعاون غريمه السياسي مع الألمان وحتى ضد غريمه التجاري . وكان علينا أن ندرس كل هذه الاتهامات وأن نقوم بإلقاء الكثير من الأسئلة والاستجوابات، والتفتيش ، وفي النهاية نصل إلى الحقيقة أو ما يقاربها ، وكل هذا إستغرق وقتاً طويلاً وثميناً أيضاً .

وفي النهاية تراكمت المواضع غير المنظور فيها . وقد ترك الألمان المولعين بالتنظيم والعتاد تركوا المخربين والجواسيس خلف قواتهم المتراجعة مع أوامر نسف الجسور والطرق وتحضير التقارير عن تقدم الحلفاء ونظم المعركة لديهم . . فكان يجب القبض على مثل هؤلاء الرجال والنساء وشلهم بالاضافة إلى ذلك كان أمامي موضوع وجدته الأخطر بين المواضيع التي عالجتها في مهنتي هذه ، وكان في غاية الإثارة والإرهاق بالنسبة لي وسأذكره في فصل آخر .

وبالإضافة إلى تزايد مشاغلي بدأ معاوني الستة المختارون يذهبون الواحد بعد الآخر لمعاونة القطعات الأمريكية التي احتاجت إلى الكثير من ضباط الأمن وقد إستعارت إثنين من ضباطي ، وعندما ودعتهم قائلاً (اورفوار) كان يجب علي أن أقول (حظ سعيد)، ولم أر أحدهما حتى نهاية الحرب .

وبعد أسابيع قليلة أمرت أن أعير القوات البريطانية أثنين آخرين ، وفي النهاية إستعارت القوات الكندية الأثنين الباقيين ورغم محاولاتي فقد فشلت في إسترجاعهم ، وبهذا وجدت نفسي أقوم بعمل كنا نقوم به نحن السبعة وكنا نعجز عن القيام به .

وبعد هذا ندمت لأني لو كنت قد خططت إدارتي على غرار القيادات آنذاك لوجدت عملاً كافياً لأكثر من مائة ضابط ، ومع هذا ولمدة أسابيع وبدون واسطة للنقل أو مأمورين أو سلطة ، وهذه الأشياء كان يمكن أن تذلل

مصاعبي فقد كنت أجول الأميال خلف خطوط الحلفاء التي كانت تتقدم حينذاك داخل هولندا .

وفي وقت إنشاء القيادة العليا الحليفة للقوات الأوروبية في بروكسل ووصولي اندهوفن في جنوب هولندا شعرت أنني على وشك الانهيار العصبي بعد أن فقدت ما يقارب الخمس عشرة كيلو غراماً من وزني وإن كنت عادة لا أحمل الكثير من اللحم الزائد . وكنت موجع الرأس نهاراً وغارقاً في أرق متواصل ليلاً ، وقد فقدت شهيتي للأكل تماماً ولم أتمكن من البقاء لمدة طويلة من الزمن في مكان واحد نتيجة لقلقي إذ كنت متعباً فكراً وجسداً وشعرت إني على حافة الهلاك . . وبعد مدة قليلة تأيدت ظنوني هذه فقد إنهارت قواي في ٢٢ كانون الأول عام ١٩٤٤ .

نقلني أحد الأصدقاء إلى قيادة الأمن في بروكسل وبعدها نقلت إلى مستشفى عسكري للفحص ، وقد فحصني الرئيس الأول الطبيب فحصاً دقيقاً لم أمر به من قبل إذ إستمر الفحص لمدة ساعة أو أكثر ، وقد طلب مني إعطاءه كافة التفصيلات عن مواضيع غير طبية والتي كانت غير ذات علاقة بالنسبة لعقلي المدرب بغير الطب ، ففحص قلبي ورئتي وبطني وظهري ، وعلى ما يظهر فحص كل عضو في جسمي . وكخبير في فحوص أخرى رفعت له قبعتي لدقته .

وأثناء إرتدائي لملابسي كنت أنظر إليه وهو يكتب الدواء على قطعة من الورق ووقعها وغلفها في مظروف وأعطاني إياه وقال : علي أن أراجع إنكلترا بكل سرعة وعند وصولي هناك عليّ أن أراجع طبيبي الخاص دون أي تأخير .

لم يثرني مطلقاً في قوله هذا ، ومع هذا عندما يكون الموضوع هو الصحة كما يعرف الجميع يصبح الرجل أكثر لهفة لسماع قول الطبيب وأكثر إحساساً للكلمات والتصرفات :

ـ قل يا دكتور بصراحة : ما هو مرضي ؟ إني لست بطفل (قلت هذا وأردفت) إني لست جباناً .

تمتم شيئاً عن أسلوب المهنة .

قلت : لنترك أسلوب المهنة فإني سأعرف ذلك عند وصولي إلى لندن أليس كذلك ؟ حسناً أخبرني ما بي الآن ؟

وهنا هز كتفيه وقال : حسناً إنك مريض بالسرطان منذ مدة في المرىء مع مضاعفات في الرئتين ، ولم أرغب إخبارك بهذا إلا أنك طلبت مني ذلك .

وعند سماع كلمة سرطان توقف نبضي على ما يظهر فقد كان في هذه الكلمة شيء غريب . فسألته إن كان الوقت متأخراً لإجراء أية عملية ؟

نظر إليّ في وجهي وقال : أخشى أن أقول كذلك .
قلت : كم من الوقت بقي لي ؟
قال : لا يمكنني معرفة ذلك فقد يطول مع البعض وقد لا يطول عند البعض الآخر .

سألته : كيف الأمر بالنسبة لي ؟

قال : حسناً ، إذا أردت جواباً فإني أقول شهرين أو ثلاثة شهور ، ولكن من الصعب تحديد الوقت بالضبط (وأنهى قوله بابتسامة ملؤها العطف وقال) إني متأسف يا صديقي لأن مثل هذا القول شيء يصعب أن يتلقاه أحد ولكنك أصررت أن أقول لك هذا . . مع السلامة ورافقك الحظ .

صافحته ، وبشكل ما تمكنت أن أخرج إلى الهواء الطلق ، وفجأة تنبهت إلى قوة الملاحظة التي يتمتع بها الرجل المحكوم بالموت فكان طعم الهواء نسيته ، وعند خروجي استنشقت عميقاً في رئتي اللتين كانتا على ما يظهر يتقددان بسبب هذا المرض الخبيث . وهنا أصبحت الدور والناقلات العسكرية والنسوة البلجيكية والمحارم والألبسة الملونة كلها ذات مغزى لدي . وكان هذا قبل حلول العيد بيومين فقط ، وعرفت أنه العيد الأخير الذي سأشاهده في الحياة ، وكانت نبضاتي كدقات الطبل أسير معها نحو الموت الذي كنت على وشك الوصول إليه .

ولساعات طوال كنت أتجول في شوارع بروكسل محتاراً في أمري ، وكان الموضوع كابوساً يجب معالجته بسرعة ، إلا أن الأطراف الحادة للمظروف الذي حمل (حكم) (الموت) ذكرني بالحقيقة الخانقة وكانت أصابعي تمتد بين لحظة وأخرى إلى جيبي تتحسس المظروف الخطير . وبطريقة ما وصلت إلى القيادة فطلبت تزويدي بتذكرة سفر إلى لندن ، وقد كنت تواقاً لترك بروكسل كما يفعل بعض الحيوانات في حفر القبر قبل الموت ، إلا أن جميع المقاعد في الطائرات كانت محجوزة بسبب عيد الميلاد ، وأخبرت بأنه لا يمكنني السفر قبل ٢٧ كانون الأول فهززت كتفي مستهزئاً من خيبة الأمل التي إعترتني لأول وهلة وقلت في نفسي : ليترك الأموات للأحياء فرصة التمتع بالعيد فما الفرق بين يوم أو يومين بالنسبة لرجل لا يمكنه الهرب من نهايته ؟

بعد هذا رجعت إلى الثكنة التي كنت ملحقاً بها ، وكان لا بد من شرح أسباب سفري المفاجىء إلى المملكة المتحدة ، ولكن الأخبار إنتقلت بسرعة وعلم الجميع الأسباب التي دعت إلى تركي المفاجىء . . فكان العطف والخجل واضحين على وجوه زملائي الضباط الانكليز ، وكل ما يمكنني قوله هو أن عيد رأس السنة هذا أسوأ عيد في حياتي ومزعجاً بالنسبة لأصدقائي أيضاً ، وكنت بالتأكيد الجنازة في الاحتفال .

وفي ٢٧ كانون طرت إلى لندن ، وأول عمل قمت به هو الاتفاق على موعد مع طبيبي الخاص ، وعند وصولي إليه سلمته المظروف المميت ففحصني وقال : أظن أن طبيبك العسكري قد فحصك بأشعة أكس قبل الوصول إلى هذه النتيجة .

أجبت : كلا .

قال : ماذا تقول ؟ ألم يقم بفحصك بالأشعة ؟ كيف إذن يمكنه الوصول إلى نتيجة حاسمة في موضوع خطير قبل إعطائك وجبة من الباريوم ثم يقوم بفحصك بالأشعة ؟ وبصراحة يا بنتو إني لا أجد أي أثر في هذا

الفحص الابتدائي للسرطان ولا يمكن بالطبع إعطاؤك القول الفاصل قبل القيام بالفحوص الكاملة وبفحص الأشعة هذا فيما يتعلق بالطبيب المدني على الأقل . وعلى ما يظهر أن الأطباء في الجيش يتخذون قرارات سريعة .

وفي أعماقي افاق الأمل وأخذ يذيب الجليد الذي إعتراني وتساءلت في نفسي عن الأعمال التي سأقوم بها إن كنت غير مريض . .

وقال طبيبي : سأقوم بعرضك على طبيب مختص ليفحصك فحصاً دقيقاً ، وكلما كان ذلك سريعاً كلما كان أفضل . . فهل يمكنك الحضور هنا غداً صباحاً مثلاً ؟

أومأت برأسي ولم أستطع الكلام .

وفي اليوم التالي ذهبت إلى الاختصاصي ، وبعد أخذ وجبة الباريوم فحصت بالأشعة بالتفصيل . وبعد يومين أرسلت مرة أخرى إلى طبيبي الخاص وكنت قلقاً جداً على نتيجة الفحص النهائي ، وعند دخولي غرفة الفحص عرفت شعور المحكوم بالاعدام عندما يعرف أن هناك إعادة نظر سريعة بالموضوع .

إستقبلني طبيبي فرحاً وكان يفرك بيديه وقال : حسناً يا بنتو ، إني أحمل لك أخباراً سارة . ولا يمكن لطبيب أن يختلف مع زميل له علنا ولكني يجب أن أخبرك أن طبيبك العسكري على خطأ ، فليس هناك أي أثر للسرطان في أجهزتك ، إلا أنك تعاني بكل تأكيد من تعب كثير وعصبي أيضاً ، وأي شخص عادي يمكنه ملاحظة ذلك . ليس هناك أي مرض عضوي فيك ولا تحتاج إلا إلى شهر أو شهرين من الراحة التامة لتسترجع قواك ثانية وكفاءتك وتبدأ تطير من مكان لآخر كالعصفور . . . حسناً قل شيئاً فالذي يراك يخالك تفضل الموت .

لم أقل شيئاً ، وعرفت في تلك اللحظة معنى العفو في صباح الاعدام .

وللثلاثة أشهر التالية تمتعت براحة تامة .

وعند إيقاف هجوم الأردينس اربك ـ آخر هجوم ألماني ـ وتم تحطيمه أصبح من الواضح أن الحرب في أوروبا قد وصلت إلى نهايتها ، فعرفت أن هناك كثيراً من الأعمال تنتظرني ، ولكني أبعدت التفكير عن المستقبل وقلت : لينتظروا . .

كنت متمتعاً براحتي تاركاً الأيام تمر حيث عرفت أن هذه هي الفرصة الأولى في الحياة التي أوقفت فيها الفعاليات الفكرية والعضلية خلال الخمس سنوات الماضية .

وفي هذه الأثناء كان موضوع موت بنتو المحتم يتداوله ضباط الأمن البريطانيين ، وبكل وضوح قد وصل الخبر إلى العدو . . فلم يكن هناك من يحزن عليّ لأن مهنتي لم تترك لي الفرصة للحصول على الأصدقاء . وكنت متأكداً أن الكثير من الأصدقاء سيفرحون لخبر وفاتي فلم أفكر في لوم أحد أثناء تمتعي براحتي .

وفي نهاية آذار ١٩٤٥ إسترجعت جميع قواي الفكرية والعضلية فعدت إلى مهمتي في أوروبا . وبعد ستة أسابيع جاء النصر الاوروبي بتحرير كافة المحافظات الهولندية الشمالية حيث كانت هناك جيوب من المقاومات الألمانية تقاتل بعناد . ولقد ذهبت إلى الهيك في مهمة في أوائل حزيران ، فكان أول عمل لي هناك هو إستجواب أحد أعضاء الخدمات السرية الألمانية والذي كان من أصل هولندي .

وكان هذا موقوفا بالسجن السياسي المسمى (الفندق الاورنجي) الواقع على الساحل في مصيف شفننكن قرب الهيك ، وقد قامت بادارته السلطات العسكرية الكندية وكان هناك جناح خاص بالسجناء السياسيين والمتعاونين الذين من واجبي استجوابهم . وقد قبض على هذا الجاسوس ـ كما يقولون ـ في (السلة) حيث كان لا يزال يرتدي بدلة الـ : اس . اس

السوداء ، وقد قبض عليه المقاومون الهولنديون ، وكانت على بدلته شارة سوداء وحمراء تبين أنه من حملة الصليب الحديدي الالماني . وعندما نظرت إلى جمجمته وعينيه الشبيهة بعيون الخنازير ومنظره القبيح الذي على ما يبدو كأنه نموذجا من نماذج منتسبي الـ : اس اس ظننت أن الموضوع سهل ولا يحتاج إلى عناء كبير ، فقد اعتقدت أن الشخص الذي يقبض عليه ببدلة العدو لا يمكنه أن يجد عذرا مشروعا . . إلا أنني كنت على خطأ .

واثناء الانستجواب تعرضت له رأسا وقلت : إني اعرف بانك متعاون ولا يمكنك الآن إلا أن تشرح لي سبب ارتدائك لهذه البدلة وإن كان صعبا ، اليس كذلك ؟

ورد غاضبا : كيف تجرأ على اتهامي بالتعاون مع الالمان ؟ إني مواطن هولندي جيد ومن الذين عملوا لوطنهم باخلاص .

نظرت اليه وقلت : انت . . هولندي شريف ؟ وبالنسبة لقولك هذا يمكن أن نعتبر غورنغ اضعف رجل في الوجود وهملر احد معلمي مدارس ايام الاحد . وإذا كنت وطنيا كبيرا فكيف يقبض عليك في هذه البدلة ؟ وكيف ينعم عليك الالمان بهذا الوسام ؟ إنها لدنيا غريبة . . .

قال : لقد فهمت امري خطأ يا سيدي ، فأني اعترف أنه شيء غريب أن تجد بهذه البدلة مواطنا هولنديا ، ولكن يمكن شرح كل شيء (وهنا كان يفتعل الغضب) ، أنه لشيء مبك أن نجد شخصا عرض حياته للموت مرة بعد اخرى في سبيل وطنه أن يوضع رأسا في مثل هذا السجن ، بينما يتمتع جميع المتعاونين والاصدقاء للجيش الالماني بالحرية وحتى بالفخر احيانا ، والآن لقد طرد الالمان فخرج هؤلاء من جحورهم واشغلوا المناصب الجيدة ، وعندما تشاهدهم يمرون بسياراتهم لا تشك ابدا في أنهم كانوا كالقفازات بايدي الالمان ، اما أنا فانام في السجن . . . أنا الشخص الذي عمل الكثير من اجل وطنه . إن هذا بعيد عن العدل .

وهنا خففت من غضبه بأن قلت : أيها البطل اخبرني عن هذا الموضوع المحزن ، انك مظلوم .

ـ آه ، اجدك لا تصدق قولي هذا ، إلا أنه الحقيقة . لقد قمت بالالتحاق بالـ : اس اس فعلا لأني امرت أن اقوم بهذا العمل . لقد امرني ضابط كبير هولندي في الخدمات السرية وقد اعطاني تعليمات واضحة عن كيفية التطوع والاجابة على الاسئلة ، وعند التحاقي طلب مني أن اقوم باكتشاف بعض الاشياء ، وقد خصص لي شهرين لكتابة التقرير واعطاء ذلك إلى احد ضباط ارتباطه ، وكان عليّ أن اقابل ذلك الضابط في الـ (بومبجس) في روتردام .

لم اصدق هذه القصة لأني سمعت الكثير مثلها خلال السنين الطويلة التي عملت فيها بمكافحة الجاسوسية ، إلا أن محكمة عسكرية قد تأخذ بها إلا إذا وجد دليلا قاطعا على العكس . وكانت هناك حوادث كثيرة مثل هذا النوع لأن بعض الوكلاء يجازف بحياته ويدخل القوات العدوة وبعد نهاية العدوان يتهمون بالتعاون والخيانة ، ولا يستبعد في كون هذا الرجل منهم . إلا أني لم ادخل في ظني مثل هذا التفكير ، وعلى اي حال كان لا بد من اتخاذ رأي معين بشأنه فاستمريت باستجوابه . .

قلت : حسنا ، كان عليك أن تقابل ضابط الارتباط هذا كل شهر فماذا كان اسمه لنتمكن من معرفته في سجلاتنا ؟

وهنا ابتسم وقال : في العمل السري لا يبحث الشخص عن الاسماء والعناوين فكلما كانت معلوماتك عن الشخص الذي تتصل به قليلة كلما كان ذلك افضل . وأني لم اطلب منه اسما أو طلب مني اسمي إذ كان لدينا الكثير من العمل فلم نضيع الوقت في كشف اوراقنا . .

قلت : ارى ذلك . اشكرك على اعطائك اياي بعض المعلومات عن العمل السري وقد استفيد من هذه المعلومات . وبما أنك لا تعرف اسم ضابط الارتباط هذا هل تعرف اي شيء عنه ؟

أخذ يفكر قليلا وقال : حسنا سيدي ، لقد التقيت به كما ذكرت نتيجة لتعليمات الضابط الكبير في الخدمة السرية ..

قلت : الآن وصلنا إلى شيء . هذا الضابط الكبير يجب انك عرفت عنه الكثير ، وما عليك إلا أن تخبرني باسمه لغرض أن احصل لك منه على تأييد لاعذارك . وإذا فعل ذلك سيطلق سراحك فورا .

هز رأسه وقال : هذه هي المصيبة يا سيدي ، فلو كان صديقي هذا موجودا لما بقيت في هذه الزنزانة ، ولكنه مات لسوء حظي .

قلت : مات ؟ هل قبض عليه الغستابو ؟

اجاب : لا يا سيدي لم يمسكه الغستابو ولم يتمكن الغستابو من مسكه فقد كان يستطيع التملص منهم .. لقد مات المسكين موتا طبيعيا .

فتساءلت : ماذا كان سبب وفاته ؟

اجاب : لقد مات بسبب السرطان .. سرطان في المعدة .. كما سمعت .

وهنا شعرت بشعور غريب في جوفي وقلت : حسنا أن هذا موضوع يستحق العطف ، ومع هذا يجب الا تكترث فقد يمكنه مساعدتك إذا ذكرت لي اسمه حيث يمكن مراجعة مستنداته السرية للغاية وايجاد ذكر لأسمك فيها ، وقد يعرف احد معاونيه شيئا عن موضوعك ... والآن ، ما اسمه ؟

فاجابني بدون تردد : بنتو سيدي .. العقيد بنتو .

ولم اتمالك نفسي ووجدت صعوبة في أن يكون وجهي طبيعي ووجدتني مضطرا للعطس .. واخذت امسح انفي .

قلت : اظن أني سمعت بهذا الاسم ، ولكني لم اعرف أنه مات ، والانسان المشغول يفقد الكثير من الاخبار . وعلى كل حال استمر .. كان

العقيد بنتو كما تقول هو الذي اعطاك الاوامر بالالتحاق بالـ : اس اس الالمانية اليس كذلك ؟

قال : نعم سيدي .

فسألته فيما إذا عرف بنتو لمدة طويلة . .

اجاب : نعم سيدي لعدة اعوام ، وقد قمت بعدة اعمال بامرته .

قلت : اذن فإن العقيد بنتو وثق بك ، اليس كذلك ؟

قال : نعم سيدي ، بكل تأكيد لقد عرف أني اقوم بأي عمل يطلب مني القيام به حتى أني اخاطر بحياتي لكلمة يقولها ، وكان يعمل اي شيء من اجلي يا سيدي . ولو أنه لا زال حيا لأخرجني من هذا السجن منذ مدة طويلة .

قلت : لا تقلق فأني وإن كان العقيد بنتو ميتا فسأقوم ببعض الاستفسارات وإن كان موضوعك واضحا . وأني سأجد في مكان ما في قيادة العقيد بنتو بعض ما يدعم قولك من المعلومات والمستندات . ولو أني سمعت عن العقيد بنتو إلا أني لم اقابله وجها لوجه . . هل لك أن تصفه لي ؟

قال (وقد بدى عليه التركيز) : لا اتمكن من وصف الاشخاص ، ومع هذا لم يكن هناك شيئا غريبا في مظهر بنتو فقد كان وجهه مشرقا دائما وتكتنفه سمات التوفيق واظن أن ذلك جزء من نجاحه يا سيدي ، وقد كان معتدل الطول والجسم ولم تكن لديه علامات فارقة .

قلت : حسنا ، هل يمكن القول بأنه يشبهني إذا نظرت اليه ؟

وهنا نظر إلي مبتسما وقال : لا وحق السماء يا سيدي ، لم يكن يشبهك مطلقا .

فقلت : هذا ما اردت أن اعرفه منك ، فإن موضوعك بسيط وغير معقد وأني مسرور بالتحدث معك ، وعندما اقارن اقوالك بالمستندات سأتأكد

من أنك ستنقل من هنا . وبما أنك قد خدمت وطنك كثيراً سأجعل من واجبي مكافأتك بما تستحق .

وهنا قال : شكراً لك يا سيدي ، فإني لا اتمكن من وصف ما اكنه لك بسبب عطفك .

فقلت : هذا واجبي ، وأني اقوم بأي شيء بالنسبة لرجل في مثل موقفك هذا ، ومع هذا يمكنك أن تقوم بشيء واحد من أجلي ؟

فقال وقد بدا نواقا لارضائي : ما هو يا سيدي ؟

قلت : بعد ذهابي الآن ربما تتذكر تفصيلات كثيرة من المعلومات حول الاعمال السرية التي قمت بها ، وقد تنفع هذه المعلومات الكثير ، ومع هذا أنا ارغب كثيرا لمعرفة شيئا عن تفاصيل عملك الخطر ، ويمكنك بعد الاستراحة أن تسجل كل شيء عما قمت به خلال السنين الاخيرة ، وأرجو أن لا تترك اي شيء مهما كان بسيطا ، وسأطلب تزويدك بكل ما تحتاجه من الورق . وعند الانتهاء من ذلك ارجو أن تسلمها للحرس ، وإذا كانت معنونة جيدا ستصلني .

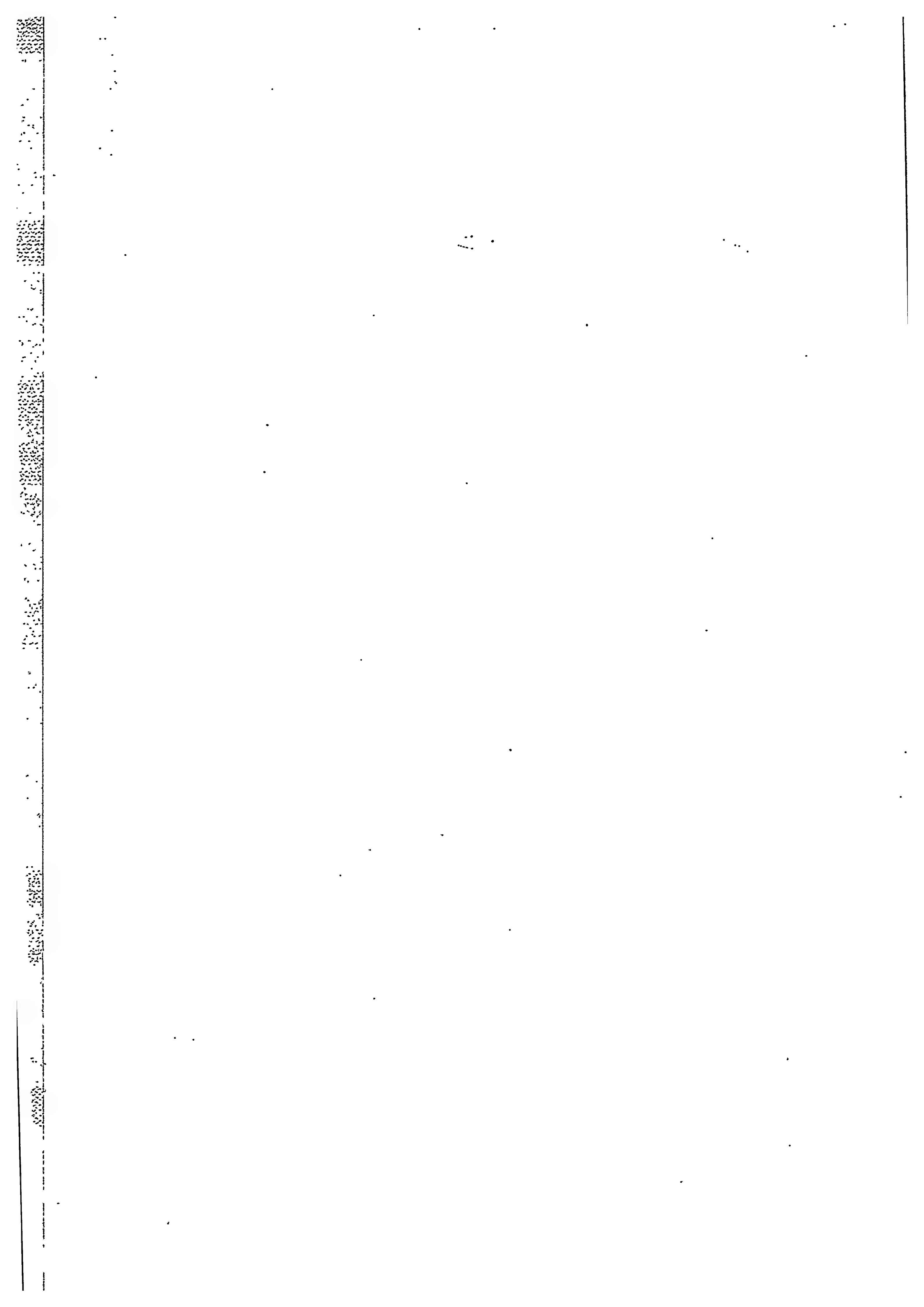
قال : حسنا سيدي ، سأقوم بكتابة ما استطيعه . . واضاف : بالمناسبة يا سيدي إلى من سأبعث بالملاحظات ؟ إني متأسف لأني لا اعرف اسمك .

لم اتكلم شيئا لفترة قصيرة من الوقت ، واخذت انظر اليه . . ثم قلت : اسمي ؟ اسمي بنتو ؟ العقيد بنتو !

وقد ذكر الكاتب في نهاية الفصل هذا أنه لا يزال يحتفظ بالتقرير الطبي الذي اعطاه اياه الطبيب العسكري المختص حول اصابته بالسرطان . ويذكر أنه يحتفظ بذلك التقرير ليذكر نفسه أن (الخبراء) قد يخطأون احيانا ايضا .

الفَصْل الثامِن

تكلّم في النهايَة



في ملحق الفصل الثاني ذكرت أن من الخطأ بالنسبة للضابط مكافح الجاسوسية أن يعتمد على الانطباعات الشخصية التي يأخذها عن بعض المتهمين ، لأن الجاسوس الماهر يدرب لاعطاء انطباع ماهر . . واهم ما في تجارته هو التظاهر بالصراحة والشرف . فهو يبدأ لغرض أن يعتقده الناس مواطنا فاضلا يوجه قابليته التمثيلية لهذا الغرض ايضا . والشخص الاعتيادي لا يتمكن من اعطاء الانطباع الجيد إلا إذا كان تاجرا أو بائعا حيث عليه أن يكون جذابا بحكم المهنة بالاضافة إلى أن الرجل الشريف لا يحتاج كثيرا من التظاهرات والتأكيدات لاثبات صحة ادعائه ، فهو يعرف أن مستجوبيه سيفطنون للحقيقة دون سرد مسهب لقصته وذلك لأنه يعرف أنه بريء .

ومن الخطأ الوصول إلى قرارات حاسمة بسرعة من قبل مكافح الجاسوسية ، ومع هذا فإن الرجل الذي لديه خبرة في الاستجواب قد يتمكن غالبا من وزن المتهم . وقد نطلق على هذه القابلية حدسا إلا أن الخبير يستفيد من ملاحظات على المتهم كما هي الحالة بالنسبة للمهندس المدني عند استعراضه تصميما ما . وكما هو الحال بالنسبة للمحرر الذي يمر سريعا على المواضيع نجد أن المدرب على الاستجواب يحصل على فكرة واضحة عن المتهم من اول نظرة اليه ، ومن غير المعقول أن نعتمد على مثل هذه الاستنتاجات إلا أنها قد ترشدنا إلى بعض الحقائق .

وهنا لا اتذكر اي حاسة ارشدتني إلى الاعتقاد بأن بولانجر جاسوسا المانيا ، ففي هذه الاثناء بدأ زخم الهجوم الحليف ووصلت القوات الحليفة إلى بلجيكا ، وكانت الدبابات والمدافع ذاتية الحركة تتقدم المشاة وكذلك المدافع بعيدة المدى ترعد في الافق . وعلى احد تقاطع الطرق نصبنا قيادة استخبارية مؤقتة ، وقد حفرنا الخنادق وخنادق المواصلات واسندنا الجدران بأكياس الرمل . وقد شغلت قيادة الفرقة التي كنت بامرتها بنايات الحقل المجاور ، وكان علينا أن نحفر خنادقنا بايدينا ونقوم بالحماية ايضا . وكانت هناك محاسن في عدم الارتباط الوثيق بالقيادة فقد كنا نتمتع بنوع من الاستقلال ، إلا أننا فقدنا نتيجة لذلك من يسهر على راحتنا فكان علينا أن نتدبر أمر اسكاننا بانفسنا .

ولنرجع هنا إلى بولانجر . . لقد جاء به ضابطان من ضباط أمن مقر قيادة الفرقة . وقد وجد يتجول بوضع مريب قرب احد القرى البلجيكية المهجورة بجدرانها السوداء وكتل الحجارة التي كانت تحكي القصة الصامتة للقصف .

نظرت إلى بولانجر مدة طويلة من الوقت دون أن اتكلم معه . . وكان مرتديا لباس الفلاحين الاعتيادي في تلك المنطقة ويتكلم الوالونية الخاصة بتلك المنطقة ، إلا أنني كنت اشك في مظهره وقدح عينيه الزرقاوين . وقد كانت رقبته اشبه برقبة الثور ، وهيئته الضخمة تختلف عن هيئة الفلاحين النحيفة في تلك المنطقة . .

سألته : انت فلاح ؟

قال : كنت فلاحا ، اما الآن (وهنا فتح يديه) فقد أخذ الالمان جميع حيواناتي حتى البط الصغير ، وتغطي حقولي الآن حفر القنابل وقد هشم كوخي وماتت زوجتي واختفى الآخرون . .

وفجأة رفع يديه ثانية واحنى اصابعه كالمخالب فرأيت اظافرة الممزقة المحشوة بالطين وكانت هناك بقع سوداء تحت اظافره للدم الحبيس .

واستمر قائلا : لقد حاولت أن ابحث عن زوجتي فوجدتها تحت الانقاض في الظلام وقد كانت تخشى الظلام . لقد بحثت عنها باظافري كما تبحث الدجاجة إلا أنها كانت ميتة .

وبعدها صمت صمتا عميقا حزينا . .

وهنا سألته : هل يمكنك العد ؟

فاستغرب سؤالي هذا فرمشت عيناه وتساءل : اعد ؟

وكان بجانبي طبقا من الفاصوليا اليابسة (حرره) احد الجنود من احد الفلاحين المقتصدين ، فدفعته نحوه وطلبت منه أن يعد بصوت عال . . فاخذ يعد بهدوء : واحد . . اثنان . . إلى أن وصل إلى الاثنين والسبعين ، وعندها اوقفته حيث لم يذكر ما قد يخطأ اللغوي في المانيا فيه بل قال ما يقوله الفلاحون الوالونيون في تلك المنطقة . ولحد هذه النقطة كان كل شيء على ما يرام . . ولكنني لم اقتنع بقول بولانجر من أنه فلاح بلجيكي شريف اضاع كوخه وماتت زوجته وخرب حقله . ولحسن الحظ كان هناك شيئا من الفتور في تلك الفترة في اعمالي واصبح بالامكان تخصيص وقت اطول مما كان يمكنني وهو لا يخسر شيئا إذا كان بريئا ولكنا نكون قد قمنا بواجبنا إذا ثبت لنا أنه جاسوس .

أمرت أن يوضع في غرفة صغيرة لوحده وقد كانت هذه جزء من مظلة ابقار غير مستعملة . وقد أغلق الباب من الخارج عدا فتحة صغيرة بمثابلة عين سحرية كانت بين خشبتين . . ومن خلال تلك الفتحة وضع تحت المراقبة المستمرة . وعند الذهاب للنوم انحنى بولانجر للصلاة ولم يعرف أن هناك عيونا كانت ترقبه وتراقب كل حركة يقوم بها . . ومع هذا صلى الصلاة التي قد تعلمها من قس والوني في الطفولة . وهنا قفزت فارة عبر الغرفة فقال : ديو . . . (للمفاجئة) . وكانت هذه عبارة والونية دارجة ، وبعد فترة نام فجمعت بعض العيدان وخرقتها خارج الغرفة ، وعند تصاعد الدخان اخذ بعض الجنود يتزاحمون ويصيحون بالالمانية : النار . . النار . فافاق بولانجر

مذعورا ، إلا أنه انقلب إلى الجهة الثانية ونام . وبعد فترة تزاحم الجنود عند بابه صارخين : النار . . النار (بالفرنسية) نهض عندها بولانجر مذعورا واخذ يدق على الباب . وعندما فتحت الباب له وجدته يتمتم مصليا بالبلجيكية .

لقد اجتاز اختبارا آخرا ولكني لم اقتنع لحد الآن ، وكنت اسأل نفسي عما إذا كان بولانجر شخصا عاديا أم جاسوسا المانيا قوي الاعصاب ؟ وهل أنه ممثل قدير ؟ إذ كان موضوعه غامضا بالنسبة لي حتى أني لم اجد دليلا واحدا ضده .

وفي اليوم التالي قررت أن اقوم بطريقة اخرى لاختباره . . فقد رتبت له موعدا للحضور لدي في قيادة اركان الفرقة ، وقد طلبت حضور احد الضباط من اعواني والذي كان عليه أن يقول مسكين بالالمانية بعد أن اتكلم مع بولانجر وأوجه له بعض الاسئلة ، ثم الاستمرار بالتحدث معي بالالمانية . .

ادخل بولانجر مع الحرس إلى مقري ووقف أمامي خلف منضدة الطوى الخاصة بالمعسكرات والتي نثرت عليها لوازمه التي اخذناها منه عند القبض عليه . وقد كانت لوازمه اعتيادية إذ وجدنا بينها قلما وخيطا وكمية من التبغ وغليون من الفخار من صنع قروي ، وكانت معه ايضا كمية قليلة من الفرنكات ولم يكن هناك أي شيء غريب بين هذه الحاجيات .

وقف امامي بولانجر منفوخا كالحيوان فاخذت اقلب لوازمه، ورفعت القلم وسألته عن سبب حمله اياه .

قال : إنه قلم . . وهز كتفيه .

قلت : هل تحمله لغرض كتابة الرسائل للعدو ؟

فابتسم ابتسامة باهتة تشبه الاحتقار كما لو كان السؤال تافها ولا يحتاج إلى اجابة .

وهنا ادرت وجهي نحو ضابط الأمن وقلت بالالمانية : مسكين . فهز ضابط الأمن رأسه وقال : جدا .

فاردفت قائلا : إنه لا يعرف بأنه سيعدم بعد ساعة من الآن . . أي في الساعة الثانية عشرة . . ولم يبق امامه سوى ساعة واحدة . . فهو بكل وضوح جاسوس ولا يمكنه أن يتوقع حتفا آخرا .

واثناء حديثي هذا كنت ارقب بولانجر وخاصة عينيه ووجنتيه . ومهما كان الشخص شجاعا ومسيطرا على اعصابه يكون عادة قليل السيطرة على ما يسمى بالاعصاب اللاارادية ، فهذه تنفعل لاارادیا كالرمش عند اقتراب الاجسام الغريبة من العين أو الاصفرار عند سماع الحكم بالاعدام أو ابتلاع الريق ، ولكن بولانجر لم يقم بأي من هذه الاشياء مع أنه كان يعرف أنه متهم بالجاسوسية ، ولم تظهر عليه أي علامة من علامات الخوف وهنا لم يبق امامي سوى الاستنتاج بأنه لا يفهم الالمانية ولا يمكن أن يكون جاسوسا المانيا . .

وفي هذه المرحلة كان علي الاعتراف لنفسي بأن انطباعي السريع الأول الذي بنيته على ادلة غامضة ظهر كما يبدو بعيدا جدا عن الحقيقة ، وكنت اكره أن يجرح كبريائي بالاعتراف بالخطأ أو قد يكون بسبب حدسي في عقلي الباطن فقررت استجواب بولانجر مرة اخرى . .

وفي اليوم التالي جئت بفلاح بلجيكي من تلك المنطقة ليقابل المتهم وقد حضرت تلك المقابلة . وعند تحدث القروي معه عن الزراعة كما اوعزت له اقتحم بولانجر الحديث بكل شغف ، وحتى بالنسبة لي ظهر أنه يعرف الكثر عن الزراعة المحلية . وقد أخبرني القروي بأن بولانجر لم يخطىء خطأ واحدا في موضوع المزروعات والاحوال المحلية وطرق الزراعة . .

ومرة اخرى كان عليّ الاعتراف بأني وصلت إلى نهاية مغلقة في اختباراتي ، وازداد شكي في أني وقعت في نفس الاخطاء التي كنت احذر الذين دربتهم على مكافحة الجاسوسية من الوقوع فيها . . وقد كنت اقول لهم

أن على ضابط الأمن أن لا يسمح لنفسه أن يتأثر بالانطباعات ، بينما وجدت نفسي هنا اقع في نفس الاخطاء . فاخذت استعرض موضوعه في ذهني من اول لقاء لي معه لأجد اشارة أو دليل يساعد في اكتشافه ولأدعم انطباعي عنه ، ولكني عجزت عن ايجاد اي شيء .

وقبل أن انام قررت أن اجرب تجربة اخيرة في الصباح التالي ، وقلت أنه إذا اجتاز تلك التجربة فإني قد اتهمته بالجاسوسية بدون حق وما عليّ سوى أن اخلي سبيله ، وكنت افكر حتى في الاعتذار اليه لاتهامي اياه .

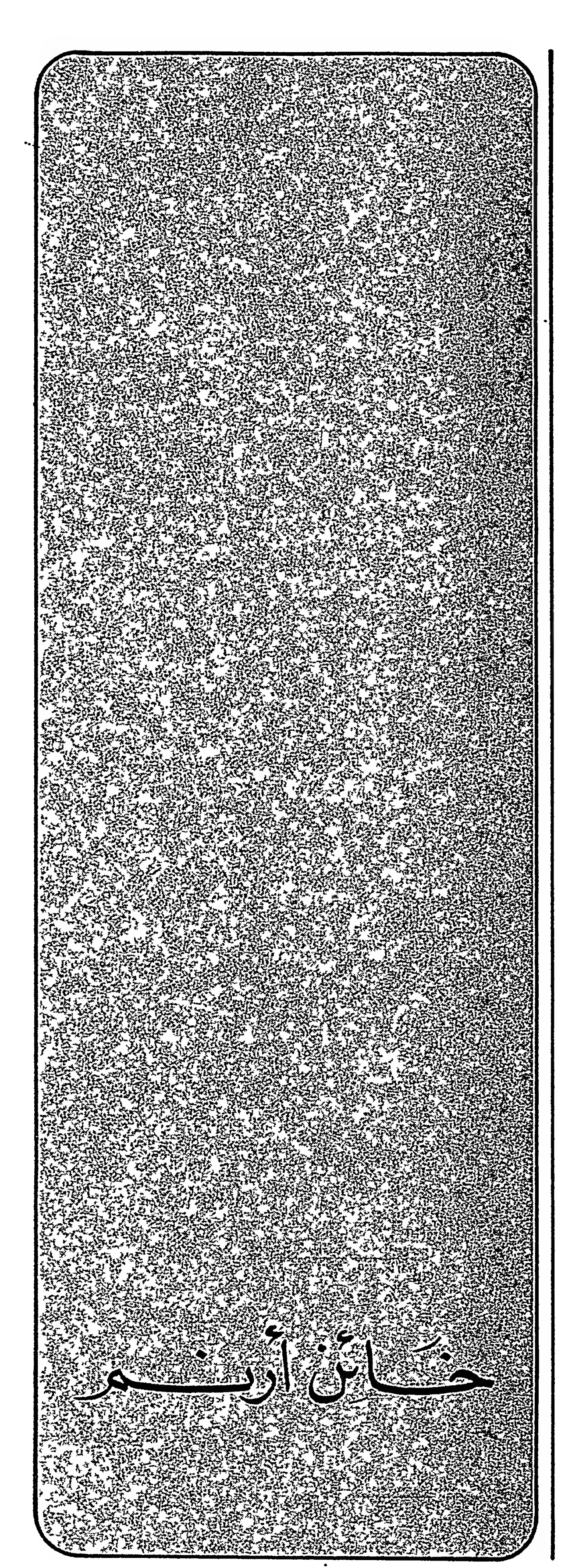
دخل مكتبي في اليوم التالي ووقف كما عهدته صلبا وصلفا . وهنا احنيت رأسي واخذت اقرأ مستندا مطبوعا موضوعا امامي على المنضدة . وعندما انتهيت من القراءة اخذت قلما ووقعت في نهاية الورقة . وعندما انتهيت من ذلك وضعت القلم ونظرت اليه وقلت بحدة بالالمانية : حسنا أني اقتنعت الآن من أنك بريء ويمكنك أن تذهب . . انك حر الآن .

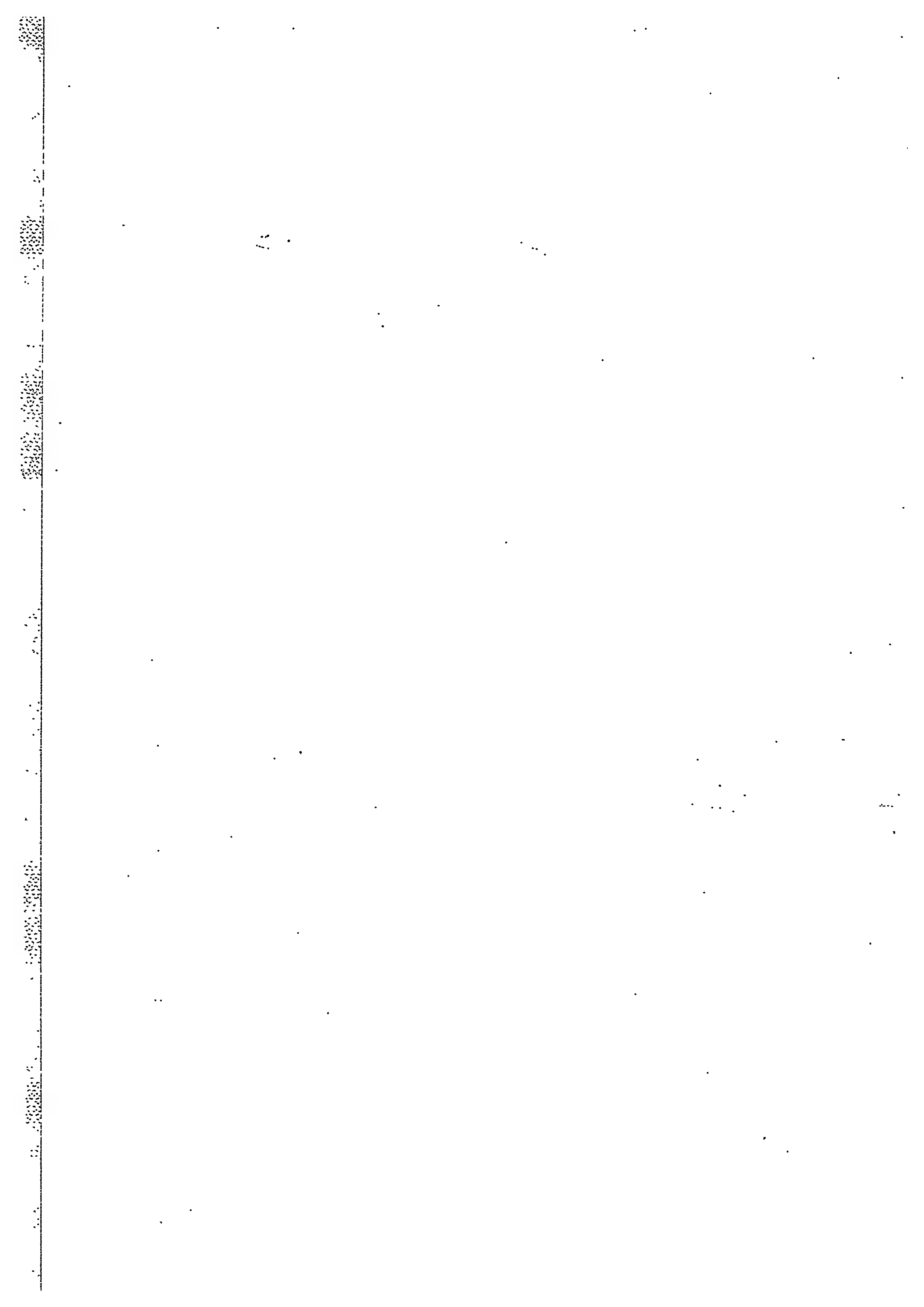
تنفس عندها عميقا وهز كتفيه كما لو أنه رمى حملا ثقيلا عنه ورفع وجهه إلى الأعلى كما لو أنه يشعر بالحرية . وعندما سمع افتعالي الضحك صلب جسمه وحاول الرجوع إلى وضعه السابق ولكنه فعل ذلك بعد فوات الأوان . .

وهنا قلت بالالمانية : يا صديقي الحر . . . . ونهضت .

ومن تلك اللحظة حتى اعدامه ـ بعد عدة ايام ـ لم نتكلم الا بلغته الالمانية .

الفَصْلُ التَّاسِع





موضوع هذا الفصل أهم موضوع مر بي ، وقد يكون اهم موضوع في تاريخ الجاسوسية . وقد يكون في القول الاخير شيئا من المبالغة إلا أنني سأحاول اثباته .

وقبل كل شيء ارغب أن لا يعتقد القارىء أن قولي هذا جاء نتيجة كوني الشخص الذي اكتشف الرجل الذي اساء كثيرا للمجهود الحليف . ولكني سأحاول هنا أن اعرض الحقائق . فلو أن محاولة المارشال مونتي في ايجاد رأس جسر عبر جسور الماس والندرجن نجحت ، ولو أن القوات الرئيسية التحقت بقوات المظليين الجريئة في ارنم لكان بالامكان توجيه سيل من الدبابات نحو قلب المانيا .

والاستغلال الناجح لمثل هذا الهجوم كان بالامكان ان ينهي الحرب في اوروبا قبل عيد ميلاد سنة ١٩٤٤ وقبل موعد انتهائها بستة أشهر . وهناك القليل من الخبراء في السوق والتعبئة من يناقش مثل هذا الاحتمال . ولا يمكن قياس الاقتصاد بالارواح الذي كان يمكن أن يحل لو أن الحرب كانت اقصر . وكذلك كان بالامكان تجنب تبذير الملايين من الجنيهات ، فقد كانت الحكومة البريطانية وحدها تنفق ١٦ مليون جنيه يوميا ، ولو كانت الحرب اقصر بستة أشهر لكان يمكن احتفاظ بريطانيا وحدها بمبلغ ٢٩٠٠ مليون من

الباونات . ولو أننا نحاول تثمين جهود الولايات المتحدة في الحرب وجهود الدول الاخرى في تلك الاشهر الستة لكان بالامكان تعمير الارض مجددا . والاهم من ذلك لو أن الحلفاء دخلوا المانيا واحتلوا برلين قبل الروس لتجنبوا العلاقات السيئة بينهم بعد ١٩٤٥ ولكان بامكانهم التفاوض اقوياء .

وهناك حدود لا يمكن دفع الفرضيات اكثر منها . والافضل أن لا اضيف إلى هذه الاقوال القول الشائع للرضعان :

لعدم وجود المسمار فقد النعل .
ولعدم وجود النعل فقد الحصان .
ولعدم وجود الحصان فقد الفارس . . . الخ .

ومع هذا فإن الانزال المظلي الذي خطط بذكاء ونفذ بجرأة كان يمكن أن يكون نقطة التحول في الحرب الاوروبية . ولم ينجح الانزال كما عرف العالم ، ولم يكن الفشل بسبب انعدام الخبرة العسكرية أو الجرأة ، وفي الحقيقة كان الانزال في ارنم ملحمة بيضاء في تاريخ الجيش الانكليزي الذي قاتل ضد مصاعب متفوقة . وكان هناك رجل واحد تمكن من أن يجعل الانزال عملية فاشلة من البداية . . وكان هذا (لند مانس) . وسواء وضعنا مسؤولية اطالة الحرب الاوروبية ستة أشهر ام لا ، إلا أننا نضع مسؤولية قتل ٧٠٠٠ من القوات المنقولة جوا وخلال عشرة ايام في مصيدة اطبقت عليهم بالتدريج فلا يمكن لجاسوس أو خائن أن يوجه بضربة واحدة مثل هذا الهدم لمجهود وطنه أو حلفاء بلاده .

وكما ذكرت في فصل سابق كانت مهمتي تنظيم اجراءات الأمن خلف خطوط الجيوش الحليفة المتقدمة ، وكنت رئيسا للبعثة الهولندية لمكافحة الجاسوسية فكنت اتجول من فلاندرس إلى هولندا . وكانت مجموعة الجيوش هذه تشمل الجيش البريطاني الثاني والجيش الامريكي الاول والثالث والجيش الاول الكندي ، وهذه مجموعة ضخمة من الآلات والرجال بحيث تركت هذه الجيوش خلفها الخراب . . وهذا طبعا شيء ملازم لكل حرب ، فقد

فقد الكثير بيوتهم في المناطق التي التحم فيها الحلفاء مع الألمان الذين حاربوا في تلك الاثناء حربا وحشية . ولم يكن هناك جهاز اداري أو جهاز للشرطة لأن اكثر الشرطة والاداريين كانوا تحت السلطة الالمانية فلا يوثق بهم أو أنهم اختفوا . وكان النهب والسلب والجوع والثورة اتباعا طبيعية للحرب . ولم يتأخر الالمان في استغلال هذه المواقف فتركوا خلفهم الجواسيس والمخربين ليواصلوا الحرب خلف خطوط الحلفاء . وقد عمت الفوضى فاستغل الكثير فرصة ضياع الجهاز الاداري واجهزة الشرطة للعبث والتآمر والتواطؤ .

كان علينا أن ننشر النظام والقانون . . ولم يكن هناك شيئا يرضي القوات الالمانية اكثر من انشغال الحلفاء في تنظيم الأمن خلف خطوطهم . وقد كانت وسائلنا التي استخدمناها بسيطة ومهيأة مسبقا . فقد حجزنا الكثير في معسكرات خاصة واحطنا تلك المعسكرات بالاسلاك الشائكة ونصبنا الاسلحة الرشاشة التي كان بامكانها أن تدافع عن تلك المعسكرات اوضدها إذا اقتضى الأمر . . فلم يتمكن احد من دخول هذه المعسكرات سوى الحرس وضباط الأمن .

لقد وضع في هذه المعسكرات كل الذين فقدوا ديارهم والذين لجأوا لنا ، وكذلك المتهمون بالتعاون مع الالمان والجواسيس ، وبعد هذا وزعوا مجددا بالتدريج . فعندما يثبت البعض نزاهته يرسل إلى مكان أفضل ويبقى في مثل هذه المعسكرات من يشتبه بهم ليستجوبوا ويحاكموا ليعاقبوا حسب جرائمهم ، وهذا طبعا اقتضى حجز حرية الابرياء لمدة من الزمن . وفي الحرب ـ للاسف الشديد ـ يقاسي كثير من الابرياء المشاكل من اجل الهدف الكبير فكان علينا أن لا نخطىء اخطاء قد تؤخر تقدم الجيوش الحليفة .

وبعد تحرير انتورب قررت بناء معسكر من هذا النوع خارجها . وفي أحد الايام كنت مارا من امام المعسكر فسمعت ضوضاء في الداخل ، فذهبت لأرى ما كان يجري هناك . لقد رأيت منظرا غريبا حقا . . رأيت

عملاقا اطول من الحرس القريبين منه وضخما لدرجة يكاد قميصه أن يتمزق لضخامة صدره وكانت عضلات زنديه متورمة تحت اردان سترته كضخامة فخذ الرياضي . وكان وزنه ـ على ما يبدو ـ يزيد على المائة وعشرين كيلو جراما . لقد كان قويا في كل تقاطيعه ، ولم يكفيه هذا بل سلح نفسه بما يشبه تسليح سرية منقولة جواً ، إذ كان يحمل سكينتين للقتال القريب في حزامه ويحمل مسدسا ضخما كان على سدادته الرقم ١٠٠٠ م وعلّق غدارة شمايزر على صدره ، وكانت هذه الغدارة تبدو كأنها مسدس ماء بالنسبة لصدره الضخم .. اما جيوبه فقد كان كل منها يبدو وكأنه مليء برمانة يدوية . وكانت متعلقة في كل ذراع فتاة جميلة ومحاطا بمجموعة كبيرة من الشباب الهولندي ممن اعجبوا ببطولته بكل وضوح . . وكان الحارس خجلا مترددا في منعه من الدخول . وسمعت صوت هذا العملاق الاجش وأنا اقترب من الخلق يقول : اخبر عقيدك بأن الملك كنج العظيم يكفل هاتين الفتاتين الوطنيتين ويجب أن يطلق سراحهما فورا ليشربا النبيذ معي .

وقد سمعت عن الملك كنج القائد الشجاع للمقاومة الهولندية الذي سمي بهذا الاسم لاسباب واضحة وكان محترما في كل انحاء اوروبا لقوته الهائلة وجرأته للكمائن الناجحة التي وضعها للألمان ، ولكنه لم يكن له الحق في دخول المعسكر واخراج فتاتين قبل أن يستجوبا من قبل الأمن .. لقد كان متجاوزا في هذا التصرف .

ناديته قائلا : تعال هنا ، أنت . .

فالتفت الي ورمشت عيناه وازاح الفتاتين وأشر بسبابته (التي تكاد أن تكون بسمك معصمي) إلى صدره وقال : هل تقصدني ؟

اجبت : نعم أنت ، تعال هنا . . .

تردد قليلا ولكنه جاء نحوي فكان اطول مني بكثير وإن كنت معتدل الطول . وقبل أن نتكلم امسكت النجمات الذهبية الثلاث التي كانت على ذراعه وقلت : بأي حق ترتدي هذه النجمات الثلاث ؟ هل أنت رئيس في

الجيش ؟ وإذا كنت كذلك فبأي جيش ؟

فزفر وقال : انتبه . . إني ارتدي هذه النجمات بموجب سلطة المقاومة الهولندية السرية . .

ـ فسألته مستهزئا من قوله : حقيقة ؟ ومن أنت ؟

قال : أنا ؟ (وكان الموضوع مفاجئا له بأن ليس هناك شخصا لا يعرفه) .

فالتفت إلى مؤيديه المخلصين وقال لهم بصورة تمثيلية : من أنا ؟ (ويكاد يقول أن هذه عجيبة الأرض الثامنة) وقال : يا عقيد كل واحد هنا يعرف من أنا . . إني اعيش في قلعة وتك في مقر قيادة المقاومة الهولندية . . (ونفخ صدره الضخم بحيث كادت تتساقط ازرار قميصة) وقال : أنا الملك كنج . . . .

فاجبته ببرود : إن الملك كنج الذي أعرفه كان قردا كبيرا .

وهنا تضاحك المحيطون به فاطبق اسنانه وجمع يديه وكاد يشبه مرادفه السينمائي . فمددت يدي إلى مسدسي الذي احمله دائما في نطاقي لأنه لو تمكن من مسكي بقبضتيه الضخمتين لكان بامكانه أن يقطعني كما تقطع العصي اليابسة ، ولكنه نظر إليّ دون أن يتحرك .

فاستغليت فرصة وضعه هذا وقلت : بما أنك لا تحمل رتبة عسكرية في الجيش الهولندي فلا يمكنك أن ترتدي هذه العلامات (وتقدمت نحوه ورفعت الشريط النحاسي الذي علقت عليه النجمات الثلاث) .

وهنا انخفض فكه الأسفل وتغير لونه فوضعت يدي على قبضة المسدس لئلا يهاجمني بجنون الكبرياء الجريح ، ولكنه مال إلى الخلف . . وكان الملك كنج هـذا خروفا أشبه بالصبي الصغير . ثم صاح لانقاذ إحترامه المفقود : سأشكيك بسبب معاملتك هذه عندما أصل إلى قلعة وتك بدون أي تأخير .

وذهب تاركاً الفتاتين ومجموعة العشاق يتمتمون في موضوع تركه المفاجىء .

كان هذا لقائي الأول مع الكنج كونج ، والمفروض أن أقدم له الاحترام كقائد للمقاومة السرية والذي عاون الكثير من اللاجئين ضد الغستابو وعاون الطيارين الحلفاء الذين أسقطت طائراتهم فوق هولندا المحتلة والذي حارب بجرأة ضد الشرطة السرية الألمانية دون أن يقبضوا عليه . ولو أنه طلب دخول المعسكر لرحبت به ولفتحت قنينة من الشراب على شرفه في نادي الضباط ، ولكني لم أقبل دخوله المعسكر دون إذن ، ودخوله معسكراً للأمن كان تجاوزاً على سلطتي ومثلاً سيئاً للموجودين في المعسكر من سجناء وحرس وذلك بالسماح لمدني مهما كان شهيراً أن يحطم نظام المراجعات العسكرية ويجتاز كل النظم .

وبعد هذا الحادث أعدت النظر في معاملتي لزائري غير المتوقع ، وقلت أن من الأجدر أن أعامله معاملة ألطف ، وإن جرح فخاره أمام الناس قد يكون تصرفاً غير لائق بل قد يكون تجاوزا لصلاحيتي . وقد يكون تصرفه المتهور هذا بسبب جهله العادات العسكرية ، وتساءلت عن مدى سوء معاملتي له . .

بعد هذا أوحى لي فجأة عن سبب تحمله إهانتي هذه بذلك البرود ، فالشخص الذي له مثل تلك السوابق يقف موقفاً صلباً حتى وإن كان على علم بخطأه وخاصة إذا كان على علم بخطأه ومحاطاً بالمعجبين . ومع هذا فإن الملك كنج قاسى من الاحتقار دون أن يرد بأي شيء سوى التهديد والتراجع بسرعة وبأول فرصة ، ومثل هذا لا يناسب سمعة كونج . ولهذا يجب بحث أمر تصرفه هذا . .

وعند رجوعي إلى قيادة الاستخبارات في القيادة العليا للقوات الأوروبية طلبت مساعدي ، وكان هذا رجلاً ذكياً عاش حياة متقلبة بين

عريف بالجيش الفرنسي وجاسوس في طنجة ويحتفظ بذاكرة موسوعية كانت مرجعاً للمعلومات والحقائق الدقيقة عن حركات المقاومات الأوروبية السرية وعن الجواسيس الذين لعبوا على طرفي الحاجز .

سألته : ماذا تعرف يا فلهلم عن قائد المقاومة السرية الهولندية الملقب بكونج ؟

فكّر برهة وركز ذهنه وسرد الحقائق قائلاً : إسمه الحقيقي كرشّان لندمانس ، ولد في روتردام من أب يملك كراج ، وهو مصارع وملاكم قديم وقيل أنه قتل عدة رجال في تمريناته هذه (وقد ذكر أن له العشرات من المحظيات) . ثم ضحك وقال : هل تريد أن أذكر لك أسمائهن ؟

هززت رأسي وقلت : هل تعرف أي شيء آخر ؟

ـ نعم سيدي ، إنه أكبر اخوانه الأربعة ، والجميع كانوا قادة في المقاومة وعملوا في تهريب النازحين . .

سألته : هل قتل أحدهم ؟

لم يتذكر فلهلم جيداً ، إلا أنه ذهب إلى مكتبة الملفات وجاء بملفة منها وأخذ يقلب صفحاتها وتوقف وقال : لا لم يقتل أحد منهم ، إلا أن الأخ الأصغر قبض عليه الألمان مرة مع صديقة له تعمل في الباليه وكانا يعملان في التهريب .

ثم نظر إلى الصفحة وأردف : وقد أفرج عنهما بعد ذلك .

قلت متعجباً : ماذا قلت ؟

هز كتفيه وقال : هذا ما يقوله التقرير وإن كان الموضوع غير ما هو معروف عن الألمان أليس كذلك ؟ ولكن هذا ما يقوله هذا التقرير .

ثم سألته فيما إذا كان هناك أي شيء آخر في التقرير بعدما إزداد شكي وتبلور . .

فقال : نعم سيدي . لقد قبض على لندمانس نفسه بعد أسابيع من هذه الحادثة بعد أن أصيب برصاصة في الرئة ، وقد أغار المقاومون على السجن وانتشلوه من مستشفى السجن .

فسألته : هل قتل الكثير؟

ـ نعم ، لقد قتل أحد رجال الـ : اس اس وجرح إثنان منهم ، وقد تكبد رجال المقاومة خسائر أكبر . وقد تمكن ثلاثة منهم ولندمانس من النجاة ، إلا أن (٤٧) منهم قتلوا في تلك الحادثة لوقوعهم في كمين أثناء إنسحابهم من المستشفى .

فقلت بهدوء : أظن أن الألمان عرفوا بالخطة قبل وقوعها . .

فنظر إلي فلهلم وفتح عينيه كما لو كان قد قرأ أفكاري من قولي هذا ، ولكنه أومأ برأسه ولم يقل شيئاً .

قلت : أعطني هذه الملفة فإنني أرغب الاحتفاظ بها ليوم أو يومين .

فأخذتها من على المنضدة وقلت : إذا كان هناك بعض الحظ فإنني سأضيف لها صفحة أو صفحتين . . فسأذهب إلى بروكسل غداً صباحاً .

عندما وصلت بروكسل لم أجد صعوبة في وجود الرجال والنساء الذين عرفوا لندمانس ، وكان هناك شيء من الصعوبة في طرد من إدعوا بأنهم يعرفون شيئاً عنه . وقد كان ـ بالاضافة إلى بطولته الوطنية في هولندا ـ شخصية معروفة في بلجيكا ، ووجدت الكثير من تبجح بالقول بأنه كان صديقاً للندمانس . ويمكن كتابة كتاب كامل عن القصص التي قصها علي مثل هؤلاء من القصص الخرافية ، ولكني لم أكن أبحث عن الذين أمضوا بضع ساعات مع لندمانس وادعوا معرفته جيداً بل كنت أبحث عن الرجال الذين عملوا حقاً في المقاومة معه والذين يمكنهم هدم أو بناء النظرية التي كانت تختمر في ذهني عنه .

وبعد فترة قصيرة علمت بوجود رجل عمل معه ، فنظمت مقابلة له معي في مقهى الفيدتس . وقد تكلمنا معاً عرفت بعدها ـ من معلوماته عن لندمانس ـ أنه حقاً عمل معه .

وسألته ما إذا كان قد نجا مع لندمانس من الكمين الذي نصب لهم عند خطفه من المستشفى .

فأجاب : لا مع الأسف لم أكن موجوداً في تلك الحادثة ، ولكني حصلت على ذكرى بعد شهر من تلك الحادثة (وأشار هنا إلى موضع طلقة حفرت حجراً طويلاً على جمجمته) .

فقلت : كانت الاصابة خطرة . .

قال : نعم سيدي ، لقد كانت الطلقة قريبة جداً ولو أنها إنحرفت قليلاً إلى الأسفل لسقطت صريعاً .

قلت : كيف حدث هذا ؟

قال : حسناً سيدي . لقد كنا نلغم أحد الجسور ، وكنت منحنياً لأضع الصاعق لتفجير الألغام تحت الجسر ، فإذا بالرصاص يمطر علينا من كل صوب . فقد عرف الألمان بطريق ما خطتنا في نسف الجسر فنصبوا كميناً لنا . وكانت الصدمة مفاجئة كبيرة فقذفت بنفسي من أعلى الجسر إلى الماء الذي كان في تلك المنطقة سريع الجريان ، وكنت ذكياً بحيث بقيت تحت الماء إلى أن جرفني التيار بعيداً عنهم . وقد تملص منهم الملك كونج إلا أن الآخرين . . ماتوا . . جميعاً .

وهنا سألته عن أسلحة الكمين وما إذا كانت غدارات . . .

ولشدة تأثره رفع هذا المواطن البلجيكي الفاضل قبعته السوداء ووضعها على رأسه وقال : الغريب في الأمر أنهم لم يحملوا الغدارات ، والمنتظر أن يحمل أفراد الكمين الغدارات وخاصة في مثل هذا الكمين . والشيء الغريب أيضاً أنهم أطلقوا علينا النار واحداً بعد الآخر حاملين

البنادق القنّاصة . وقد أصيب جميعنا نحن الثمانية إلا الملك كنج . . . يا له من رجل ، لقد ولد محظوظاً هذا الرجل .

قلت : غريب أن ينجو من الإصابة أكبر الأهداف ؟

قال : نعم أخي أكبر الأهداف ، ولكن الملك كونج كان ذكياً جداً .

وهنا إتضحت صورة معينة في مخيلتي ، فقد كان لندمانس من جهة ذلك القائد الهولندى الجسور ومن جهة أخرى صورة مؤلمة للخيانة .

لقد كان لندمانس جريئاً ومغامراً قوياً ومحبوباً من قبل جميع الهولنديين والهولنديات بصورة خاصة ، وقد أحبه رجال المقاومة كثيراً لدرجة الفداء من أجل خطفه من المستشفى وفقدان خمسين رجلاً من أجل إنقاذه . إلا أننا حصلنا على أربع نقاط غامضة من الجهة الثانية حوله ، فقد كان ضعيفاً مما يستوجب الغرابة وذلك عندما إلتقيت به مرتدياً ملابس وشارات لم يستحقهما ، ولم يتصرف تصرف الرجل الفاضل الذي لم يخن أحد ، وقد أطلق الغستابو سراح أخيه وسراح عشيقة أخيه من السجن ، ولم يكن هذا التصرف شبيهاً بتصرف الغستابو المألوف ، فقد كان بإمكانهم عدم إضاعة فرصة الانتقام منه بصورة غير مباشرة . وفي المناسبتين الثالثة والرابعة كان هناك شخصاً مسؤولاً عن إفشاء سر خطط المقاومين قبل الوقت المعين بحيث كان بإمكانهم تنظيم الكمائن تنظيماً جيداً . . وفي المناسبتين كان الشخص الذي نجا من الموت هو القائد (الملك كنج) ، وهذا الدليل على أية حال ليس دليلاً قاطعاً ولكنه كان أكثر من مجرد صدفة .

وهنا سكبت شراباً للرجل وقلت عرضاً : على ما أعلم أن الملك كونج كان مولعاً بالنساء ؟

فأجاب : آه ، نعم ، هذه حقيقة عنه . . إنه جريء جداً ولا تتخلف أي فتاة في إعطائه أية رغبة لكي تشعر بذراعيه القويتين حولها . ويمكنني أن أقول لك أن الوريثة الجميلة الغنية التي تعيش في القلعة الكبيرة بأعلى التل

قرب (ليكن) يقال أنها وهبته جميع حلاها لأجل مواصلة المقاومة . ويقولون أيضاً أنه أعطى بعض هذه الحلى إلى فتيأت أخريات هنا في بروكسل . ولكن هذه ـ كما تعرف ـ إشاعات حول الملك كونج إذ ليس هناك رجل عظيم لم يبث الحاقدون الاشاعات حوله .

وبعد هذا بقليل إنتهت المقابلة . فركبت وذهبت إلى القلعة قرب ليكن فوجدت هناك ربة البيت ، وبعد الترحيب الاعتيادي بدأنا بالتحدث في موضوع لندمانس . . . فاعترفت أنها أعطته فعلاً جواهر العائلة جميعها لاقتناعها بهدف المقاومة وشعورها العميق بالوطنية ، فقد كان لندمانس في نظرها رجلاً عظيماً بكل تأكيد ولكنه كان لا يخلو من الضعف حيث إعتقدت أنه باع الجواهر التي أعطتها له لا لأجل المقاومة بـل أهدى بعضهـا إلى بعض الفتيات . . .

فسألتها : ما الذي جعلك تشعرين ذلك الشعور يا كونتيسة ؟

فأجابت : أنا لا أرغب في قول هذا لأن لندمانس كان رجلاً جريئاً مع ذلك وقد قام بكثير من الأعمال المأثورة لبلجيكا ، ولكني رأيت يوماً في بروكسل إحدى الفتيات ترتدي حلاي ولم تكن هذه الفتاة محترمة كما عرفت . . لقد كان العقد لوالدتي ولا يمكن لفتاة من هذا النوع أن تلبسه . . وكنت أعتقد بأن رجال المقاومة باعوه لغرض الحصول على المال فطلبت من الفتاة أن تبيعه لي إلا أنها أخبرتني بأن الملك كونج أعطاها إياه وسوف يخنقها إن هي باعته . .

فسألتها إن كانت قد حصلت على إسم هذه الفتاة . .

وهنا تنهدت الكونتيسة وقالت : يا ليت ، إنها كانت واحدة من إثنتين . . الأولى تدعى مايا زيست والثانية على ما أذكر تدعى ماركريتا دلن ، وكلتاهما مومستان هنا في بروكسل . .

ولحسن الحظ لو نظرت الكونتيسة إليّ أثناء كلامها لرأت على وجهي منظراً غريباً . فقد كانت مايا زيست وماركريتا دلن مسجلتين في محافظي بأنهما

جاسوستان ألمانيتان خطرتان وبخدمة الأبور الألمانية .

وأنهيت المقابلة بأسرع ما يمكن دون أن أخطىء في الاتيكيت . .

ورجعت إلى بروكسل بأسرع ما يمكن أيضاً . ومنها إتصلت تلفونياً بقيادة الاستخبارات في أنتورب ، وبعد بعض التأخير تمكنت من التحدث مع مساعدي فلهلـم بالتلفون وطلبت منه إبلاغي بعنوان مايا زيست وماركريتا دلن إن كان يعرفهما . . وبعد عدة دقائق أبلغني بهما . فاستعرت شرطيين من الاستخبارات البلجيكية في بروكسل وأسرعت معهما إلى أول عنوان .

لقد تأخرنا قليلاً فقد وجدنا شقة ماريا زيست فارغة ، لقد هربت ، وعرفنا بعدها أنها هربت إلى فيينا .

بعد هذا قفزت في السيارة وذهبت إلى عنوان ماركريتا دلن . فوجدنا الباب مفتوحاً . ولم يكن لدينا إذن بالتحري ولكن لم يكن أمامنا متسع من الوقت للتقيّد بالأصول ، فكسرنا الباب الداخلية لغرفة نومها ، فوجدناها مستلقية على الفراش . . وكانت فتاة مغرية إلا أن السم غير ملامحها إذ وجدنا وجهها أزرقاً كورق الكاربون وشفتاها زرقاويين متدليتين بدت كما لو أنها تفتعل الابتسام . وقد كانت على قيد الحياة عندما وصلنا إلى مخدعها إلا أنها ماتت في المستشفى بعد ظهر ذلك اليوم . وقد عثرنا معها على جواهر الكونتيسة فكان ذلك أقل مما توقعناه .

أمضيت بعد ذلك يوماً وليلة في بروكسل أتفقد الشوارع الضيقة والمقاهي الصغيرة والسراديب المدخنة لغرض الحصول على معلومات أكثر عن لندمانس . وبالتدريج إجتمعت لدي الأدلة ، فقد ذكر عدة شهود أنه عندما ألقي القبض على أخ لندمانس الصغير من قبل الأبور الألمانية كان لندمانس مضنكاً مادياً ، وبالرغم من شهرته أخذ الكثير من التجار والدائنين بتهديده بالشكوى . وقد عرفت أن راقصة الباليه فرونيكا ـ التي قبض عليها مع شقيقه الأصغر ـ كانت عشيقته منذ الصغر . وبالرغم من كثرة عشيقاته كانت دائماً إلى جانبه ومرجعاً أخيراً له . وقد عرف النازيون هاتين الحقيقتين ومع هذا

أطلقوا سراح أخيه وعشيقته دون أن يكسروا رجلاً أو يقلعوا أظفراً لهما . ولم يكن معتاداً من النازيين مثل هذا التصرف .

وقد أيد شهود آخرون أن لندمانس أصبح غنياً فجأة بعد إطلاق سراح أخيه وعشيقته فدفع ديونه وعاش حياة مترفة وكثرت إشتباكاته مع النازيين ، وكانت كل معركة أكثر مجازفة من سابقتها والخسائر فادحة المرة تلو الأخرى ولندمانس يخرج في كل مرة دون أن يصاب بأذى ، وبعد هذا يقوم بالتهديدات التي تقشعر لها الأبدان للخونة الذين أفشوا الأسرار للغستابو . ولكن الغريب لم يعثر أحد على أي مخبر أفشى سر الغارات مطلقاً . ومع الأسف لم يتأخر أحد بالتطوع لمرافقة لندمانس في غاراته إذ إعتبره الجميع (ثقة) واعتبر الكثير الموت إلى جانبه شرفاً عظيماً .

وكان الغريب بالنسبة لي هو عدم وجود أي شك يحوم حول لندمانس بعدما أثنى الجميع من الذين استمعت إليهم على قابليته وحيويته ، ولكني كنت أقول في نفسي أنهم سينتبهون أن عاجلاً أم آجلاً إلى الشيء الغريب وهو نجاة كونج .

وعندما أعدت التفكير بالموضوع عرفت أن سمعته الجيدة قد تكون ستار ممتاز للتآمر وأن طرقه في الحياة تظهره فوق البشر وأنه مخلوق لا يفنى أمام الرجال الصغار الذين كانوا الأبطال الحقيقيين لأنهم عبدوه وذهبوا إلى الموت من أجل إبتسامة أو ربتة على الكتف من إحدى يديه الضخمتين .

وكانت هناك الحقيقة الكبرى ، وهي إصابة لندمانس في الرئة والقبض عليه من قبل شرطة الأمن الألمانية . . وهذه الحقيقة جعلتني أتردد في موضوعه .

كنت أتساءل ـ في نفسي ـ هل أتهم لندمانس قبل الأوان رغم الأدلة ضده ؟ ولا يمكن حتى بالنسبة لستراوخ البدين ـ مدير الاستخبارات الألمانية في الأراضي الواطئة ـ أن يجازف بحياة أحد وكلائه لغرض إضافة التفصيلات إلى مظهر من مظاهر إلقاء القبض .

أخذت أدخن السيكارة بعد الأخرى وأفكر في هذا الموضوع إذ كانت هذه النقطة هي التي تهدم كل بناء أبنيه باعتناء ، ففي كل الوجوه الأخرى يمكن إتهام لندمانس بأنه خائن ولكن هذه الحقيقة الواضحة تبدد الشك في أمره ، وهنا فكرت في أمر محتمل . . وكما هي طبيعتي فقد وضعت كافة المعلومات عن لندمانس في سلسلة واحدة . وعند وصولي إلى النقطة التي إلتقيت فيها بالكونتيسة وذكرت مايا زيست وماركريتا دلن كان عليّ أن أتصل بانتورب مع إني كنت في بروكسل بلدتهما ، ولم تعرف استخبارات الميدان عنوانيهما ولكن الاستخبارات الخاصة بالقيادة الأوروبية عرفتهما ، ومع هذا كنا جميعاً نقاتل في جهة واحدة من أجل هدف مشترك ، إلا أننا لم نجمع المعلومات التي لدينا فقد كنا دائماً نتنافس ونحسد بعضنا البعض ، وكنا نحرص على المعلومات التي نحصل عليها لنعطيها إلى قيادتنا الخاصة ، وهذا الشيء هو الذي إعترض التعاون بين الخدمات المختلفة وبين دول كانت جميعها في جبهة واحدة ومن أجل هدف واحد .

وبما أن الطبيعة البشرية متشابهة تقريباً في جميع أنحاء العالم فكان الفرض في أن الخدمات الألمانية المختلفة قد لا تتعاون فيما بينها . . فالغستابو ـ وهم شرطة الأمن لقوات الـ : اس اس ـ والأبور ـ وهي خدمات مكافحة الجاسوسية ـ وكذلك منظمة شرطة استخبارات الميدان قد لا تتعاون مع بعضها كلياً ، وبهذا قد لا يعرف الغستابو أو شرطة الميدان أن لندمانس مأجوراً للأبور الألمانية كما كانت الفتاتين اللتين كانتا صديقتيه . وباعتباره قائد موثوق به من قادة المقاومة والذي يصعب عليه إخفاء هيكله فقد يرمونه ليعرفوا بعد هذا أنه حليف لهم .

وإذا كان هذا الفرض صحيحاً فما ألطف هذا الجرح لإخفاء لندمانس ، وكانت هذه الحقيقة أفضل دليلاً ضد أي إتهام في التواطؤ مع الألمان . وقد يشكر لندمانس القدر الذي جعل من هذا الجرح قناعاً يتستر به في أعماله ويستمر دون أن يشك في أمره . ولا يعرف عدد الوكلاء البريطانيين والبلجيك الذين سلمهم لندمانس للغستابو في طريقهم إلى أوروبا المحتلة .

قررت أن الأدلة المادية كافية لاستجوابه من قبلي ، فأرسلت إلى قيادة الاستخبارات الهولندية في قلعة وتك حيث كان لندمانس يكتب تقريره عن إهانتي إياه قبل بضعة أيام ، ولكنه لم يفعل بما هددني به . وقد ذكرت رغبتي في التكلم معه دون ذكر قصدي من مقابلته لأنه كان صديقاً لكثير من كبار رجال الدولة كما هو طبيعي بالنسبة لرجل في مكانته ، ولم أجرؤ على إعطاء أي إشارة لغرضي الحقيقي من مقابلته أيضاً ، ولهذا طلبت منه مقابلتي في الساعة الحادية عشرة من الصباح التالي وذلك في فندق قصر بروكسل حيث سيحضر معي بعض ضباط القيادة العليا الحليفة في أوروبا .

وفي اليوم التالي كنت دقيقاً في الحضور بالموعد المقرر ، وكان الصباح دافئاً والسلام يظلل ذلك المكان بالرغم من أن الحرب كانت على بعد أميال قليلة منه ، وقد تركت الحرب أثرها في كل مكان حتى في هذا الفندق الممتاز ، إذ دخل الجيش إليه ومعه الكراسي الخشبية الجرداء والمناضد المطوية ، بينما كان مجتمع بروكسل يتمتع في هذا الفندق بأقداح القهوة والسمر .

دقت الساعة الحادية عشرة ولم يصل لندمانس . ولم أستغرب ، فقد تركت أوامر معينة في وجوب حضوره إلا أنني عرفت أنه قد يرضي غروره في التأخر عن موعده معي . وعند مراجعتي للأسئلة التي كنت مجهزها للندمانس مددت يدي إلى قبضة المسدس الذي تركته حراً في جعبتي ، وقد هيأت مسدسي بحيث وضعت طلقة في السبطانة جاهزاً للعمل بمجرد الضغط البسيط على الزناد . وقد لا يعرف لندمانس أن هذه المقابلة قد تكون آخر أيامه ، إلا أني أعرف ذلك جيداً . وبالنسبة لطول لندمانس كنت تافهاً ، وفي معركة غير مسلحة معه لا يمكنني أن أقاوم دقيقة واحدة ، ولولا ما يسميه ذامون رانيون (المساوي) ـ أي المسدس ـ لما تمكنت من حذف الفرق الجسدي بيننا . وقد كنت ماهراً في إستخدام مسدسي بسبب التمرين المتواصل ، وعلى أية حال لا يمكنني أن أفشل في إصابة هدفي الكبير إذا إمتنع لندمانس من الإجابة على أسئلتي .

لقد مرت الدقائق ولم يحضر لندمانس ، وقد كنت أتوقع أن يتأخر عشرة دقائق أو ربع ساعة أو حتى نصف ساعة إذا رغب في الانتقام مني بسبب إهانتي له في معسكر الأمن في أنتورب ، ولكن عندما إقتربت الساعة من الثانية عشرة ولم يصل لندمانس عرفت إني أخطأت التقدير لتحديه ، وتساءلت فيما إذا كان لندمانس واثقاً من نفسه وبضداقاته التي يتمتع بها مع السياسيين الأقوياء لدرجة أنه لا يعير أي أهمية لمخالفته أمراً خاصاً .

لقد انتظرت ساعتين حتى حصلت على الجواب ..

جاءني رئيسان شابان هولنديان إلى صالة الفندق ، وقد إستنتجت من شاراتهم أنهما من أركان القيادة الهولندية العليا ، وعندما وصلا حيياني وقال لي أحدهما : هل إنك بانتظار لندمانس يا سيدي ؟

أجبت : نعم ومن ساعتين خلت .

قال : نحن نأسف يا سيدي ، إنك إنتظرت طويلاً .. لا يمكن لندمانس الحضور لأن لديه أوامر أخرى ..

قلت : أوامر أخرى ؟ أوامر من ؟ (ولم أكن أرغب في أن يعرف هذان الشابان أني كنت منزعجاً جداً) .

ووقفا بالاستعداد فقال أحدهما بصوت أشبه بصوت المؤمن عند الصلاة : لقد ترك لندمانس هذا الصباح بمهمة خاصة ..

وهنا نشفت حنجرتي فلم أتمكن من الكلام إلا بصعوبة حيث كنت آمل أن يوقف نشاط لندمانس عند حده بعد موعدنا هذا الذي لم يتم حتى وأني لم أثبت جرائمه بعد ، والآن يتغفلني . وقد يكون في هذه اللحظة يقود رجال المقاومة إلى كمين محكم إتفق مع الألمان مسبقاً بشأنه .

تساءلت : مع القوات الداخلية ؟

وهنا تردد الرئيسان في الاجابة وظهرا بمظهر الذي يعرف سراً كبيراً ولا يرغب في إفشائه ، ثم قال أحدهما : لا يا سيدي ، لقد ألحق بالقوات

الكندية لأغراض استخبارات خاصة ولا يسمح لنا أن نخبر أحد بماهية تلك الأعمال .

بعد ذلك عرفت ما حدث . .

لقد كان الكنديون بحاجة إلى رجل موثوق به من المنطقة والذي يمكنه دخول ايندهوفن سراً التي كانت في يد الألمان ويمكنه أن يتصل بقيادة المقاومة هناك ، وعلى المرسل أن يخبر قائد المقاومة أن هناك حشود مظلية حليفة كبيرة ستنزل شمال ايندهوفن في صباح الأحد التالي (يوم ١٧ أيلول) ، وكان على قائد المقاومة أن يهيء ويجمع عناصره لمعاونة المظليين وكذلك إستغلال الفوضى بين الألمان عند إبتداء الانزال . وقد طلب الكنديون من القيادة الهولندية رجلاً يوثق به ويمكنه الوصول والاتصال بالمقاومة هناك ، فقدمت القيادة الهولندية لندمانس دون أن تعلم أنه قد يكون خائناً وأنني كنت أراقب أعماله .

ولا يمكن أن نلوم القيادة الهولندية في مسألة وضع الثقة في لندمانس ، إلا أنني يجب أن أقول أن القيادة الهولندية أصبح لها علم قبل أشهر عن الحقائق الثابتة عنه وعن تبذيره وهروبه المتكرر من الكمائن الألمانية بأسلوب عجيب لدرجة إني لم أجد أي عناء في معرفتها من سجلاتهم . وإن إرسال لندمانس في مثل هذه المهمة كان بمثابة إذاعة أخبار الانزال مسبقاً في إحدى نشرات أخبار هيئة الاذاعة البريطانية .

إلا أنني لم أكن أعرف أن الانزال كان على وشك التنفيذ ، وكل ما أملته إلا -تكلفنا المهمة الخاصة - التي ذهب بها لندمانس - الكثير من الضحايا . وكل ما يمكن أن أعمله هو كتابة تقرير عن لندمانس وأبعثه إلى قيادة القوات الحليفة الأوروبية .

وما حدث في الأيام الثلاثة التالية معروف للعالم أجمع ، -ولا يحتاج هنا إلا إلى القليل من الايضاح .

ففي فجر ١٧ أيلول أنزلت من السماء أضخم قوات مظلية في التاريخ العسكري ، إذ نزل ما يقارب العشرة آلاف رجل من الفرقة المظلية البريطانية الأولى في ارنم . وفي نفس الوقت أنزل ٢٠ ألف أمريكي و٣ آلاف بولندي في كريف ونجمكن . وكانت مهمة هذه القوات أن تحصل وتقبض على رؤوس جسور على قنال ألماس ونهر الول والندرجن في الوقت الذي تتقدم فيه القوات المدرعة على الطريق العام لغرض الوصول إلى هذه الرؤوس والعبور الكلي نحو الشرق ، وقد سميت هذه العملية بعملية (بستان السوق) . . وقد كانت خطة جريئة وكل شيء فيها إعتمد على عنصر المباغتة الناتج عن إنزال قوات مظلية كبيرة بعيداً خلف قوات العدو . ولو أن الألمان بوغتوا بالانزال لما تمكنوا من إعادة التنظيم إلا بعد عدة أيام ولما تمكنوا من شن هجوم مقابل على رؤوس الجسور التي يحتلها المظليون . . وفي هذه الأثناء تكون القوات الرئيسية الأرضية قد تقدمت بعيداً إلى الامام ، ولو استمر تموين هذه القوات المظلية من الجو لكان بالامكان إحراز نصر ساحق على الألمان .

تحرك كل شيء بموجب الخطة . . وقد أشار الاستطلاع الجوي إلى عدم وجود أي فعالية غير إعتيادية في المنطقة ، إلا أن قوات البانزر وصلت بعد غروب الشمس بدون ضوضاء وأخذت مواقعها حول الأرض الحيوية للإنزال . وفي الفجر نزل المظليون من السماء ولكن لا ليأخذوا العدو على حين غرة ، فكان الموضوع من البداية واضحاً وهو أن شيئاً ما قد حدث ، وقد فكر البعض أن الموضوع مجرد مصادفة بالنسبة للألمان في أن يجمعوا قواتهم المدرعة ومدفعيتهم في الوقت والمكان غير المتوقعين .

وبعد تسعة أيام من الحصار والقتال بدون أمل وضد عدو أحاطهم من جميع الجهات والأرزاق تتناقص والعتاد على وشك النفاذ ودائرة دفاعهم تتقلص بحيث أن الأرزاق والعتاد الملقى من الجو كانت تسقط على الألمان ، تمكن ٢٤٠٠ رجل من التملص عبر نهر الول إلى منطقة الأمان تاركين ورائهم ما يقارب السبعة آلاف قتيل .

لقد فشلت هذه الخطة الجريئة ، وقاسى مونتغومري أول هزيمة كبرى في الحرب . وقد إستمرت الحرب ثمانية أشهر أخرى من القتل والتخريب ، وفي الشتاء الأسود ـ بعد أن هشمت السدود وخربت المزارع ـ مات ما يقارب ٢٠٠ ألف رجل وامرأة من الهولنديين بسبب الغرق والجوع ، ومع هذا لم يعرف أحد سواي السبب من هذه الفاجعة وسبب فشل هذه العملية . وبسبب تأكدي من أن لندمانس خائن ومعرفتي طبيعة المهمة التي ذهب بها بأمرة القوات الكندية جعلني أضع إثنين مع إثنين فأحصل على أربعة .

وفي هذه الأثناء ، وبالرغم من إنشغالي في عدة أعمال ، لم أترك موضوع لندمانس . وقد حفظت القيادة العليا الحليفة التقرير الذي أرسلته في محفظة أنيقة ، وقد كان لدى الاستخبارات مواضيع عديدة فلا يمكن أن يكون موضوعي هذا أهم من غيره . وعلى أية حال فإن أكثر الضباط الكبار الذين يقرأون التقارير المكتوبة قد يجدون شكوكي خيالية ، إذ أن موضوع إتهام قائد مقاومة معروف من أحد البلدان الحليفة ليس موضوعاً غريباً فحسب بل بعيداً عن الذوق . ومثل هذا الاتهام قد ينتج عنه عواقب دبلوماسية وسياسية ، ولا يرغب الجندي عادة التدخل في المواضيع السياسية أو الدبلوماسية وفي وسط أكبر حرب عرفتها البشرية ، وكل ما يمكن الجندي أن يقوم به تجاه مثل هذا الاتهام هو حفظ الاتهام ولو كان مقنعاً بعض الشيء ولهذا لم يتخذ أي إجراء حول هذا الموضوع . وعندما قابلت زميلي البريطاني في مكافحة الجاسوسية في القيادة الأوروبية المشتركة والذي شغل مناصب سياسية حساسة في إنكلترا تحدثت معه في موضوع لندمانس ، ولكنه لم يتأثر باستنتاجاتي . وإذا لم يعر مثل هذا الرجل ـ الذي عمل طويلاً في مكافحة الجاسوسية ـ أهمية لشكوكي كان من الواضح أن الضباط الذين ولدو للكرسي في القيادة العليا الحليفة ليواجهوا المشاكل العديدة كل يوم لا لوم عليهم إذا لم يقتنعوا بظنوني .

ولستة أسابيع لم أحصل على إذن في توقيف لندمانس ، إذ لم يكن هناك دليل قاطع يدينه .

وفي إحدى الأمسيات جاءني الاثبات دون أن أتوقعه،فقد إستمر تقدم القوات الحليفة وإن كان عليها أن تقاتل من أجل كل شبر قتالاً عنيفاً بعد نكبة ارنم . وعند وصولي إلى ايند هوفن التي احتلت ، وبعد استجواب ثلاث ساعات إذ كان علي ـ كما ذكرت سابقاً ـ أن أعمل دون أي عون وبلا واسطة نقل ، وأن أكون المستجوب والحاكم والسجان ، وجدت شاباً هولندياً يدعى فرلوب إعترف بأنه جاسوساً لألمانيا وكان مذعوراً جداً . نهضت بعد إستجوابه ونفضت الرماد من على بدلتي وحركت مفاصلي وفرلوب ينظر إليّ . . فتساءل : هل أقتل ؟ (وكان ريقه ناشفاً ولم يستطع الكلام الاعتيادي) .

نظرت إليه دون أن أجيبه إذ كان واضحاً أنه سيرمى لأنه جاسوس . .

وأردف قائلاً : لي زوجة شابة في امستردام وهي هولندية مخلصة يا سيدي . .

فقلت : نحن لا نرمي زوجتك كما يفعل أسيادك الألمان .

فقال: سأعطيك معلومات جيدة يا سيدي مقابل إطلاق سراحي .

فقلت : تأكد يا مجنون أننا سنأخذ جميع المعلومات منك قبل أن تموت . . وسوف نأخذها منك بصورة بسيطة وغير مؤذية .

وهنا إبتسم إبتسامة باهتة وقال : يمكنكم أن تحصلوا على معلومات تتوقعونها ، ولكن لا يمكنكم الحصول على المعلومات التي أعرفها .

فقلت بنبرة ملؤها الاحتقار : حسناً أيها الفيلسوف الشاب . . ماذا تعرف .

إنحنى فرلوب نحو الامام وأخذ يعصر بيديه ويحاول أن يسترجع ذاكرته ، ثم أخذ يسرد أسماء وعناوين كافة ضباط إستخبارات القيادة العليا . ولم نعرف بقدر ما يعرفه فرلوب عن ضباط استخباراتنا ، فأخذ يذكر أسماء

العملاء مثل وكيلنا الكبير في بروكسل بول لوفن ووكيلنا في امستردام دامبرني . . الخ . .

ثم جلس أمامي على المنضدة وأخذ يبين لي شبكة مكافحة الجاسوسية التي أعمل بها والشبكات الأخرى في هولندا وبلجيكا والأراضي المنخفضة . فقلقت على الوكلاء الذين لا يزالون خلف الخطوط الألمانية ، وقلت في نفسي أن هذا الخائن يعرف هذا القدر من المعلومات فما عسى أن يعرفه أمروه ؟

وسيطرت على نبرات صوتي وسألته عن الشخص الذي زوده بهذه المعلومات ؟ فاجاب (وقد جرى في عروقه بصيص من الامل) : العقيد كيزوتر من الأبور الالماني ، والذي اخبر كيزوتر لا يعرفه احد سواي . . فهل تريد أن تساومني يا سيدي ؟

لقد سأمت هذا الهوان الذي مثله فرلوب امامي ، إذ رأيت الكثير من الرجال يقاتلون في سبيل حياتهم كالفئران المحاصرة ويضحون باعمارهم واوطانهم واصدقائهم لغرض سلامتهم ، ولكني لم اجد انسانا في مثل هذا الموقف .

ولعدم وجود من يعاونني فقد كان عليّ أن استصحب فرلوب بنفسي إلى النهاية الاخرى من المدينة . . إلى السجن العسكري ، وقد كان الليل مظلما . ولم ارغب في أن يحاول فرلوب الهرب للنجاة بنفسه ، فسحبت مسدسي وقلت : تعال معي يا فرلوب فقد عانيت الكثير منك . . . إنك خائن وسوف لا اسمح لك أن تتساوم معي . . لقد وضع أسيادك النازيون مثل هذه المساومات ولم اضعه أنا ولهذا سنلعب هذه اللعبة باسلوبهم . . من قال هذه الحقائق للعقيد كيزوتر ؟

عندها تلاشت الابتسامة من على وجهه وقال : مقابل حياتي يا سيدي (واخذ يستجديني في كلماته) . .

فقلت : انهض (وقد قربت المسدس نحوه ، وقلت في نفسي أن ليلة من التفكير قد تعيد له رشده) .

ولكن فرلوب لم يفهم قولي وظن أني على وشك أن ارميه . . فصاح : انتظر سأخبرك ، لا تطلق ، لقد كان . . . كرس لندمانس (الملك كونج) ، فإنه هو الذي اخبر العقيد كيزوتر . .

وجدت الحلقة المفقودة لسلسلة الأدلة ضد لندمانس. . . فتقربت إلى فرلوب واضعا فوهة مسدسي على قلبه . . . فاصفرّ وجهه وارتجف. . فقلت: هل اخبر لندمانس النازيين عن إنزال ارنم؟

اومأ برأسه ولم يستطع الكلام إلا بعد أن مرر لسانه على شفتيه ، ثم انهمرت الكلمات منه فقال : نعم ، لقد اخبر العقيد كيزوتر بذلك يوم ١٥ أيلول عندما وصل إلى قيادة الابور الالمانية وقال أن هناك قوات بريطانية وامريكية ستلقى من الجو . .

فسألته : هل قال اين ؟

قال : نعم ، لقد قال أن هناك فرقة بريطانية ستنزل يوم الاحد صباحا قرب اندهوفن .

وهنا خفضت مسدسي ونظرت اليه مفكرا في قوله . . وقد اصبحت متأكدا من أن هذا الجبان الرعديد قد وضع امامي كافة الادلة التي كنت ابحث عنها . ولم يفهم تصرفي هذا فانحنى على ركبتيه وقال : سنوف لا ترميني بعد هذا . . اليس كذلك ؟ لقد اخبرتك بما اعرف . .

قلت : سوف لا ارميك الا انك ستحاكم من قبل المحكمة ، وستنال عقابك . . انهض الآن لنذهب . .

لقد علمتني خبرة السنين في مكافحة الجاسوسية أن اعطاء الشخص الفرصة في أن تؤثر فيه المشاعر الخاصة قد يكون شيئا خطرا ، ولكني لم استطع السيطرة على عواطفي هذه المرة فارتجفت من الغضب لدرجة جعلتني لم اتمكن من الكلام لفترة من الوقت ، إذ كانت نتيجة عدم الأخذ بانذاراتي

المتكررة وارسال كونج في مهمة خلف خطوط العدو خسائر كبيرة في جهد الحلفاء . وقد كنت اتوقع قبلا أن لندمانس جاسوس ، اما الآن فقد ثبت لي ذلك . . والفخر للخائن فرلوب . ولا شيء يمكن أن يعوض كارثة ارنم ، إلا أن بالامكان وضع حد لخيانة لندمانس . .

عندما وضعت فرلوب في زنزانته في السجن اسرعت غاضبا إلى قيادة الاستخبارات الهولندية ، وتوجهت إلى قاطع الضباط وإلى الصالة فوجدت زملائي مسترخين في كراسيهم وكؤوسهم في ايديهم يستمعون إلى بعض الالحان من الراديو فزاد غضبي ، ووقفت هناك دون أن أتكلم وأنا في غاية الغضب . فنظر إليّ احد اصدقائي وقال : ماذا دهاك يا بنتو؟ انك اشبه بالورقة البيضاء ؟

فوضع هذا الاستفهام حدا لغضبي وصحت باعلى صوتي : اغلق الراديو . . . وضربت المنضدة بيدي .

وعندما اغلق الراديو نظر إليّ الجميع بتعجب . . وكرهت الافواه التي كانت مفتوحة والوجوه المدورة التي نظرت إليّ بتعجب . .

وهنا زأرت : بحق السماء أن الوقت قد حان في أن تصدقوا باني عندما اتهم شخصا اعني ما اقول . . وماذا تفعلون ؟ ترسلوه رأسا خلف الخطوط حاملا اخطر رسائل الحرب ؟ .

فصاح احدهم : ماذا تعني ؟

فقلت : لندمانس . . الملك كونج : ليذهب اثنان منكم ويلقوا القبض عليه ويخرجاه من قلعة وتك . .

فرد : إلقاء القبض على لندمانس ؟ لا بد انك مجنون . . كيف يمكننا ذلك وباستطاعته أن يفصم رقبة شخصين في آن واحد بيديه العاريتين فقط ؟ بالاضافة إلى أنه مسلح ؟ إن محاولة كهذه لا تتعدى الانتحار . .

وهنا قال احد الضباط الكبار : على أية حال يا بنتو ما هي الاسباب

التي تجعلك تريد القاء القبض على لندمانس بموجبها ؟ هل تتصور ماذا سيكون وقع هذا العمل بين الاهلين ؟

وبسرعة شرحت الاسباب . . وقد كانت طبيعة تصرفي مقنعة في تلك اللحظة . . ولكننا كنا امام مشكلة القاء القبض على لندمانس دون المخاطرة بالارواح . .

ولقد خطرت في ذهني فكرة لحل هذه المشكلة ، فصحت : وجدتها . . انت وانت تذهبان إلى قلعة وتـك واخبرا لندمانس بأنه سيكافأ لخدماته الجليلة لهولندا ، ومثل هذا سيعجبه ويرضي غروره ، واقنعاه- بأن يخلع اسلحته ويلبس قميطا نظيفا ويمشط رأسه . . ثم خذوه إلى غرفة خاصة ، وفي هذه الاثناء سأطلب عشرة من رجال الشرطة العسكرية من القيادة العليا الاوروبية ليحضروا إلى قلعة وتـك وعندما يدخل لندمانس يكتفوه . . . هل فهمتهم هذا ؟

وقف بعد هذا الضابطان اللذان اخترتهما وتمتما بالفهم . . وقال احدهما : جيد لا بأس (واخذ يشد نطاقه . . واردف) آمل أن يكون العشرة كافين لكتفه . . اخبر القيادة لكي ترسل افضل ما لديها . .

كانت هذه هي الخطة ، وقد نجحت . . وكما توقعت فقد اثار هذا غرور لندمانس عند سماعه أنه سوف يعطى وساما ، فسمح لنفسه أن يتجرد من السلاح ويتجمل ويلبس قميصا نظيفا واقتيد إلى الغرفة كالحمل الوديع . . وقد كتف جيدا ـ بعد أن ادخل الغرفة مزهوا امام حرس الشرف ـ من قبل عشرة ضباط بعد شيء من المقاومة .

ولم نجد جامعة يد تلائم يديه ، فشددناها بحبل فولاذي . .

وعندما جيء به إلى مطار القوة الجوية البريطانية في انتورب أمرت بربط رجليه فقد كان بامكانه أن يفتح ثغرة في جدار الطائرة بمجرد رفسها ليثبت في مثل هذا العمل وجها آخرا من اوجه غروره . .

وعند هبوط الطائرة في انكلترا اخذ لندمانس إلى بيت ريفي خارج لندن ، وقد استجوبه ضابط مكافحة الجاسوسية البريطانيون الذين كانوا خبراء في الحصول على الاعترافات دون اللجوء إلى التعذيب الجسماني ، وخبراء ايضا في تثمين القوة والضعف النفسي لدى كل منهم ، وفي تفويض ألعوائق الفكرية التي تمنع الاعتراف بالحقائق . . فاستجوبوا لندمانس لمدة اسبوعين .

وعندما جيء به إلى هولندا كانت قد نسبت لديه جامعة خاصة في اسكوتلاند ـ يارد ، وقد وضع بعدها في سجن بردا . . وقد رافقته إلى زنزانته ، ونظرت اليه باعتناء وقد ذهب غروره الاول وذهبت ضخامته ، إلا أنني لم اجد اثرا على جسمه للتعذيب ، بل وحتى اثرا للأبرة التي تستخدم في وخز المتهمين ، اما عيناه فكانتا منخفضتان ولم اجد فيها اثرا للخوف أو السهر المتواصل . وقد جاء ومعه اعتراف كامل مطبوع باربعة وعشرين صفحة . وقد تمكن الخبراء من تعرية افكاره دون اللجوء إلى الاكراه وكشفت جميع الحقائق التي احتواه فكره .

اخذت معي الاعتراف السري للغاية إلى مكتبي لأدرسه . . فكان هذا الاعتراف اكثر اثارة من اي قصة بوليسية ، إذ كان شيقا بالنسبة لي أن اقرأ التأكيد لحدسي واستنتاجي .

لقد بدأت قصة تآمر لندمانس عام ١٩٤٣ عندما كان في أوج شهرته كقائد للمقاومة وقائد للقوات الداخلية ، وكان دائما ميالا للجنس ومبذرا في هذا الخصوص . . وبسبب حاجته إلى الهدايا الكثيرة لصديقاته العديدات توصل إلى طريقة مبدعة لزيادة وارده ، فكان يستحوذ على الغنيات بسبب مظهره فيأخذ منهن الحلى لغرض الحصول على مبالغ للمقاومة السرية ولحماية خطوط الحرب عبر هولندا وبلجيكا وفرنسا ثم اسبانيا والبرتغال . . وكان لأكثر هذه النساء اقرباء واصدقاء في معسكرات الاعتقال النازية ، وكانت دورهن مهاجما للضباط الالمان ، ولهذا كن تواقات لعون بطل المقاومة ورجل الغرام .

لقد باع لندمانس جميع المجوهرات ولكنه لم يستخدم ثمنها في نفع المقاومة ، بل بددها في البارات والملاهي الليلية وعلى الفتيات اللواتي كن بحاجة للنقود قبل أن يقبلن لمسات هذا الخنزير الكبير . اما المجوهرات التي لم يبيعها فقد اعطاها لمقرباته على أنها جزء من الغنائم التي حصل عليها من النازيين بالقوة .

ولحد الآن لم يتطرق لندمانس في اعترافه إلا إلى كونه محتال ، فلم يذكر شيئا عن خيانة وطنه وأنه يسير ـ دون أن يشعر ـ في طريق مغلق وعليه أن يقدم البرهان بأنه غير محتال وأن يجد مصدرا آخرا للمال ليضعه في خدمة المقاومة مما اضطر بعض رجال المقاومة أن يشكوا في أمر تبذيره الكثير . ولم يكن الأمر سهلا في اوروبا المحتلة للحصول على المال فاخذ لندمانس يفكر في دعم ادعاءاته دون أن يفقد الحياة المترفة التي احبها .

وفي شباط ١٩٤٤ حدثت حادثة ادت إلى وقوع الكارثة ، فقد القي القبض على اخيه وخليلته راقصة الباليه فرونيكا من قبل الغستابو في احد البيوت التي كانت ملاجىء على طريق الهروب الاوروبي . ونسبة إلى حياته المليئة بالعواطف ومئات النساء ـ لدرجة أنه كان يستصحب ثلاث أو اربع نساء في ليلة واحدة ـ يستغرب أن تؤثر في نفسه فرونيكا وتبقى العامل الثابت في حياته الجنسية . . فقد احتلت فرونيكا المكان الوحيد في مشاعر لندمانس إن كان هناك مكان لديه لغير نفسه .

وكان شيئا بشعا أن يعرف الرجل أن اعز اصدقائه في ايدي الجلادين الالمان . والشيء الاسوأ هو علمه بعدم استطاعته أن يعمل اي شيء لمساعدته . وقد حدث مثل هذا بالنسبة لمقاوم أو آخر كل يوم ولم يتمكنوا إلا من الانتقام بوحشية باردة . اما رجل المقاومة الذكي فلا يقوم بعمل يؤدي بالانتقام إلى ـمزيدـ من اصدقائه واقربائه .

إلا أن لندمانس لم يحتمل اكثر من عشرة ايام . ولكثرة القلق على فرونيكا واخيه الصغير ، ولتزايد الشك بين زملائه المقاومين حول كيفية تبذيره

النقود والمجوهرات قرر في النهاية أن يساوم النازيين بواسطة هولنديين عاشا في بروكسل وعملا في خدمة الالمان : الاول انتوني دامن ، والثاني كورنلس فرلوب (صديقي من ايام ايند هوفن) ، وقد رتبت المقابلة في فندق الشوارع الكبيرة في بروكسل ، وفي اثناء شرب القهوة قدم لندمانس خدماته للنازيين على شرطين : الاول كان الافراج الفوري عن فرونيكا واخيه الصغير والشرط الثاني مبالغ كبيرة من المال . وذهب فرلوب إلى كس كس رئيس الابور الالمانية آنذاك ، وقد وجد هذا أن هذه فرصته الذهبية في مقايضة سمكتين مقابل حوت . وبعد يومين قابل كس كس لندمانس في بيت بضواحي بروكسل وتكلما معا لمدة طويلة .

اتفق الطرفان واحتفظ الالمان بوعدهم فأفرجوا عن فرونيكا ولندمانس الصغير من زنزانتيهما المظلمتين الرطبتين بعد أن اخذوا منهما اعتراف بعدم تعرضهما للتعذيب وانهما لاقيا معاملة حسنة . وكانت هذه الخطوة اولى لحوادث مؤلمة ادت إلى موت ٢٥ ألف هولندي من روتردام في الشتاء الاسود الذي خيم على هولندا .

وبعد اتخاذ لندمانس هذه الخطوة نحو الهوان انغمس في الملذات واقدم على المزيد من الشرب والاستهتار والقتال وبصورة اعنف من ذي قبل .

وكما توقعت فإن الابور لم تخبر الغستابو أو شرطة الأمن بان لندمانس معها إذ لم ترغب في انتشار ذلك في دائرة اوسع ، أو أنها كتمت ذلك بسبب المنافسة ، إلى أن اغارت شرطة الأمن الالمانية على احد اوكار المقاومة في روتردام الذي كان لندمانس بينهم في السرداب عندما دخله الالمان وبنادقهم في ايديهم . فكانت تلك اللحظة حرجة جدا بالنسبة اليه . . فاما أن يكشف نفسه بأنه خائن امام زملائه المقاومين أو أن يموت فجأة على ايدي الشرطة الالمانية . . فتردد ، ولكنه اختار خيار الجبناء ، فحرّك يده باشارة سرية ليعرف شرطة الأمن أنه بجانبهم . ولكن قبل أن يوعز آمر المفرزة باطلاق النار ظن احد افراد الشرطة أن لندمانس يحاول مد يده إلى مسدسه ، لا سيما

وأن الالمان مولعون بضغط الزناد خاصة تجاه مثل هدا الهدف الضخم ، فاطلق هذا الرصاص على الملك كونج فاخترقت احداها صدره . بعدها نقل لندمانس بسرعة إلى المستشفى الخاص بالغستابو ، لأن آمر المفرزة عرف أنه ليس بمقاوم اعتيادي . وكان الجرح مميتا بالنسبة لأكثر الرجال ذوي القابلية العادية ، ولكن لندمانس اجتاز فترة النقاهة بأقل من ثلاثة اسابيع ، وقد زاره رئيس الابور الالمانية لتخطيط هروبه . . وكانت لدى لندمانس خطة محكمّة للهرب ادهشت هذا العقيد الصلب ، إذ اقترح أن يقوم رجال المقاومة بانقاذه . فوضعت الخطة للتنفيذ ، ولسوء الحظ نفذت جيدا إذ مات فيها سبعة واربعون مقاوما شجاعا ضحوا بارواحهم في سبيل رئيسهم المتآمر .

وفي الاشهر القليلة التي تلت حصل لندمانس على الكثير من النقود لافشاءه المعلومات عن عدة مجموعات من الوكلاء الذين عملوا في القسم البلجيكي الذي لا يزال محتلا من قبل الالمان ، فالقي القبض على كثير منهم وهناك قاسوا آلاما فظيعة حتى عطف عليهم الموت فانهى تعذيبهم ، إذ احتفظ الالمان في سجن شفيننكن ـ قرب الهيك ـ على وسائط صناعية كثيرة للتعذيب والتي كانت الوسائل القديمة ككسر الابهام بعد لويه أو قلع الاظافر تافهة بالنسبة لها . فقد كانت هناك مثلا خوذا فولاذية يمكن أن تشد بالتدريج على الرأس ويمرر بها تيار من الكهرباء لتصل الصدمة إلى المراكز الحساسة العصبية وغيرها . وعندما تركوا السجن خلفوا ورائهم تلك الاشياء التي ابتدعوها لعدم سماح الوقت لهم برفعها . وعندما رأيت تلك الوسائط لأول مرة ، والتي كانت مزعجة لمجرد رؤ ياها وليس صنعها واستخدامها ، وقف دمي في عروقي ، ومع هذا فقد حصل لندمانس على الكثير من النقود بافشاء اسماء كثير من الوكلاء ليقاسوا هذا اللون من التعذيب ولم يرض أن يقاسي اخوه وعشيقته فرونيكا مثل هذا التعذيب . وعندما قرأت أسماء اولئك اقسمت بأنني لن استقر حتى ينال لندمانس عقابه .

وكانت قمة اعترافه هي خيانة ارنم عندما التحق بالجيش الاول الكندي واعطي مهمة رفع المقاومة في منطقة اندهوفن ليمكنها أن تساعد

الانزال القادم . وقد عرف أن هذه المهمة كانت فرصة ذهبية للتآمر . فقام بمهمته في اندهوفن ولكن ليس بسهولة لأن القائد المحلي للمقاومة كان وجسا من جانبه فالقى القبض عليه ، ولكن الكنديين ـ كما اتضح ـ ارسلوا احد ضباط استخباراتهم ليكفله بعدها استمعوا إلى لندمانس . إلا أنه لم يقف عند حده بسبب هذه الحادثة فقد قابل العقيد كيزوتر يوم ١٥ أيلول في ديبركن وذلك قبل يومين من الانزال واخبره بجميع المعلومات السرية التي اوثق بها ولم يذكر لندمانس كلمة ارنم . وقد دافعت بعض الصحف الهولندية عنه باخذها هذه النقطة مدعية أنه لم يفشي سر الانزال لأنه لم يحدد منطقة الانزال .

ومثل هذا الجدل عديم الفائدة ، فقد يكون لندمانس لم يذكر اسم المنطقة إلا أنه قابل العقيد كيزوتر واخبره بأن الانزال سيقع شمال اندهوفن . وقد ذكر هذا في اعترافه . وهنا كما يعلم أي شخص ملم بالتعبئة أن اي انزال مظلي يستهدف مسك ارض حيوية والمحافظة عليها لفترة من الوقت . والمظليون ـ وهم اهم عناصر المشاة ـ لا يمكن أن يبعثروا كيفما اتفق . ونظرة واحدة من قبل الالمان على الخريطة توضح لهم اهداف هذا الانزال شمال اندهوفن ، حيث لم تكن هناك فائدة من الانزال فوق الحقول . والاهداف الواضحة كانت طبعا جسور كريف ونجمكن وارنم ، فلو تمكن الحلفاء من الوصول اليها ومسكها لمدة من الزمن لتلتحق القوات الرئيسية سينشأ رأس جسر خطير للحلفاء موجه نحو قلب المانيا .

وبهذا لا يمكن أن يغسل عار لندمانس لأنه عندما اخبر العقيد كيزوتر عن الخطة السرية للغاية لانزال القوات المظلية الحليفة شمال اندهوفن قبل يومين من الانزال قد افشى سر معركة ارنم .

وكان تقديم لندمانس للقضاء شيئا وتنفيذ ذلك شيئا آخرا ، فكما بينت في فصل سابق كان لدي مشاكل كثيرة للتحقيق ، وكنت اعمل وحدي ودون

أن تكون لدي واسطة نقل ، ولم يرض بعض الضباط الكبار أن يحاكم لندمانس ، والذين قربوه لم يرضوا أن يفضح أمر قلة معرفتهم ، فقال البعض من المخلصين : إن محاكمة لندمانس ليس من مصلحة الجهد الحربي الهولندي ، حيث المعروف عنه أنه بطل وطني ، ويكون أمر اثبات خيانته لطمة كبرى للوطنية الهولندية . وكان موضوع محاكمته موضوعا دبلوماسيا وسياسيا ذقيقا . وقد استدعاني احد كبار ضباط القيادة الهولندية وشكرني على صيدي هذا ، إلا أني لم اتمكن من محاكمة لندمانس .

وبعدها ، اي في عيد الميلاد لعام ١٩٤٤ ـ كما تكلمت في الفصل السابع ـ مرضت وذهبت إلى لندن باجازة مرضية ، علقّت الصحف البريطانية على موضوع السجين السري الذي نشرت بعض الاخبار عن طيرانه إلى انكلترا والذي كان في سجن برينا وما اشيع من أن هناك ضابط هولندي موقوف في سجن لندن . وقد احتلت هذه القصة أو النظرية المثيرة كثيرا من عناوين الصحف التي كانت جائعة لمثل هذه الاخبار . وبناء على طلبي اتصل الممثلون الهولنديون بالصحافة البريطانية وطلبوا منها عدم الاشارة إلى اسباب اعتقاله وذلك لأن موضوع لندمانس لا زال قيد الدرس ، وقد أيد رئيس الرقابة الصحفية البريطانية هذا وطلب الكف عن نشر اي شيء يتعلق بموضوع لندمانس . ونتيجة للخلق الصحفي الطيب الذي يتمتع به البريطانيون اوقفوا الاشارة إلى الموضوع .

وبعد انهياري البدني في ١٩٤٤ ـ ايام عيد الميلاد ـ طلب مني أن استريح لمدة ثلاثة اشهر ولا يسمح لي ببحث اي موضوع . وفي هذه المدة كان لندمانس مطمئنا في زنزانته في الجناح الخاص بي في سجن برينا ، ولم يكن من المعقول أن يحاكم بغيابي . . ولكني كنت مسرورا لأنه لا يمكنه أن يقوم بعمل يؤذي به مجهود الحلفاء . ومع هذا فإن السجن وعدم الفعالية وفقدان المشجعين والعّباد والتفكير بالمستقبل المظلم كان افظع انواع التعذيب بالنسبة له .

وفي حزيران ١٩٤٥ تمكنت من أن ابدأ العمل مجددا في موضوع لندمانس ، فكان اول عمل قمت به هو طلب نقله من سجن برينا إلى القصر الاورنجي المظلم الذي يشكل جزءا من سجن شفينينكن . وفي زنزانة هناك ، التي ربما كانت مأوى لبعض الذين خانهم ، عرف لندمانس أنه خطى خطوة اخرى نحو العدالة .

والعزلة والامتناع لرجل عرف بحبه للنساء وفقدانه لحب الابطال ، الذي ارتكزت عليه دعائم غروره ، غيرته تماما . . فقد فقد شهيته للاكل وبدا وكأنه هيكلا عظميا بعدما فقد عضلاته الصلبة بسبب عدم الفعالية ، إلا أن مظهره الضخم لم يتبدل . . فكان هيكلا فارغا علقت عليه الملابس تعليقا ، وقد شاب رأسه واصبحت عيناه داكنتان في حجريهما . وعندما كنت ازوره كان وضعه يدعو للرحمة ، ولكن اي رحمة يمكن أن يستحق مثل هذا الرجل ؟ الرجل الذي خان بلده واصدقائه من اجل المال ، والذي كلفنا سبعة آلاف قتيل في ارنم ، واطال الحرب الاوروبية ستة اشهر أخرى؟ . لا يمكنني أن احمل لمثل هذا الرجل سوى الاحتقار لأنه لا يحتمل ما يعامل به الآخرون من التعذيب الذي أمر به لهم . فكنت تواقا إلى أن اراه يحاكم .

وهكذا رجعت إلى مكتبي الذي اصبح الآن في مؤسسة مكافحة الجاسوسية الهولندية . وقد احتجت إلى المستندات التي يمكنني بموجبها أن اقدم لندمانس للمحاكمة .

لقد كانت غرفة المعلومات في القيادة مراقبة جيدا فلا يسمح الا للضباط الكبار ـ وفي المهمات الخاصة فقط ـ في دخولها . وأي مستند يؤخذ من تلك الغرفة يجب أن يوقع من اجله ، وتقارن التواقيع مع تلك التي في الهويات لئلا تزّور . وقد احاط البناية مجموعة من رجال الأمن ، وقد رأيت قبلا منظومات من عناصر الأمن إلا أنني لم أر مثل هذه المنظومة من ناحية الكفاءة ، ولا يمكن أن تكون هناك منظومة احسن منها في اي مكان .

ولكني عندما ذهبت لأخذ المحفظة الحيوية لموضوع لندمانس لم اجدها

في مكانها . وقد بحثت عنها بين المحافظ المجاورة بل وفي كل محافظ الغرفة فلم اجد لها اثرا . وقد فحصت فهرست المكتبة ايضا فلم اجد محفظة لندمانس فقد حذف اسمه تماما من الفهرست .

اخذت ابحث عن المحفظة في كل مكان وبلا كلل ، وفي النهاية عرفت أن هناك ضابط كبير اخذها قبل ايام . . وعندما سألته اعترف باخذها لمدة قصيرة ولكنه اعطاها لضابط كبير آخر . وعندما سألت هذا قال أنه لا يعرف شيئا عن محفظة لندمانس وأنه لم يراها قبلا . وعند رجوعي للضابط الاول واعلامه تملكته الدهشة واقسم أنه اعطى المحفظة إلى الضابط الثاني في اليوم الفلاني . . وهنا انتهى الامر .

ومنذ ذلك الحين لم ار أي اثر لمحفظة لندمانس .

وفي تشرين الاول ١٩٤٥ بعد أن كثرت مراجعاتي بشأن ضرورة محاكمة لندمانس رفعت ونقلت للخدمة في المانيا خارج نطاق الجاسوسية ، وكنت متوقعا هذا الحدث . وفي الحقيقة كنت امزح مع اصدقائي في احتمال مثل هذا . وهناك مثل هولندي يقول أن من يرغب في ضرب الكلب يمكنه أن يجد العصى . . فقد عرفت بعد قبضي على لندمانس أن هناك من يجد العصى لضربي .

إلا أنني لم أأسف على ما قمت به ، ولكني كنت متأسفا لعدم حصولي على نتائج افضل . وقد اعتقدت أن على أي شعب أن يرتفع لمستوى معرفة الحقيقة مهما كانت مرّة . ولم يعرف اكثر الهولنديين سبب فشل خطة ارنم . فقد وضعوا اللوم على المناخ أو الحظ أو اهمال مونتغومري في وضع الخطة ولم يعلموا أن رجلا منهم افشى سر المعركة قبل أن تبدأ . وعلى ما يظهر أنهم سوف لا يعرفون ذلك ما دام لندمانس في السجن .

وهكذا مرت الاشهر وصفت الامور ، ولكن في مايس ١٩٤٦ بعد أن

غاب عن ذهني موضوع لندمانس حدث شيء مفاجىء ، فقد تخلصت الصحافة البريطانية من الرقابة بعد أن مر على الحرب الاوروبية عندها ما يقارب السنة ، فاخذت الصحف البريطانية تتساءل عن الضابط الهولندي الذي خان ارنم ، أو عن السجين السري في سجن لندن .

ولعدة ايام استمرت الصحف تنشر وجهات نظرها في ضرورة معرفة الحقائق عن موضوع لندمانس وقد طرحت جميع الصحف نفس الاسئلة : لقد القي القبض على الضابط الهولندي قبل (١٨) شهرا فهل حوكم ؟ وإذا حوكم ماذا كانت نتيجة المحاكمة ؟ وإن لم يحاكم لحد الآن فما هو سبب التأخير ؟

وامام مثل هذه المطالب كان هناك حل واحد امام الحكومة الهولندية . . لهذا اعلنت أن لندمانس ستحاكمه محكمة خاصة في حزيران ١٩٤٦ .

وفي هذه المرحلة من قصة لندمانس كانت معلوماتي عن موضوعه مستمدة من التقارير الرسمية وما سمعته من اصدقائي الضباط إذ لم اكن في هولندا لأسمع قصته اولا بأول . . وما من شك أن التقارير الرسمية كانت صادقة . وكما في اكثر الامور هناك نهايات غير معروفة وعلامات استفهام لا يمكن الاجابة عليها بوضوح خاصة بالنسبة لي ، انا الذي ارغب في أن تكون الادلة كاملة .

وكما قلت سابقا فإن سجن شفيننكن كان اوسع سجن في هولندا ، وقد استخدمه النازيون لحجز السجناء السياسيين . وقد مات الكثير من الهولنديين الشجعان فيه بسبب التعذيب . وعند طرد النازيين واستيلاء الحلفاء عليه وجد أن اكثر الهولنديين الموجودين فيه مرضى لدرجة لم يكن بالاستطاعة نقلهم منه ، ولهذا جهز السجن بمستشفى خاص به ، فاخذ السجن يتحول بالتدريج إلى مستشفى ولم يبق الا جناح واحد يستخدم لغرض السجن ، وفي ذلك الجناح حجز المتعاونون والمخربون والجواسيس وكان بينهم لندمانس .

وقد استمر لندمانس في الهزال لمدة اشهر واصبح نحيفا لدرجة يكاد أن

يكون هيكلا خاليا بالاضافة إلى ذلك اصيب بشلل جزئي وبهذا اقتنع الاطباء بضرورة نقله من زنزانته الحجرية إلى جناح المستشفى في السجن ظنا منهم بأنه اصيب بالسل بعد أن عرفوا أنه سبق واصيب بطلقة نارية في رئته وارادوا اجراء بعض الفحوص بهذا الشأن .

لم تكن هناك ممرضات عادة في مستشفيات السجن الهولندية ، ولكن بسبب كون سجن شفيننكن اكثر منه مستشفى ادخلت اليه الممرضات . ولما كان لندمانس قد فقد بنيته الرياضية ، التي جعلت الفتيات يلتفتن حوله ، إلا أنه لا يزال يحتفظ بشيء من الرجولة ، اذن لصدقنا ما قالت عنه آنذاك التقارير الرسمية . . فقد وقعت احدى ممرضات المستشفى في غرامه . ومن يدري قد يكون عرفها في ايام العز . . ايام كان بامكان لندمانس أن يمسك رجلين ويضرب بعضهما ببعض . . ايام كان يشرب فيها ثلاثة أضعاف ما يشربه الرجل العادي . . ايام كان يروي فيها اربع فتيات بحيويته الجنسية . أو قد تكون سمعته التي استهوتها به كقائد مقاومة مشهور دون الالتفات إلى التهم الموجهة اليه . ومهما كان السبب ـ حيث لا يمكننا معرفة الدوافع الحقيقية ـ قررت هذه الممرضة أن تقوم بمساعدته على الهرب .

لقد وضع لندمانس في غرفة منفردة ، وكان الباب مغلقا من الخارج ، وهناك شباك صغير مغلقا ايضا . وتقع هذه الغرفة في الطابق الثاني وبعيدة عن الارض بحيث لم يكن من السهل أن يهرب منها رجل ناهيك أن يكون لندمانس الهزيل المشلول . وقد قيل أن خطة الهرب كادت أن تنجح ، فقد تمكنت الممرضة أن تدخل منشار حديدي إلى غرفة لندمانس لتستخدمه في تقطيع حواجز ذلك الشباك بحيث يمكن ازالتها بدفعة واحدة ، وكان يعاونها رجلا لقب بالفأر الطروب يبدو ـ على ما يظهر ـ أنه يقضي مدة عقوبته بسبب جريمة صغيرة واعطي ـ نتيجة لمساعي الممرضة ـ مهمة تمريض السجناء .

ولو أن القارىء جرب يوما القيام بقطع القضبان الحديدية لعرف صعوبة ذلك خاصة إذا كان عليه أن يقوم بذلك بدون ضوضاء . وقد

اعطيت ممرضات المستشفى عدة مهام لتنفيذها ، وعلى ما يظهر لم يكن لديهن الوقت الكافي لتنفيذ تلك المهام ، ومع هذا نجد ممرضة لديها الوقت الكافي لتبقى الساعات في غرفة لندمانس ودون أن تثير شكوك زميلاتها كثيرات الملاحظة . وقد كانت تتعاون مع الفأر الطروب في قطع القضبان ، ومع هذا يظهر أنها كانت تختفي عندما يقترب أحد إلى غرفة لندمانس . . وهذه الاعمال تجري كلها في مكان واحد دون أن تلاحظ ، وفي داخل مستشفى سجن كانت هذه اشبه بالخيال .

والجزء الثاني من الخطة كان اصعب من الجزء الاول بكثير . . إذ كان على المتآمرين الثلاثة أن يجدوا طريقة ليصل بها لندمانس إلى الارض بعد أن استطاعوا من قلع القضبان والتسلق إلى الشباك . وقد كانت الزنزانة بعيدة عن الارض كما ذكرنا فلم يكن هناك مكان لرجل أو انبوب مجاري ليساعده في نزوله . وقد اتفقوا أن يحضر الفأر الطروب انبوبا مطاطيا يخرج طرفه من شباك احد الحوانيت المقابل لشباك غرفة لندمانس ، وما على لندمانس في ليلة الهرب سوى أن يقف على حافة شباكه ويمسك الانبوب ويربطه وينزلق بمعونته نحو الارض .

وبالنسبة للندمانس في السابق كان بامكانه أن يقوم بمثل هذا بسهولة ، إذ كان بامكانه أن يتعلق بالانبوب إلى أي مسافة يرغب فيها ما دام الانبوب يتحمل ثقله الكبير ، اما الآن فإن هذا اصبح متعبا له بالنسبة لخوره وهزاله ولو أن ثقله قد خف اكثر من السابق بالنسبة لذراعيه ، إلا أن هذا ليس تعويضا كافيا . . فلندمانس الذي رأيته قبل عدة اشهر لم يكن بامكانه الآن أن يشد عقدة في حبل . . ومع هذا فقد ضعف اكثر وفقد شهيته للأكل ، فكان عليه أن يقوم بمجازفة في الظلام والتي قد يتردد في القيام بها أي لص متمرن .

والاكثر غرابة ـ حسبما جاء في التقرير الرسمي ـ أنه نجح في محاولته الخطرة هذه ، إذ تمكن من الانخراط مع الانبوب إلى الارض . ولسوء حظه

أنه احدث ضوضاء عند نزوله فسمعه الحرس في ساحة السجن ثم قبضوا عليه ، وبعد دقائق اعيد خلف القضبان ثانية .

والشيء الاعتيادي أن تجتهد السلطة في القبض على الذين عاونوه على الهرب حيث قام بمحاولته هذه قبل ايام قليلة من محاكمته . ولم يكن احتمال معاونة الممرضة له بعيدا والتي خصصت معظم وقتها لخدمته . وحتى إذا كانت هناك صعوبة في اثبات عونها له فكان من الافضل أن تعطي مهمة خدمته لممرضة اخرى ، ولكن لسبب غير معروف لم يقبض عليها أو تحاكم لقيامها في مساعدة لندمانس على الهرب ولم تنقل من المستشفى .

وكان يوم محكمة لندمانس يقترب وسيعرف العالم بقصته فتتحطم خرافته إلى الابد . . ولكن القدر لعب دوره مرة اخرى . . فقبل يومين من المحاكمة وبعد التفتيش الاعتيادي للزنزانات وجد لندمانس مستلقيا على فراشه ميتا ووجدت الممرضة منحنية على صدره وقد سمّت نفسها ايضا ، إلا أنها كانت تتنفس . وبعد أن عولجت بالادوية القاذفة افاقت واعترفت بأنها اعطت لندمانس (٨٠) حبة من الاسبرين واخذت هي عددا مماثلا بعد أن اتفقا ـ كما قالت ـ على معاهدة انتحار .

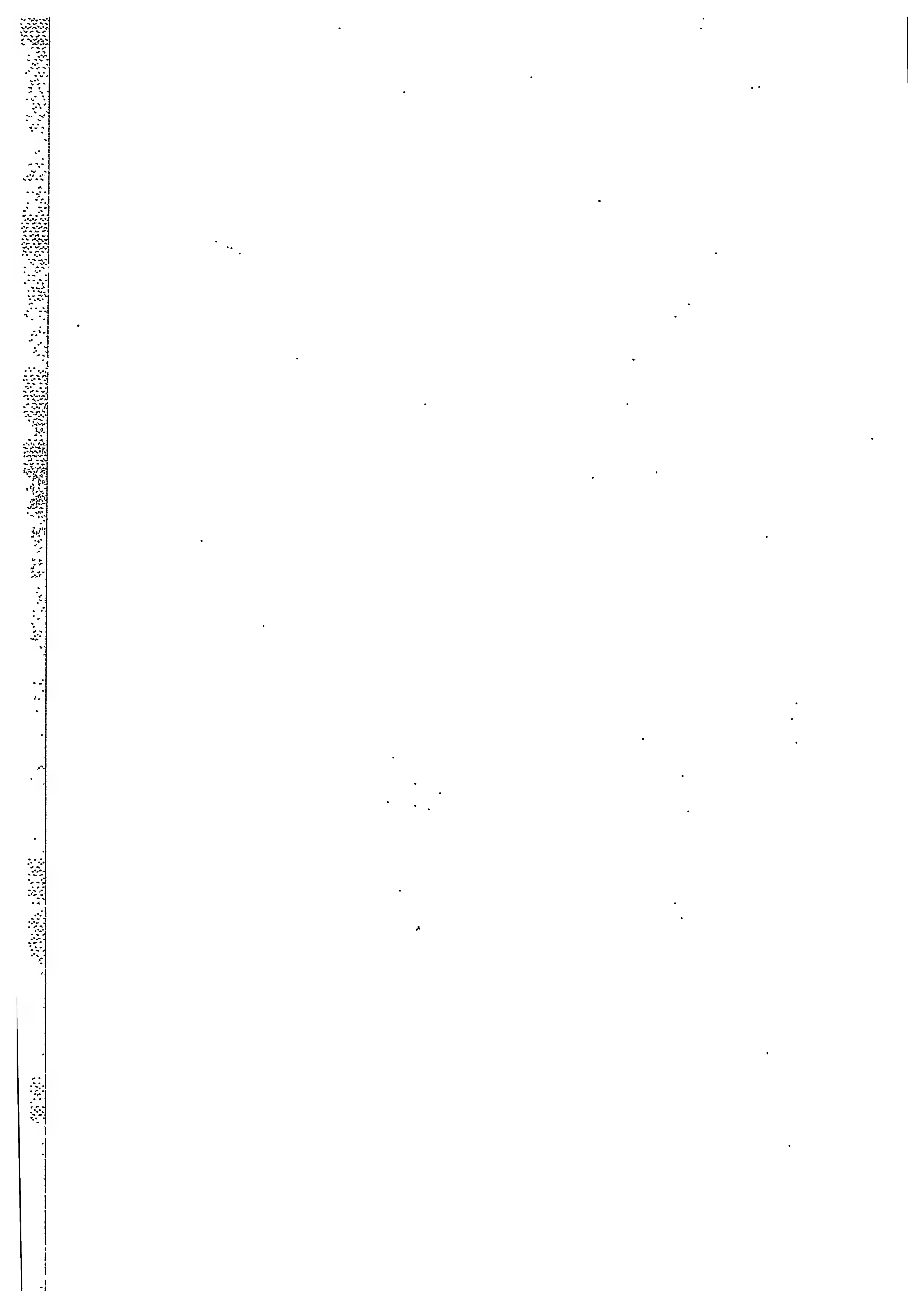
وبهذا تمكن خائن من الافلات من العدالة واصبح بعيدا عن متناول القانون . ولكن ماذا حدث بالنسبة للمرضة التي عاونته على الانتحار ؟ لقد كانت ـ بكل تأكيد ـ تستحق الاتهام لأنها ساعدت أولا سجينا على الهرب ، وثانيا عاونته على الانتحار ، وهذه جريمة قتل . ولكنها لم تحاكم واحتفظت بمناصب ومسؤولية كبيرة في هولندا . . ولم افهم الاسباب في ذلك حتى يومنا هذا .

اما فرلوب ـ الذي اعترف بخيانته التي ايدتها ظنوني ـ فقد تمكن التملص من المحاكمة ، فلم اجد اي اشارة لموضوع محاكمته ، وعرفت أنه حصل على منصب كبير في المانيا في الممثلية الهولندية . . ومثل هذا كان غريبا حقا إذ كيف يكافأ رجل خان بلده ؟

اما المحكمة التي شكلت لمحاكمة لندمانس فقد حلت قبل أن تجتمع . ولم تكن هناك الا اخبار قصيرة عن موته في الصحف الهولندية ، وقد اغلق بحث موته رسميا .

وهكذا نجد الخائن الاكبر ، المغرور ، الجبان ، أن الحظ بجانبه في تعلق النساء به ، وقد كانت النساء سببا في القبض عليه ، فلو أنه لم يدخل المعسكر لطلب اطلاق سراح فتاتين كان يمكن أن لا أراه أو اتهمه بالخيانة .

كان لندمانس بدون أي شك خائن ومن النوع الذي لم اجد اسوأ منه حيث سبب أذىً كبيرا ، وحتى لو أننا لا نعترف أن خيانته سببت في اطالة الحرب ستة اشهر اخرى لا يمكننا أن نتجاهل الحقيقة وهي أنه كان مسؤولا عن موت سبعة آلاف قتيل من الشياطين الحمر في ارنم وعن موت الكثير من زملائه في المقاومة وعن الموت البطيء لكثير من الوكلاء الذين افشى سرهم . ولم يعرف العالم إلى الآن شيئا عنه بسبب موته قبل محاكمته . وهناك محاولات بعضها رسمية لاحياء ذكراه كبطل قومي ، وقد طلب مني ممثل الحكومة الهولندية في لندن عندما ارادت بعض الصحف أن تكتب عن حياته وموته أن ارفض القول بأن كنج كونج افشى سر ارنم ، ولم يكن بالنسبة لي طفلا مدللا وقع في خطأ بل كان خائنا محترفا باع معلوماته السرية لاشباع شهواته الكثيرة . . ولأول مرة اذكر الحقائق كاملة كما عرفتها . وعندما استند على التقارير السرية الرسمية في آخر مراحل قصتي هذه تمتعت بالحرية في التعليق عليها . . ويبقى تثمين الادلة على عاتق القارىء وعليه أن يصل إلى استنتاجاته الخاصة . ودعنا نعترف أن كل بلد يرعى بعض الخونة ومن الاسلم الاعتراف بهذه الحقيقة . والوطن السعيد هو ذلك الوطن الذي لا يوجد بين أبنائه خائن أو خائنة .



الفَصْل العَاشِر

ذات القميص الأزرق



من أهم مزايا ضابط مكافحة الجاسوسية هي سيطرته على عواطفه . وربما كان عليّ أن أبين هذه النقطة في أحد الفصول السابقة عندما تكلمت عن خواص مكافح الجاسوسية . ولكن هذه النقطة مغمورة في أكثر المواضيع التي شرحتها في الفصول السابقة . فعلى مكافح الجاسوسية أن يعالج مهمته ببرود وبدون تحيز ، كما ينظر العالم لطفيليات البكتريا تحت المجهر . وعندما يسمح الضابط لنفسه أن تغمر عواطفه في أمر فإنه ليس يبدأ في إرتكاب الأخطاء في أحكامه فحسب ولكنه يجد نفسه بعد قليل عاجزاً عن إكمال موضوعاً واحداً .

ويصبح الرجال والنساء جواسيس نتيجة لدوافع معينة كثيرة .. فمنهم من يتطوع للمغامرة أو قد يفكرون بأن مثل هذا العمل عملاً جميلاً ومثيراً أو يتطوع البعض بسبب الطمع أو الدوافع الشخصية . وآخرون ـ كما هي الحال في قصة درونكرس موظف البريد الهولندي ـ يقومون بمثل هذا العمل نتيجة للعوز . ويقوم آخرون بمثل هذه المهمات بسبب وطنيتهم ورغبتهم في معاونة أوطانهم بأحسن ما يمكنهم أن يقوموا به . ومهما كانت الأسباب لدخول هذا المجال يقوم أكثر الجواسيس بالجهاد من أجل أنفسهم بكل ما لديهم من قابليات ثقافية عندما يتهمون ويستجوبون ، وهذا ما يقوم به أي فأر محاصر .

ومن الأشياء الغير مرغوب فيها بالنسبة لمكافح الجاسوسية الذي يقوم باستجواب جاسوس في مأزق هو السماح للعواطف أن تؤثر فيه ، وعليه يجب ألا يفكر بأن المتهم يجب شنقه ووضع الحبل حول عنقه إذا أراد أن ينجح في مهمته . وعليه ألا يفقد صبره إذا كان المتهم عنيداً ، أو يفقد صوابه إذا كان المتهم طليق اللسان ويحاول أن يدخله في أحكام خاطئة . وعليه ألا يتصف أثناء قيامه بالاستجواب إلا بصفات المثقف البارد ولا يتأثر مطلقاً بالعاطفة . إلا أنه يمكنه التظاهر بالعواطف لكي تسهل مهمته . وعليه أيضاً عندما يكون الموضوع قد اختمر أن يسمح لنفسه بالشعور بالاعجاب لاصرار الجاسوس وعناده ، أو قد يشعر بالاحتقار نحوه إذا كانت الدوافع والأعمال التي قام بها الجاسوس تستحق الاحتقار . ولكن هذه المشاعر وإن كانت إعتيادية بعد إنهاء الموضوع قد تكون خطرة إذا كان الموضوع قيد الدرس ، فإن هذه المشاعر قد تعتم الأحكام كما تعتم الأنفاس الزجاج في الأيام الباردة .

وبعد هذا القول يجب أن أعترف الآن أنه لا يوجد مكافح جاسوسية شريف من لا يعترف بأنه سمح في أحد المواضيع التي خاضها لعواطفه أن تتأثر . ومهما حاولنا أن نقوّي الضعف الانساني نحن بعد كل هذا بشر ولا يمكننا أن نؤكد بأن ظروف معينة قد تجعلنا نقصر في مهماتنا .

والقصة التي سأرويها هنا قصة لم أكن أتأثر بها أنا ، إلا أنني متأكد من أن الشخص الذي روى هذه القصة موثوقاً به ، وكان معتمداً من قبل الشعبة الثانية الفرنسية ، ولم يخبرني بالقصة لغرض التأثير بيّ عن قابليته وأنها قصة ليست عادية لأني كنت أعرف الكثير عن دقته في عمله وقابليته للخدمة كوكيل في البلاد العدوة . وقد احتفظت بقصته هذه خمسة وعشرين عاماً لنفسي ، وبعد أن توفي الآن وجدت أن لي الحق في سردها كمثال ممتاز والتي قد ينتقدها الكاتب موباسا الذي يمكنه أن يجيء بمثال في الجاسوسية يمكن للمرء فيه أن يتجنب العواطف .

بعد عدة سنين من إنتهاء الحرب العالمية الأولى كنت في باريس في

موضوع لا يحتاج إلى ذكر مفصل هنا . وقد كانت الشعبة الثانية الفرنسية تتعاون لأقصى الحدود معنا . وقد أعطتني خدمات أكثر وكلائها ثقة والذي سأسميه هنا (دوبو) وهو ليس اسمه الصحيح ذلك لأن أكثر أقاربه وبضمنهم زوجته كما أعتقد لا زالوا أحياء ، ولهذا أفضل عدم ذكر إسمه الصحيح . وقد عرفنا بعضنا نتيجة لعدة مقابلات تمت بيننا في الحرب العالمية الأولى عندما كنت ألحق بين حين وآخر بالشعبة الثانية الفرنسية . وقد متنت صداقتنا الحاضرة بعد أن أنهينا موضوعاً مشتركاً فقررنا أن نحتفل بالمناسبة على أحسن مائدة من موائد مطاعم باريس بخبرتها الطويلة في الطهي .

وقد كان العشاء ممتازاً ، وأثناء جلوسنا سكبنا آخر ما في كؤوسنا من قطرات البراندي وكنا في منتهى الانشراح ، وهذا جاء بطبيعة الحال بسبب الطعام الشهي والشراب اللذيـذ ولم يكن أحدنا سكراناً ولكننا كنا في منتهى الانشراح . وقد مرت الكلمات على الألسن دون أن تمت إلى كل يوم بصلة إذ لم تكن هناك أية مشاكل للتفكير فيها .

وكما هو الحال بين الأصدقاء القدماء كنا نستعرض الذكريات التي مرت بنا معاً والتي مرت بنا كل على حدة . . فتذكرنا معاً الأيام التي مرت مليئة بالاثارة والنجاح ، ثم الأيام التي لاقينا فيها الفشل ولكن كانت كلماتنا مقتضبة في هذا الموضوع . ثم تكلمنا في المواضيع التي كان يجب إتخاذ قرارات حاسمة وسريعة فيها . وكذلك تكلمنا عن المواضيع التي لا يتمكن المرء معرفة الحقيقة فيها . وكذلك المواضيع التي إنتهت بنهايات غير معروفة . وقد حدثت دوبو في موضوع كنت متأكداً فيه من أن متهمي جاسوس ، إلا أني لم أتمكن من إثبات ذلك فأخليت سبيله ، إلا أنني سوف أذكر جريمته إلى آخر يوم من حياتي .

وبعد أن أنهيت حديثي هذا ساد الصمت لفترة ، ونظرت إلى دوبو فوجدته ينظر إلى ما تبقى في كأسه سارحاً في التفكير ، فطلبت من الخادم أن يملأ قدحينا ، والتفت إلى دوبو وقلت : أخبرني هل صادفت موقفاً كان عليك

أن تتخذ فيه قراراً صعباً ؟ وهل كانت حياتك سلسلة من النجاحات ؟ وهل كنت تحصل دائماً على هدفك ؟

نظر إليّ دوبو وابتسم إبتسامة باهتة ، ولاحظت أنه كان ماسكاً قدحه بقوة حتى إن أصابعه خلت من الدماء ، فتساءلت في نفسي عن الكلمة التي قلتها وسببت في إزعاجه . . ثم أطلق أنفاسه الحبيسة بما يشبه الصفير وقال : حسناً يا صديقي لقد أصبت نقطة حساسة في نفسي فإن هناك موضوعاً لا أفتخر بذكره وفي بعض الليالي ينتابني الأرق بسبب ذكراه ، وأنت تعرف كيف أن الموضوع صعباً عندما يكون الجسم متعباً ولا يستسلم العقل للنوم . . إلا إني قمت بواجبي في النهاية وليس لدي شيئاً أخجل من ذكره الآن ، ولكن لماذا حدث كل هذا لي بالذات ؟ كيف يمكنني أن أنسى صورتها ؟

وهنا ركز إنتباهه على سيكارته التي كانت تشتعل ببطء ورطب الجزء الغير ملصق جيداً قرب النار وظهر لوهلة أنه ركز كل إنتباهه على سيكارته . .

قلت بهدوء : أخبرني . .

رفع رأسه نحوي وابتسم إبتسامة لطيفة إلا أنها حزينة ، وقال : ربما عليّ أن أخبرك لأني لم أخبر أحد بكلمة قبلاً . وعندما أفشي لك سري فسنقتسم الثقل على الأقل . .

توقف لحظة وأخذ يدور قدحه ثم سكبه وسمح لعدة قطرات أن تدخل بين شفتيه وقد احتفظ بالبراندي فوق لسانه لفترة من الزمن قبل أن يبتلعه .

قال : هذه قصتي ويمكن أن أتحدث لك أو لأي شخص آخر ، ولكنها حدثت لي :

لقد أرسلتني الشعبة الثانية إلى مكان ما في عمل يتعلق بالأمن ، وبقيت هناك أكثر من سنة فلم أحصل على أي إجازة خلال تلك الفترة . وأنت تذكر المعسكر جيداً حيث كان هناك عملاً كافياً لمئات من ضباط الأمن ، ولم

يكن هناك إلا إثنين أو ثلاثة ، ولم نتمكن أن ننهي العمل إلا بالعمل طول النهار وإلى منتصف الليل ، وكل ليلة وكل يوم يتدفق المتهمون الجدد وتبين لنا أننا لم نتقدم في العمل فكنا أشبه بمن يبحر بباخرة في مجذاف .

إستحقيت الاجازة بعد ستة أشهر من إبتدائي بالعمل في ذلك المعسكر ، ولكن عندما ابتدأت السنة الثانية بعد أن إمتنعت من أخذ الاجازة بسبب عدم رغبتي في إرهاق زملائي في العمل بالاضافة إلى حبي للعمل كما تعلم رغم كونه مرهقاً في مقابلة الجواسيس شعرت أن الأرهاق بدأ واضحاً عليّ مما جعلني عديم الصبر بين زملائي ، فأخذت أخطىء حتى في أعمالي اليومية وأسب المتهمين وأنسى كثير من التفاصيل التي أسمعها من المتهمين وأفشل في متابعة المنطق في موضوع ما ، فكنت بذلك على حافة الإنهيار . ومع هذا رفضت الاعتراف بالتعب حتى جاءني أمر في إحدى الأمسيات بالتمتع بالاجازة التي أستحقها فقبلتها بتردد إلا أنني كنت مسروراً جداً بها في السر .

لم أفضل الذهاب إلى باريس وزحامها فقررت أن أذهب إلى مدينة صغيرة تبعد عشرة أميال عن المعسكر الذي أعمل فيه ، وقد كانت هادئة وأمينة وبدت كما لو أن الحرب تجنبتها تماماً . وفي تلك الليلة رزم مراسلي حقيبتي وفي الصباح تركت المعسكر .

لقد ارتفعت معنوياتي لدى دخولي تلك المدينة الصغيرة إذ رأيت ثانية الشوارع الملتفة الخاصة بالمدن ورأيت النهر يلف نصف لفة حول المدينة التي بدت كما لو أنها إستلقت في أحضانه . وكانت الشمس مشرقة والطيور تغرد ، ولأول مرة خلال سنة شعرت بأني أتمتع بعقلية طالب مدرسة .

حجزت غرفة في أحسن فندق وصعدت لأستحم . . وقررت أن أنسى الحرب تماماً وأن أعيش أربعة عشر يوماً أخلو بها لنفسي .

كان الفندق نظيفاً ، وكان العاملون فيه نظيفون أذكياء . وقد جلست قبيل الغداء تحت أشعة الشمس في الممر ، فوقع بصري على قطعة فضية من

النهر بانت في نهاية حديقة الفندق . وفي هذه الأثناء شربت ثلاث قناني من النبيذ وبدت الحياة ممتعة لي من جديد ، وذهبت بعدها إلى المطعم لتناول الغداء .

ولم يكن هناك الكثير من الناس في غرفة الطعام ، وبدون وعي نظرت إلى جميع الناس بحسب مهنتي محاولاً معرفة حرفهم . . فكان هناك فلاحان يتحدثان ربما عن الموسم الزراعي ، وهناك أيضاً كان كهلاً قد يكون أحد أعيان تلك البلدة لأن بدلته الغامقة تدل عليه وكذلك تصرفه الدقيق وجلوسه وحده وتفرغه التام للأكل . وكان هناك زوج أو زوجين من الناس مبعثرين في صالة الطعام لم أستطع معرفة حرفهم . وسرعان ما نسيت الجميع عندما وقع بصري على فتاة جلست على المائدة المقابلة لي . . . فكانت شابة جميلة إرتدت قميصاً أزرق وقد جلست وحدها ولكنها وإن كانت تنظر إلى صحنها إلا أنها كانت تحس بوجودي كما كنت أحس بوجودها وهذا ما نبهتني به حاستي السادسة .

والآن تفهم ما يعني هذا الأمر بالنسبة لي حيث إني لم أقابل أنثى في ظروف طبيعية منذ أكثر من سنة ، ولم أجد واحدة بين المتهمات التي استجوبتهن في عملي من تقارن بحسن مظهر هذه الفتاة ، وقد كنت شاباً أعزباً وآمل أن لا أفقد أحاسيسي نحو الجنس اللطيف مهما طال بي العمر وتعثر . . وبالاضافة إلى ذلك كنت مجازاً ولا تخلو الاجازات من العشق .

وبعد أن أنتهى الغداء أخذت أسرق النظرات إلى جارتي الجميلة ، وعندما التقيت عيني بعينيها رفعت كأسي بنخب صامت ، فابتسمت إبتسامة عذبة . وبعدها طلبت حضور رئيس الخدم وكلفّته أن ينقل إعجابي إلى جارتي ويقترح عليها بأن كل منا وحيد والأفضل أن أشرب قهوتي على مائدتها ، وقد شجعته بذلك إلا أنه إرتبك في مهمته . وقد كنت داعياً في عملي هذا إلى مضايقة ولكني شعرت أنها سوف لاتحدث . . ولم تحدث فعلاً . فابتسمت للخادم وأومأت برأسها بالموافقة ثم نظرت إليّ وابتسمت . فقفزت حالاً على قدمي وتقدمت نحو مائدتها .

كانت محادثتنا في البداية مقتضبة . . ولم نعتاد كما هو الحال عندكم في انكلترا في التحدث عن المناخ . . ولكنا سرعان ما تمكنا من تحطيم الجليد فأخذنا نتحدث فرحين . كان اسمها ـ كما قالت ـ ماري ، وهي مستخدمة في إحدى الشركات التجارية في باريس كسكرتيرة وقد أتت هنا لتتمتع بإجازة . فسألتها عن سبب إختيارها مثل هذا المكان وهي الفتاة الجميلة الشابة حيث أن المكان منعزل وقليل الترفيه . . هزت كتفيها العريضين وابتسمت وقالت : باريس مدينة جميلة إلا أنها مسرعة ومزعجة في أفراحها . . ومملوءة دائماً بالجنود المجازين العازمين على إرتشاف آخر قطرات اللذة التي قد تنتهي إلى الأبد عند رجوعهم إلى القتال . وقد قالت أن والديها كانا في قرية داخل نطاق الحرب مما يتعذر عليها الذهاب هناك ، ولهذا قررت مع صديقة لها أن تتمتعا بالاجازة في مكان هادىء . وقد قيل أن هذه المدينة هادئة ولها محاسنها الخاصة بها . وفي اللحظة الأخيرة لم تتمكن صديقتها من مرافقتها بسبب ظروفها العائلية لهذا جاءت وحدها هنا هذا الصباح . .

ومثل هذه المعلومات تطلبت إيضاحاً من ناحيتي ، فقد أخبرتها إني أعمل في وكالة الأنباء الفرنسية ، وهذا كان حقاً كما تعلم حيث وضع كافة ضباط مكافحة الجاسوسية أثناء الحرب في وكالة الأنباء الفرنسية ، وكان ذلك غطاء لفعالياتنا السرية . وقلت لها إني كنت تعباً أيضاً من ضوضاء المدينة فقررت أن أتمتع بإجازتي في مكان هادىء . . وهنا إبتسمت وقلت : على ما يظهر تبدو إجازتي أقل هدوءاً مما توقعت . فاحمرّت وجنتاها وبرقت عيناها بالفرح .

وهنا عدت إلى الهجوم (قالها دوبو) فقد كانت الشمس مشرقة والجو جميلاً فسألتها إن كانت لديها خطط لقضاء بعد الظهر ، فقالت أنها فكرت في إيجار قارب والذهاب فيه للنزهة في النهر ، ولكنها أردفت قائلة : أنها لا تجيد التجذيف (قالتها بأسف) ، فقلت : إن هذه صدفة جميلة فإني أرغب في نفس الشيء ولكني خبير في التجذيف لأني وريث عائلة من البحارة لذلك لا أجد حاجة لنؤجر قاربين ونتجه إتجاهين مضادين وإن كان استئجار قاربين

شيئاً مربحاً لأصحاب القوارب . وسألتها إن كانت تود أن تشرفني بمصاحبتها في قارب واحد لتجنيبها الأخطار المحتملة بسبب عدم درايتها في التجديف . وبعد عدة دقائق من اللف والدوران الجميل قبلت دعوتي .

في تلك الفترة المشمسة من بعد ظهر ذلك اليوم ذهبنا معاً لنستأجر قارباً . جلست ماري على الأريكة أمامي وجلست أجذف ضد التيار ، ولم أكن ذو خبرة في ذلك كما ادعيت ولكني تمكنت من التجذيف لدرجة أني حافظت على إتجاه القارب . وقد نسيت الحرب ومشاغلي تماماً إذ كانت الطيور تزقزق وتتمايل أغصان الأشجار على جانبي النهر .

لقد بدت صداقتنا وكأنها تنضج في حر الصيف ، وبعد دقائق كنا كما لو عرفنا بعضنا لأشهر أو سنين فلم تكن هناك ضرورة للتردد في الكلام فنتحدث أحاديثاً متواصلة . وكنا نتوقف بين حين وآخر قرب الضفة لنتمتع برؤية الظلال المتقطعة التي رسمتها أغصان الأشجار المطلة على النهر ونصمت . . . ثم نبدأ أحاديث لذيذة أكثر إنشراحاً .

وبعد ساعة من التجذيف سحبت القارب جانباً إلى إحدى الضفاف وربطته في إحدى الأشجار وعاونت صديقتي الشقراء على النزول إلى الضفة ، ثم أخذنا نأكل بعض السندويشات التي طلبت أن توضع في سلة خاصة عندما كنا في الفندق ، وتقاسمنا قنينة من النبيذ واستلقينا على الحشيش الدافىء نستمتع بازيز النحل وزقزقة الطيور التي تتراقص على الأشجار المطلة على الضفة . وهنا جلست لأخذ سيكارة من علبة السكاير وانطرحت على جنبي مقابل ماري التي كانت مستلقية وقد احمر وجهها بسبب الشمس وكان نهداها اللينان يرتفعان وينخفضان تحت قميصها الأزرق وقد تمددت بلطف كالقطة القنوعة وابتسمت لي . وفجأة ملت عليها وقبلتها . فكانت شفتاها دافئتان وداعيتان والتصقنا طويلاً معاً بلذة مشتركة . . وبعدها ركبنا القارب مرة أخرى ولكنا إنحدرنا مع التيار نحو غروب قرص الشمس ، وكنا جالسين أنا وماري على الأريكة وكان خصرها الدقيق يضمه ساعدي ولم نتكلم كثيراً

بل قبلنا بعضنا بين لحظة وأخرى وامتدت يدي نحو صدرها اللين العالي بين القبل . . .

وكما تعلم قال دوبو لم يكن في هذه المرحلة موضوع حب فنحن لا نشابه الانكليز المتزمتين الذين عشت بينهم مدة طويلة فهم لا يعترفون باللذة الجسدية ولا يجدون لذة في تجربة التقبيل . أما بالنسبة للفرنسيين المنطقيين فإن هذا التفكير بمثابة وضع العربة أمام الحصان ، فكيف نعرف أننا نحب بعضنا إذا لم نعرف أننا نتناسب جسدياً . لقد تمتعنا ـ أنا وماري ـ بتقبيل بعضنا والتقرب لبعضنا ، وقد يرتفع هذا الولع بمرور الوقت إلى حب إلا أننا لم نتعجل الأمور بل تركناها تأخذ مجراها ، فقد كنا في إجازة بعيداً عن وحشية الحرب ، وما علينا إلا التمتع باليوم أما مشاكل الغد فنتركها للغد .

وفي ذلك المساء تناولنا عشاءنا معاً ، وبعد ذلك ذهبنا نمشي على ضفة النهر ، وأنت تعرف أن هذه المدينة الهادئة ليس فيها مجالاً للترفيه ، ولم يهمنا هذا فقد كنا شابين يغلي الدم في عروقنا . ولم نتحدث عن إتجاهات عواطفنا أثناء إستمتاعنا بالمشي ، ولكن عندما رجعنا للفندق كانت الصالة خالية من النزلاء وأكثرهم في غرف نومهم ، فأصبح من الطبيعي أن أجد طريقي مع ماري إلى غرفة نومي . وقد كانت الشبابيك مفتوحة والستائر مرفوعة ، وقد دخل ضوء القمر مع نسمات الليل اللطيفة إلى الغرفة . . وبسرعة علقنا ملابسنا فبدت ماري بيضاء كعمود الرخام في ضوء القمر . وبدون أن نكلم بعضنا أسرعت أقترب منها على الفراش وأخذت أعصرها بين ذراعي وأضمها بشغف متزايد فوضعت ذراعيها حول عنقي . . وكما يقوم الرجال والنساء في لحظات الانسجام أخذت تداعب اذني بهمسات الغرام المتقطعة . . وفي الوقت الذي فقدنا فيه الحس في ذروة الانسجام قالت بالألمانية : آه . . أحبك . . . .

بعد سماعي ذلك تجمدت أطرافي وانقلب إعجابي بها إلى حقد بسرعة غريبة وشعرت بأنني أحتضن أفعى بين يدي ، وقد إجتمعت كل سنين تجاربي

في مكافحة الجاسوسية في تلك اللحظة وأخذت أتقدد بالشك : هل سمعتها خطأ ؟ ولكن لا . . لا يمكنني أن أغالط نفسي لهذا الحد . . ماري الفرنسية التي عملت كسكرتيرة في باريس والتي تتمتع بإجازة هنا تكلمت بالألمانية في ذروة شهوتها . .

تركتها وخرجت من الفراش وفتحت النور وأخذت أجمع الملابس التي بعثرتها بسبب عطشي لها وأخذت أرتدي ملابسي . وقد عجبت ماري من تصرفي هذا لأنها لم تنتبه إلى ما قالته لي بالألمانية ونظرت إليّ بفزع وقالت : ما بك يا حبيبي ؟ ماذا حدث ؟

وهنا تفوهت بأول فكرة خطرت ببالي إذ قلت : إني خارج لشراء بعض السكاير إذ لم يبقي لدي شيئاً منها . .

فاستلقت وضحكت وقالت : سيكاير ؟ ومن أين تشتريها في هذا الوقت من الليل ؟ لديك هنا علبة مملوءة من السكاير تكفيك حتى لو دخنت طول الليل ، وأنت تعلم أن هناك لذات نقتسمها معاً سوف تلهيك عن السكاير . . أو هل أنك فشلت في ممارسة الحب معي ؟ أخبرني الحقيقة . . .

وهنا إبتسمت وزفعت ذراعيها تدعوني ثانية إلى الفراش . وفي هذه اللحظة كنت أذخل أقدامي في حذائي .

أجبتها : أنا آسف يا ماري فإني لا أشعر بالحب بعد الآن . . لا تضطريني أن أتكلم بصراحة لأنني عازم على عدم القيام بواجبي الآن . لنفرض أني ذاهب لشراء السكاير وسأرجع بعد نصف ساعة ، وإذا رجعت ووجدتك في الفندق فسأكون أمام الأمر الواقع وسأعتقلك وأسلمك لأقرب قيادة عسكرية . .

قالت : تعتقلني يا حبيبي ؟ إنك ليس على ما يرام . . أو هل أن قولك هذا نكتة ؟

قلت : إني أقصد ما أقول . . ويا ريت أن يكون قولي هذا نكتة . .

وربما تفهميني عندما أقول إني أعمل في وكالة الأنباء الفرنسية لحساب الشعبة الثانية في الجيش الفرنسي ، والآن هل تكلمت بوضوح ؟

قالت : ولكن ما الذي عملته ؟

قلت : يجب أن لا أضيع الوقت فقد كنت لطيفة جداً وأكثر مما يمكنني قوله ، ولكن يجب أن أودعك الآن ، وأرجو أن تعرفي إني أقصد ما أقول فقد فشلت في أداء واجبي وأرجو أن لا يتكرر الأمر ثانية .

ودون أن ألتفت إليها أغلقت الباب خلفي وذهبت إلى المكان الذي قضينا فيه الساعات القليلة اللذيذة قبل وقت قصير . . وأخذت أمشي على ضفة النهر وأدخن السيكارة تلو الأخرى . وقد كنت متأكداً من أن ماري جاسوسة ألمانية . وقد تذكرت الأغلاط الصغيرة التي جاءت بها في شرحها سبب وجودها في هذه المدينة والتي صدقتها قبل أن أسمع الكلمات الألمانية التي ذكرتها في نشوة غيبوبتها . ومع هذا فقد اسعدتني ساعات طوال واستسلمت لي بكل رغباتها ولم يكن يدفعها قصد معين إذ لم يكن لديها أي فكرة في أنني عسكري ، ولم يكن بيننا شيء يجعلها تحاول إغرائي . . وربما أنها كانت هي أيضاً في إجازة بالفعل . ولكن كل هذا تبدد لأنها فعلاً جاسوسة . ولو كنت وكيلاً مخلصاً ضد الجاسوسية لقمت باعتقالها في تلك اللحظة ، إلا أنني كنت أحمل بعض العواطف كأي إنسان من دم ولحم .

وكنت أمشي وأطلب من الله أن تكون استنتاجاتي هذه خاطئة وإني بعد أن أرجع إلى الفندق سأجدها هناك مستلقية على نفس الفراش . . وقد تكون غاضبة وخجلة إلا أنها بريئة ولم تفهم إنذاري . وبعد أن إنتهت النصف ساعة من هذا التفكير رجعت مسرعاً إلى الفندق ولكني لم أجدها . . ولما ذهبت لأرى فيما إذا يمكنني أن أجدها في غرفتها وجدت غرفتها مظلمة ولم أجد أثراً لشيء فيها . . فقد هربت ماري وأخذت بنصيحتي ، وبهذا إعترفت بأنها وكيلة ألمانية .

وهنا توقف دوبو عن الكلام وسحق بما تبقى من سيكارته كما لو أنه أنهى قصته .

قلت : أنها لقصة غريبة ومحزنة حقاً .

إلا أنه قال : لحظة واحدة ، لم تكن هذه النهاية لهذه القصة المحزنة بل كان هناك صراع كبير تلى هروبها ، فقد طعنتني ثانية . .

قلت : أرجوك أسرد لي ما حدث بالضبط . .

قال : لقد بقيت في تلك المدينة يوماً آخراً ، إلا أنني فقدت كل متعة في إجازتي إذ رافقني طيف ماري أينما ذهبت ، فكنت أذكرها وأذكر صدرها اللين وقميصها الأزرق أينما ذهبت ، وأخذت أتضايق من جميع الزوار وسئمت كل شيء فذهبت إلى الفراش بعد الغداء مباشرة في ذلك النهار ، إلا أنني لم أستطع النوم وكنت أتساءل أين ذهبت ؟ وأخذت ألعن نفسي لجنوني بالشك ولم أتمكن من أن أخلع ملابس مهنتي حتى في إجازتي . وقد لمت نفسي لتصرفي هذا فقد كان يمكن أن أتمتع بإجازتي مع ماري وابتلع الحقيقة في أنها جاسوسة وكان يمكن أن تكون عديمة الضرر لكونها بصحبتي طول الوقت فلا يمكنها أن تتجسس حتى لو أرادت ذلك وكان بإمكاني أن أنذرها وأن أقنعها بالكف عن التجسس ، إلا أنني فقدت الفرصة في التمتع بالحياة مع فتاة استحوذت على أعماق مشاعري خلال ساعات . ومن كثرة الملل قررت أن أقطع إجازتي ، وقد عجب زملائي بسبب رجوعي المفاجىء ، إلا أنهم فرحوا في ذلك لكثرة مشاغلهم المتراكمة ، وقد كانت بعض ملاحظاتهم قريبة جداً لما كان في أعماقي ، إلا أني لم أجبهم وتركتهم يهزأون . . وقد حاولت أن أجد السلوى في الأعمال المتراكمة التي كانت أمامي .

وبعد رجوعي بيومين سمعت ضوضاء خارج خيمتي ، ولما رأيت أحد الضباط الاحتياط يتقدم ويحييني قائلاً : سامحني يا سيدي فقد ألقى إثنان من رجالي على جاسوسة في القرية المجاورة وجاءوا بها إليّ . . وقد قبضوا عليها بعد أن أخبرهم أحد الضباط أنها كانت تحاول أخذ المعلومات منه ، وهؤلاء

هنا . . هل تريد أن تستفهم منهم ؟ إلا أنني عندما نظرت إليهم كنت كمن أصيب برصاصة في القلب ، فقد رأيت ماري وقد أمسك بها الجنديان من معصميها الدقيقين ، وكانت نظراتها متحدية . إلا أنها عندما رأتني إصفر وجهها من الدهشة والخوف فأخذ قلبي يدق عندما نظرت إليها .

قلت : ما هذا الموضوع ؟

وقف عندها أحد الجنديين بالاستعداد دون أن يترك معصم ماري وتكلم بلا توقف كما يتكلم الجنود المكلفون والاحتياط. وقال : سيدي ، قبل ساعة كنا أنا ودوبي في الواجب خارج مشرب الأرنب الأحمر وكانت هذه مع أحد الضباط في غرفة خاصة ، وقد شك في أمرها الضابط وتظاهر بالسكر فأخذت تسأله عن مكان وحدته وعن الفرقة التي ينتسب إليها ، فشغلها معه وأرسل صديقاً له في طلبنا ، ولهذا إعتقلناها وأتينا بها لك بعد أن وجدنا في حقيبتها هذا الدفتر الصغير .

وهنا أخرج الجندي دفتراً مغلفاً بغلاف جلدي ، فأخذت أفحصه سريعاً ، وهبط قلبي في جوفي إذ وجدت فيه أسماء وأسماء وحدات الكثير من الضباط ، كما وجدت خريطة تقريبية على إحدى الصفحات عليها الكثير من الرموز والاشارات الخاصة بالخرائط الألمانية . والأسوأ من هذا وجدت صفحة أخرى كتب عليها عنوانين من عناوين برلين .

ولم أستطع النظر إلى ماري بعد النظرة الأولى المستغربة بالعين ، ولكني الآن جمعت شجاعتي ونظرت إليها بالعين وقلت : هل لديك أي رد على هذا القول ؟ (وكانت نبرتي رسمية جداً) .

وهنا إبتسمت نصف إبتسامة وقالت : هذه هي الحرب . .

ثم فقدت سيطرتها على نفسها وسحبت يديها من الجنديين وخفضت رأسها إلى قدمي تقبلها . وأنت تعرف قذارة المعسكرات والطين ، فقد إمتدت بطولها على الطين ومسكت أقدامي وهي تبكي وتسأل الرحمة والشفقة

بينما حاول الحرس سحبها لتقف على قدميها . وهنا نظرت إلى شعرها الأشقر الـذي رأيته ذات ليلة دافئـاً غارقـاً بالحب ملقى عـلى الوسـائد النـاعمة ، ولم أستطع الكلام .

قـالت وهي تبكي : إنقذني بحق السـماء ، أخلي سبيـلي ، استجديـك العـطف ، إني صغيـرة لا أستحق المـوت . (إلا أنها لم تنسى حتى في محنتهـا هذه أن تكلمني بالألمانية لئلا يفهم قولها الحرس) .

إلا أنني هنـا إقتنعت بأنـه لا يمكنني أن أنسى واجبي ، فأمـرت الحرس أن يسجنوا مازي .

ولم تـطل محاكمتهـا في الصباح التـالي ، ولقـد لعب القـدر دوره ثـانيـة معي ، فقد كنت الضابط الذي يلي رئيس المحكمـة في القدم ، ولم يكن هـذا موجوداً ليـرأس المحكمة فتـرأستها أنـا . وبعد سمـاع الأدلة أمـرت أن ترمى ماري في فجر اليـوم التالي بـالرصـاص . وكما هي العـادة طلبت منها عـما إذا كانت تريد مطلبـاً قبل إعـدامها نـظرت إليّ وابتسمت خفيفاً وقـد استرجعت سيطرتها تماماً وقالت : أريد علبة سكاير (قالتها بمنتهى البرود) وإستـطردت تقول : كذكرى لاجازة سعيدة وإن كانت قصيرة ومن صديق أعطاني فرصة ولم يتمكن من إعطائي فرصة ثانية .

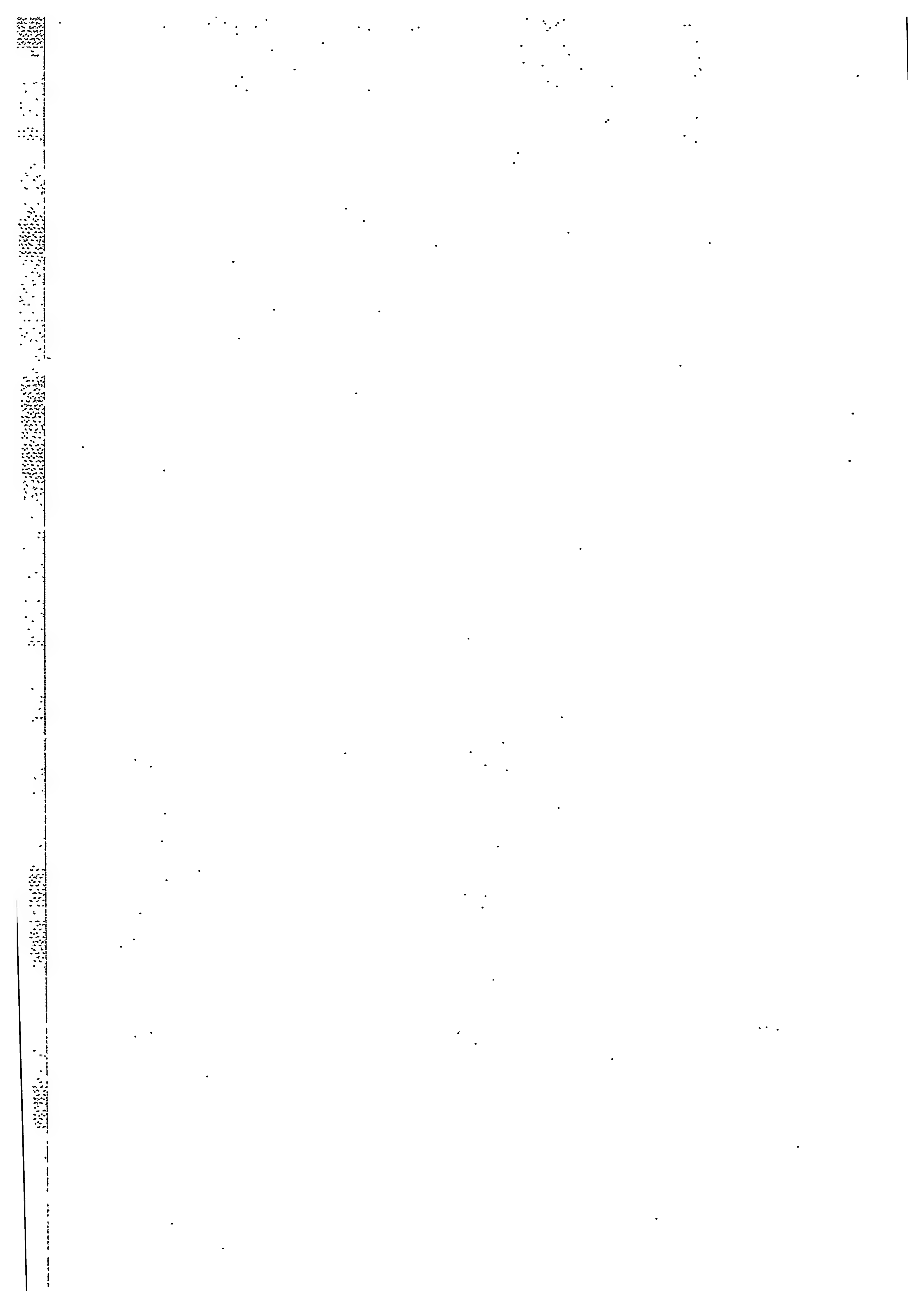
وفي فجر اليوم الثاني رميت . وقد ماتت بشجاعة كما قيل لي إذ جابهت الموت دون أن تطأطىء رأسها .

وحتى هـذا اليوم أنهض فـزعاً في الليـل وزوجتي بجانبي أتـذكر مـاري وأشعر بالألم يعصر قلبي ، إلا أنني لم أتمكن من عمل غير ما قمت به .

فنـظرت إلى دوبو وقلت بـالفرنسيـة : لا شيء يمكنك أن تقـوم بـه إلا هذا ، إنها الحرب .

المُلْحَق

طبيعة المعلومات



جاء الكاتب بأمثلة كثيرة عن كيفية تمكنه من إكتشاف الجواسيس ، وقد كانت النهاية بالنسبة لجميع هؤلاء الأعدام . فماذا يا ترى المعلومات الخطيرة التي يقوم بنقلها مثل هؤلاء إلى البلاد العدوة ؟

أصبحت الحرب اليوم حرباً (كلية) ، وهناك ثلاثة خطوط رئيسية تدور حولها المعلومات : هناك المعلومات السياسية ، والمعلومات العسكرية ، والمعلومات الاقتصادية . ولا يمكننا تمييز هذه المعلومات عن بعضها فكلها معلومات حيوية يجب أن نحصل عليها عن البلاد العدوة قبل وأثناء القتال لتتضح لنا صورة عن قوة العدو .

المعلومات السياسية :

تحاول الدول المتحاربة معرفة معلومات سياسية دقيقة ومفصلة عن بعضها ، ومن هذه المعلومات ما يلي :

١ ـ التشكيل القومي والقبلي والتوزيع الجغرافي لذلك التشكيل في بلاد العدو .

٢ ـ التشكيل الحزبي وتوزيع القوى الحزبية الجغرافي في بلاد العدو .

٣ ـ التشكيل الديني والطائفي وتوزيع قوى هـذا التشكيل الجغـرافي في بلاد العدو .

٤ ـ التوزيع الجغرافي لسكان العدو .

٥ ـ جهاز الدولة الاداري وتنظيمـه وروابطه ، والقـوة الشخصية لـدى اقطابه .

٦ ـ جهاز الدولة القضائي وتنظيمه وقوته واستقلاله .

٧ ـ جهاز الدولة التشريعي وقوة تمثيله للرأي العام .

٨ ـ جهاز أمن الدولة وتنظيمه وولائه للسلطة الحاكمة وحماسه .

٩ ـ إذاعة وتلفزيون وصحافة العدو : حريتها وأثرها .

١٠ ـ شبكات الاتصال السلكي واللاسلكي في بلاد العدو .

١١ ـ الولاء وحماس وارتباط سكان العدو بالقائد .

١٢ ـ التفاوت الطبقي والتطاحن بين طبقات أمة العدو .

١٣ ـ مـدى تـطبيق العـدالـة الاجتمـاعيـة بـين السكـان الأعـداء (الاشتراكية) .

١٤ ـ الـروابط السياسيـة والعسكريـة والاقتصاديـة والدبلومـاسيـة مـع الدول المجاورة والأجنبية بالنسبة للدولة العدوة .

١٥ ـ التطاحن داخل الـدولة العـدوة للاستئثـار بالسلطة وطبيعـة ذلك التطاحن العائلية أو القبلية أو القومية أو الحزبية أو الدينية أو غيرها .

١٦ ـ تنازع العقائد وتيارات التعصب المحلية والوافدة في بلاد العدو .

١٧ ـ لغة أو لغات التخاطب الجماعي في بلاد العدو .

وقـد نضيف معلومات تفصيليـة سياسيـة عن أوجه أخـرى في المجتمع العدو وبالشكل الذي يمكننا أن نستفيد منها في غلبة العدو .

المعلومات العسكرية :

١ ـ تعداد الجيش العدو وخطة تجنيده وموارد العدو البشرية .

٢ ـ تنظيم وتشكيل الجيش العدو .

٣ ـ تدريب الجيش العدو .

٤ ـ تسليح الجيش العدو .

٥ ـ تجهيز الجيش العدو .

٦ ـ تغذية الجيش العدو .

٧ ـ وسائط ترفيه وتثقيف الجيش العدو .

٨ ـ وسائط نقل وسرعة إنتقال الجيش العدو .

٩ ـ روابط ضباط صف وجنود الجيش العدو وضباطه .

١٠ ـ توزيع الجيش العدو أثناء السلم .

١١ ـ خطة تجحفل الجيش العدو أثناء الحرب ونظام معركته .

١٢ ـ ولاء الجيش العدو لقادته .

١٣ ـ تأثر الجيش العدو بالأوضاع السياسية في الداخل .

١٤ ـ تأثر الجيش العدو بالتيارات الفكرية الوافدة من سياسية وعقائدية .

١٥ ـ نظام شارات ورتب الجيش العدو .

١٦ ـ إشارات ورموز ومصطلحات خرائط العدو والجفر وأساليب المخابرة العدوة .

١٧ ـ كفاءة وسائط الاتصال (اللاسلكية) في الجيش العدو .

١٨ ـ صنوف الجيش العدو وتعاونها .

١٩ ـ شبكات الطرق المعبدة الرئيسية والفرعية والنياسم والممرات وشبكة السكك العدوة وطبيعة أراضي العدو والجسور.

٢٠ ـ طبيعة وتجمع الوحدات العدوة واتجاهات وأوقات حركتها .

٢١ ـ الخصائص ذات العلاقة التي تؤثر في قوة جيش العدو .

المعلومات الاقتصادية :

للمعلومات الاقتصادية عن بلاد العدو أثراً حيوياً حيث يمكن تعطيل الجيش العدو في ثكناته قبل أن يتحرك وذلك نتيجة لتدمير مصادر المقاومة العدوة وهي إمكانيات البلاد الزراعية والصناعية . وللمعلومات الاقتصادية أهمية عظمى في بناء خطة السوق ضد البلاد العدوة والعمل بها حال إبتداء القتال . ومن هذه المعلومات ما يلي : -

١ ـ نظام ري وتوزيع سدود ري الدولة العدوة .

٢ ـ آليات ومكائن قطر الدولة العدوة .

٣ ـ آبار ومخازن ومصافي وأنابيب البترول ومواد الوقود الأخرى .

٤ ـ مصانع أسلحة وذخيرة ومستودعات أسلحة وذخيرة الجيش العدو .

٥ ـ مصانع الآليات ووسائط النقل العسكري والمدني .

٦ ـ مستودعات الحبوب ومعامل الأغذية ومصانع السكر العدوة .

٧ ـ مصانع السمنت ومواد البناء التي تستخدم في خطوط دفاع العدو وبنائه.

٨ ـ مصانع مراحل النسيج المختلفة .

٩ ـ مراكز الأبحاث العلمية .

١٠ ـ المخترعات الحديثة الميكانيكية والكيمياوية العدوة .

١١ ـ معامل المستحضرات والأدوية الطبية .

١٢ ـ أكداس ومعامل الورق والمطابع العدوة .

١٣ ـ خزانات المياه .

١٤ ـ نقاط توزيع الوقود على الطرق .

١٥ ـ مواقع البنوك ونظام الدولة النقدي والصيرفي ونظام التأمين .

١٦ ـ مصانع أجهزة الراديو والتلفزيون ومحطات الأذاعة والبث .

١٧ ـ مصانع الآلات والأدوات الزراعية .

١٨ ـ محطات توليد القوة الكهربائية .

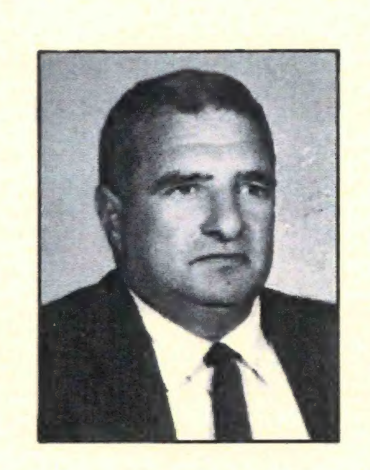
١٩ ـ الموانىء والأرصفة العدوة .

٢٠ ـ أسطول الدولة البحري .

ويمكن إضافة معلومات أخرى إقتصادية تتناسب مع خصائص الدول المختلفة . ويستخدم اليوم طيران الاستطلاع لجمع المعلومات العسكرية والاقتصادية عن البلاد العدوة ، وما عمليات تجسس الطائرات وهروب البحاثة في حقول الذرة إلا إمتداداً لهذه الفعاليات الطبيعية بين الدول ، وعلى الجميع التحفظ في الكلام عن مثل هذه المعلومات .

وتتصارع الدول في بث التيارات العقائدية والفكرية للحصول على مؤيدين خارج حدودها على أن تحتفظ بالقيادة في أراضيها وذلك عندما تعجز في تجهيز نفسها عن البلدان الأخرى بالمعلومات ، وبهذا تعتمد على (الفروع) القومية أو الشيوعية أو الإنسانية . . إلخ في البلاد الأخرى .

فهرست الكتاب



حمْيَر الرشيد

- ولد سنة ١٩٣٤ في بابل - العراق.
- نال بكالوريوس في العلوم العسكرية سنة ١٩٥٨.
- عضو جمعية حقوق الانسان
- عضو جمعية الكتاب والمؤلفين
- عضو نقابة الصحفيين العراقيين.
- عضو جمعية المترجمين العراقيين.
- قام بترجمة :

الحرب النفسية
الشمس والحياة
الاستخبارات الفنية

} العقيد أورست بنتو